

دكتور

طاهر راغب عيسى
كلية دار العلوم



التطور السياسي للمغرب

من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن العاشر الهجري

الناشر

دار النصر للتوزيع والنشر

بجامعة القاهرة

التطور السياسي للمغرب

من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن العاشر الهجري

تأليف الدكتور محمد بن عبد الله الصغري

الطبعة الأولى: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

دكتور

طاهر راغب حسين
كلية دار العلوم

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

خالد بن الوليد

تاريخ الخلفاء الراشدين

الطبعة الأولى ١٩٩٢

الطبعة الثانية ١٩٩٤

الطبعة الثالثة ٢٠٠٤

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع ٥٣٢٥ / ٩٥

٢٠٠٦

الفهرست

ج - د	المقدمة.....
	الباب الاول: الفتح الإسلامى
٣	تمهيد.....
١٣	الفصل الأول : الفتح.....
٨٩	الفصل الثانى: عصر الولاة.....
	الباب الثانى: عصر الدول البربرية الصغرى
١٠٥	الفصل الاول: مدخل.....
١١١	الفصل الثانى : أهم الدويلات البربرية الصغرى
١٣١	الفصل الثالث: الدولة الرستمية.....
١٦٧	الفصل الرابع: الأدارسة.....
١٧٩	الفصل الخامس: الأغالبة.....
	الباب الثالث: عصر الدول البربرية الكبرى
١٩٧	الفصل الأول : الدولة الفاطمية بالمغرب وولاتهم بنو زيرى...
٢١١	الفصل الثانى : المرابطون
٢٤١	الفصل الثالث : الموحدون.....
٢٥٧	الفصل الرابع : الدول القائمة على أنقاض الموحدين
٢٨٩	ملحق الخرائط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد..

فهذا كتاب عن التطور السياسى للمغرب من الفتح إلى نهاية القرن العاشر الهجرى ، قصدت به أن يعطى صورة موجزة عن تاريخ المغرب خلال هذه الفترة، مع توضيح مظاهر التطور السياسى خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة. ومن أهم مظاهر التطور هذه:

١- ثبات حركة الفتح ببناء قاعدة وحاضرة للإقليم ، توجه منها الجيوش، ويقام فى مسجدها الجامع شعائر الدين ، وتدار منه سياسة البلاد.

٢- انفصال إفريقية عن ولاية مصر، وأصبحت ولاية مستقلة تتبع الخليفة مباشرة (وإن تعرض هذا الاستقلال من حين إلى آخر للتوقف ، وعودة الإقليم إلى ولاية مصر، إلا أن التقسيم الإدارى-على أية حالة-كان قد ظهر ، وسيزداد مع تقدم الزمن ثباتاً ورسوماً ليكون المغرب ولاية قائمة بذاتها).

٣- انضمام الأندلس إلى ولاية إفريقية ، (قبل انفصاله ولاية قائمة بذاتها ، ثم انفصاله تحت حكم الأمويين منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، عن جسم الخلافة العباسية).

٤ - ظهور بوادر ولاية الاستيلاء ، ومحاولة الخلافة تحويلها إلى ولاية شرعية ، بإرسال سجل التعيين للمستولى

رئيسه بشار بالله

3991 سنة 400 هـ

تمهيد جغرافي

يقصد بمصطلح المغرب، الأرض الواقعة غرب حدود مصر إلى المحيط، وقد تأخر ظهور هذا المصطلح إلى فترة من مراحل الفتح، وعرفت المنطقة أول الأمر بإفريقية، ثم ظهر تقسيم ثلاثي لهذه المنطقة فيما بعد، بحسب القرب أو البعد من الشرق، فالقسم القريب سمي بالمغرب الأدنى، والبعيد بالمغرب الأقصى، وبينهما توسط المغرب الأوسط.

التضاريس:

أما سطح هذا الإقليم، فإنه ينقسم من الشرق إلى الحدود الغربية لطرابلس قسمين، أولاهما عبارة عن منخفض مستمر، والمنطقة الثانية تبدأ بنهاية المنطقة الأولى وترتفع تدريجياً ابتداء من حدود تونس الشرقية الحالية حتى تنتهي عند المحيط الأطلسي، وتمتد من الغرب إلى الشرق سلاسل جبال أطلس موازية للبحر المتوسط وتنقسم هذه السلاسل إلى مجموعتين أساسيتين: أولاهما المجموعة الشمالية من سلسلة أطلس التي تحصر مسافة ليست بالصغيرة بينها وبين البحر المتوسط تمثل منطقة السهل الساحلي معبد.

والمجموعة الأخرى سلسلة جبال أطلس الكبرى وهي موازية للسلسلة الأولى، وإن كانت أقرب إلى الصحراء منها إلى الساحل، وتنتهي هاتان السلسلتان في تونس. وتسمى السلسلة الأولى أطلس التل والثانية أطلس الصحراء. ويكثر العمران في السهل الساحلي وكذلك في مناطق السهول

الداخلية المحصورة بين سلسلتى جبال أطلس، وقد ربطت هذه السهول بأوديتها السهل الساحلى بداخل البلاد فى بعض المناطق، ويلاحظ على هذه السلاسل الجبلية أنها شبه متصلة، وأنها تمتد من الغرب إلى الشرق، لاترك إلا مسافة محدودة على شاطئ الأطلس عند بدايتها، وتتلاش هذه الجبال فى وسط تونس الحالية، وهى بهذه الصورة تصعب الانتقال من شمال البلاد إلى جنوبها، أى من المنطقة الساحلية للبحر المتوسط إلى داخل البلاد. وربما كان ذلك سبباً فى وقوف المحتلين الأجانب على السهل الساحلى دون أن يتعمقوا كثيراً داخل البلاد. وترتفع بعض هذه الجبال ارتفاعات شاهقة، وهذا هو ابن خلدون يصف بعضها بأنها "شاهقة متوعدة، تتذعر منها الأبصار، ويضل فى غمرها السالك"^(١). ومن أشهر الجبال التى سترد أسماؤها: جبل درن بالمغرب الأقصى، وجبل أوراس فى المغرب الأوسط وجبل نفوسة فى المغرب الأدنى وكما تلعب الجبال دوراً هاماً فى تضاريس المغرب والتأثير على أحداثه، تلعب الصحراء دوراً مشابهاً إن لم يكون أقصى أثراً.

والصحراء الجنوبية مثل مروع للصحراء، فهى من أوسع الصحارى إذ تصل مساحتها إلى سبعة ملايين كيلومتر مربع، ويمكن أن نتخيل مدى ضخامة هذه المساحة فهى تساوى ربع مساحة قارة إفريقيا^(٢).

وطبيعة هذه الصحراء متنوعة بين رمال ناعمة وأرض صلبة متحجرة وقد تعرض جوتيه لتعدد طبيعة هذه الصحراء فوصفها بأنها "سهول أفقية ذات

١- العبر ج ٦ ص ١٢٨

٢- راجع د. مؤنس فى مقالته : "الطرق الصوفية وأثرها فى نشر الإسلام فى الصحراء الكبرى ص ١٠٩ (مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية - المجلد الحادى والعشرين - مدريد)

سطح نجده في بعض الأحيان منبسطة متجانسة، كما ترى في صحراء الجزائر المعروفة باسم بلاد ريغ، وفي أحيان أخرى نجده مغطى بالزلاط والحصى، مما يجعل السير مؤلماً أشد الألم، كما نرى في الصحراء الليبية، وأحياناً ثالثة يكون هذا السطح قاحلاً تماماً في أرض الموت المعروفة في البربرية باسم تانزردقت^(٣) وهذه المنطقة الأخيرة هي التي أطلق عليها العرب منطقة الحمادة.

ولولا بعض الشطوط والواحات (التي يطلق عليها في المصادر المغربية أحياناً الجزائر جمع جزيرة) لما أمكن لأحد اجتياز هذه الصحراء من موقع إلى موقع آخر أحياناً.

غير أن الصورة ليست بهذه الصعوبة في مناطق أخرى مثل مناطق السهول والتلول، ففيها المياه متوفرة من عدة مصادر من الأمطار والأبار والعيون، بحيث أصبحت هذه المناطق من أخصب الأراضي الزراعية، وتتوالت محاصيلها بحيث أمكن الاكتفاء بالسكان.

التعريف بالسكان :

٣- انظر Gauter : Le Sahara P. 120 نقلاً عن د. مؤنس في مقالته : "الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى ص ١٠٩ (مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية المجلد الحادي والعشرون)

شهد الفاتحون المسلمون بمنطقة المغرب. عدة عناصر سكانية كانت

تقطن الإقليم، هي :

أ- البربر وهم أهل الإقليم. وسنعود اليهم بشيء من التفصيل.

ب- البيزنطيون المحتلون للإقليم، الذين تركزوا في المناطق الساحلية أكثر من وجودهم داخل البلاد.

ج- الأفارقة، وهم مجموعة من بقايا الشعوب المحتلة والأجانب ومن انضاف اليهم لخدمتهم من أهل البلاد مندمجاً فيهم، وكانت لهم لغتهم الخاصة أحياناً.

البربر:

يجدر بنا قبل ان نتحدث عن البربر. أن نشير إلى أن لفظ (البربر) لا يعنى التوحش أو الهمجية، وإنما يطلق لفظ البربر ويراد به أمة عظيمة كبيرة ذات حضارة سكنت منطقة المغرب وعاشت فيه سنين طويلة.

وقد قيلت عدة آراء فى سبب تسمية هذه المجموعة من البشر باسم البربر، ويمكن تقسيم هذه الآراء إلى قسمين: قسم يعتمد على تفسيرات لغوية، وقسم آخر يعتمد على ناحية النسب والأصل.

لم يواجه العرب فى فتحهم للبلدان الواقعة تحت الاحتلال البيزنطى، أصحاب البلاد الأصليين، إلا فى المغرب فقد تمت مواجهة ليست بالهينة بين العرب والبربر فاشتد الصراع، وتسبب هذا، مع أسباب أخرى، فى طول المدة التى استغرقها الفتح، ووجد صراع آخر فى القرن الثانى الهجرى بين

الحاكمين والمحكومين في هذه الأرض البعيدة، كل هذا يرشح ضرورة توضيح الخطوط العريضة لشخصية البربري.

وقد زاد صعوبة هذه المواجهة وخطورتها أنها مواجهة الند للند، بل مواجهة المرء لشبيهه، فالبربر أشبه الناس بالعرب، ودماء البربر، ثابت أنها اختلطت بدماء سامية، وهناك من العلماء المحدثين من يحاول أن يقرر أن جزءا كبيرا من مكونات هذا الشعب وفدت إليه من شبه جزيرة العرب، وطبيعة الحياة البربرية في جملتها، فيها بعض الشبه بطبيعة الحياة العربية، فقسم منها متحضر، وقسم منها بدوي، ويهمننا هنا التركيز على القسم البدوي في البربر، فهو القسم الذي لم يحمل في نفسه أثارا تذكر لمؤثرات غربية عنه بعيدة من حيث الزمن أو قرينة معاصرة للفتح الإسلامي، أي تأثيرات المحتلين البيزنطيين.

وقد خص ابن خلدون السمات الخلقية للبربر بفصل من الجزء السادس من كتابة العبر، هو الفصل الثالث من الكتاب الثالث الخاص بأخبار البربر، وعنوان هذا الفصل كاف لإظهار ما فيه، وهو: (الفصل الثالث في ذكر ما كان لهذا الجيل قديما وحديثا من الفضائل الإنسانية، والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقى العز ومعارج السلطان والملك). أما ما وصفه ابن خلدون فيه بأنهم مرهوبو الجانب، شديدو البأس تخلقوا بالفضائل الإنسانية من خلق وعز وكرم. وأنقل من هذا الفصل جزءا يسيرا يقول ابن خلدون: "وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية، وتتافسهم في الخلال الحميدة، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومراعاة المدح والتناء من الخلق، من عز الجوار، وحماية النزول، ورعى الأذمة، والوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره والثبات في

الشدائد وحسن الملكة، والإغضاء عن العيوب، والتجافى عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر الكبير، وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة وإيابة الضيم، ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصر دينه، فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعة من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، أن قادتهم إلى مراقى العز، وأوفت بهم على ثايا الملك، حتى علت على الأيدى أيديهم، ومضت فى الخلق بالقبض والبسط أحكامهم"

ومفتاح شخصية هذا البدوى البربرى هو تمسكه بحريته، يدافع عنها بإصرار، وتاريخه ينبئ عن هذا، ومقاومته معروفة ضد الرومان والبيزنطيين، نجحت أحيانا فى بعض مناطق فتأسست على أساسها دويلات بربرية مستقلة، ولم يثن البربر عن ثورتهم، طول فترة الثورة، ولا التضحيات بالروح والمال.

وقد لقى الفتح الإسلامى من البربر أول الأمر مقاومة واضحة، عندما تصور البربر - خطأ - أن الفتح لا يعدو أن يكون حلقة فى سلسلة الاحتلال، لكن البربر أنفسهم، بعد أن اعتنقوا الإسلام عن حب واقتناع، تحولوا إلى أكبر دعاة له بشتى الأساليب، وفتح الأندلس على يد جند من البربر دليل طيب على هذا.

إن الاقتناع هو المفتاح الثانى لهذه الشخصية، ومن ثم لا نجد غرابة ولا تناقضا فى أن يميل البربر إلى الحضارة الإسلامية بعد تمام الفتح وبعد أن حظوا باستقلال سياسى فى القرن الثانى الهجرى، فإذا عرف هذا، أمكن الرد على ما يدعو جولييان بالتناقض الغريب، فى قوله: "وهكذا يبدو التناقض

الغريب المتمثل في أن البربر، في الوقت الذي تحرروا فيه سياسيا، تأثروا عميق التأثير بالحضارة السامية، وحاولو لأول مرة منذ بدء التاريخ على ما يظهر أن يتمشركوا^(٤)، ذلك - من وجهة نظرنا - لأن البربر اقتنعوا بالإسلام.

إن الميل إلى الحرية والاقتناع، سبب أساسي لكثرة ثورات البربر قبل الإسلام وإبان أوائله (ونرى نماذج لهذا أيضا في العصر الحديث فيما فعله المغاربة في المغرب الثلاثة - حسب التقسيم الذي نسير عليه - من مقاومة الاستعمار الإيطالي والفرنسي والاسباني) مما حدا بمستعمرهم أن يصفوهم "بحب الفوضى وعدم الرضوخ"

هنالك قضية مهمة نختم بها هذا القسم، ذلك أن البربر البدو، شأنهم شأن البدو في معظم الأحوال كانوا لا يميلون إلى حكومة مركزية، وكان العامل القبلي واضحا، بحيث يصعب اختيار رئيس على مجموعة قبائل متجاورة، ومن هنا، ولسبب آخر سنذكره في موضعه، مال بعض البربر إلى رؤساء من غير تجمعاتهم السكانية، يقول جوليان: "ويظهر أننا بإزاء أشد خاصيات تاريخ المغرب عراقة وهي معارضتهم الشديدة للأوامر الصادرة لهم من ذويهم وعزيمتهم القولاذية في تشديد المراقبة على كل من يتقلد الحكم منهم"^(٥) هذا هو البربري في مجتمعه القريب من المجتمع البدوي العربي أما المرأة البربرية، فيبدو أنها قامت بدور كبير داخل الأسرة لانشغال الرجل

٤- تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٥٣ ويطلق جوليان مصطلح الحضارة السامية، والمصطلح الذي أميل إليه هو الحضارة الإسلامية التي شملت إنجازات حضارية لعدة أجناس.

٥- تاريخ افريقيا الشمالية ج ٢ ص ٣٩٢ وسيظهر في فصل تال مؤثر أكثر وضوحا من العامل القبلي.

بالترحال أو بالقتال بيد أن هذا الدور تضخم فى بعض التجمعات البدوية البربرية، فنالت المرأة الحظوة الكبرى، وذلك فى بعض البطون الصنهاجية ساكنة الصحراء والتي أطلق عليها قبائل الملمثمين (مثل كدالة ومسوفة ولمتونة). كما كان يحدث أحيانا انتساب الولد لأمه، "ويتوارث مع أخواله لا مع أعمامه"^(٦)

مكانة كبيرة تلك المكانة التي احتلتها المرأة البربرية ابان الفتح، وطبيعى أن تحظى مع الإسلام بالمكانة اللائقة وكانت فى التاريخ السابق تحظى بمثل ذلك، وهذا هو جوستاف لوبون يقول:

"والمرأة البربرية على جانب عظيم من الحمية، فهي تحارب أحيانا بجانب زوجها، فخلد هوميروس ذكراها حين قص علينا خبر تلك الملكة والنسوة المترجلات اللاتي فتحن بلاد لوبية وبعض آسيا الصغرى، ومن النساء البربريات من على عرش الملك"^(٧)

٦- دبور : تاريخ المغرب الكبير ج ١ ص ٧٥.

٧- حضارة العرب ص ٣٠٧

الباب الأول

المغرب من الفتح إلى نهاية عصر الولاية

الفصل الأول

الفتح الإسلامي

الفصل الأول

الفتح

عرف الإقليم، أو أجزاء منه، العرب المسلمين الفاتحين، مدة طويلة من الزمن، بدأت حوالي سنة ٢٢هـ، وامتدت بعد ذلك إلى أن تمت آخر خطوات الفتح، أول العقد الأخير من القرن الأول الهجري، حيث صار إقليم المغرب إقليماً إسلامياً، يمثل الجناح الغربى الإسلامى، وتعتبر هذه الفترة من أكبر الفترات التى استغرقها فتح إسلامى لمنطقة أخرى.

ويعتبر فتح المغرب، من زاوية من زواياه، امتداداً لفلسفة الفتوحات الإسلامية، أو استراتيجيتها العسكرية، فإذا كان الصراع قد بدأ فى الشام ضد القوى البيزنطية، فلا بد أن يقف هذا الصراع عند حدود فاصلة آمنة، ولأن طبيعة الأرض من الشام إلى المغرب متصلة لا يفصلها حد جغرافى مانع، ولأن العدو واحد فى هذه المنطقة الشاسعة، فكان لابد أن يواجه العرب المسلمون عدوهم البيزنطى فيها، ولم يكن بد إذاً من ضرورة فتح المغرب، لتأمين ما سبق فتحه، وللقضاء على العدو المتوثب، تحقيقاً للاستراتيجية العسكرية الإسلامية المشار إليها آنفاً.

لقد نظر المسلمون إلى ما يلى مصر غرباً، فوجدوا أن البيزنطيين سيطروا تقريباً على الساحل المغربى كله، كما سيطروا على عدة مدن أخرى داخلية، مثل سببلة، وبعض بلاد الجريد، فوجب على المسلمين إذا اتقاء خطر هذه القوة، وتأمين الحد الغربى لمصر.

ويمكن تقسيم الفتح الإسلامي للمنطقة إلى عدة مراحل:

١- مرحلة ما قبل القيروان

٢- مرحلة القيروان

٣- مرحلة تمام الفتح

وفيما يلي كلمة موجزة عن كل مرحلة من المراحل الثلاثة السابقة.

أولاً: مرحلة ما قبل القيروان:

ما أن أنهى عمرو بن العاص فتح الاسكندرية، حتى نظر إلى الجانب الغربى، وواصل السير غرباً إلى أن وصل برقة وذلك أواخر سنة ٢١هـ، وكان عمرو يعلم أن برقة، داخلة في الحد السياسى لمصر البيزنطية، فها هو ذا يجيب بأنه ليس لأهل مصر عليه من صلح سوى ما كان لأهل برقة^(١)، ولذا أقدم على فتحها، لأنه يعتبرها مصرية^(٢)، وبهذا يمكن إخراج فتح برقة من فتوح إفريقية واعتبار فتحها إتماماً لفتح مصر، ووقوفاً عند حدها الغربى. وكان لا بد من تأمين الحد الغربى للفتح الجديد، ريثما يحين الأوان لمواصلة الفتح، وللقضاء على قوة البيزنطيين فى ذلك الجانب.

١- هناك اشارة إلى أن عهداً أخذه أهل برقة من عمرو بن العاص، يظهر هذا فيما نقله البلاذرى عن لهيعة، عن إبراهيم بن محمد، عن انوب بن أبى العالقة، عن أبيه، قال : سمعت عمرو بن العاص يقول على المنبر : لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبض مصر على عهد ولا عقد، إن شئت قتلته، إن شئت خمدت، وإن شئت بعت، إلا أهل انطابلس، فإن لهم عهداً يوفى لهم به" (ص ٢٥٤).

٢- كانت برقة تابعة لمصر من أيام الاحتلال الرومانى والبيزنطى، واستمرت تحت الإدارة المصرية مدة طويلة أيام الخلفاء الراشدين، فالدولة الأموية، ومدة طويلة من الدولة العباسية.

وكانت خطة عمرو بن العاص في هذا - على ما يبدو - تقوم على محورين: المحور الأول إقامة حاجز وقائي، والمحور الثاني هو إظهار القوة، لقوة البيزنطيين في الغرب.

ولتحقيق المحور الأول، أمر عمرو بن العاص عقبة بن نافع أن يواصل تحركه من برقة حتى زويلة، فأصبحت هذه المنطقة تخضع للمسلمين، بصورة أو بأخرى، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين^(٣)، بمثابة حاجز وقائي يمنع الهجمات ضد مصر من جهة المغرب.

وأما محور إظهار القوة ضد البيزنطيين، فقد تمثل في تطلع عمرو بن العاص إلى داخل إفريقية، ولم يكن هنالك مدينة كبيرة أقرب إليه من مدينة طرابلس، فكان تركيز عمرو بن العاص عليها.

ويؤرخ لتوجه عمرو بن العاص لفتح طرابلس بتاريخين، أحدهما سنة اثنتين وعشرين، والآخر عن الليث بن سعد أنه تم سنة ثلاث وعشرين^(٤).

والغالب على الظن أن السنة الأولى (سنة ٢٢ هـ) هي الأقرب، لأن عمراً كان عليه سرعة تأمين الحد الجغرافي لمصر فما كان هناك فائدة من الانتظار، فأسرع ناحية طرابلس بنهاية فتحه لبرقة، وقد اختار البلاذري هذه السنة قال:

"سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة اثنتين وعشرين"^(٥).

٣- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٠

٤- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٠ - ٢٣١

٥- البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٦٦، وهو أيضاً اختيار ابن الأثير: الكامل

وعسكر عمرو بالقرب من المدينة، في مرتفع من الأرض يقع شرقيها، يشرف منه على الميناء والأسوار، حيث كانت الأسوار تغطي الناحية المواجهة لليابسة، في حين لم يكن يدور على المدينة سور من ناحية البحر وكان البحر ملاصقاً لسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور".

وبقى عمرو محاصراً المدينة من ناحية البر فقط مدة شهر، دون أن يؤثر هذا في المدينة أثراً ذا بال، لخلو جهة البحر من الحصار، وبذا يسهل إمداد المدينة، بما تحتاجه، وكان عمرو خلال هذه الفترة يرسل العيون تحاول تحسس طريق للمسلمين إلى داخل المدينة ونجحت إحدى سرايا الاستطلاع هذه في التوصل إلى عورة، وكانت فرجة بين البحر والبر، نتجت عن تحركات البحر بين مد وجزر، وكان الوقت ظهراً والحر شديداً، ومن بداخل طرابلس يظن أنه آمن، فدخل سبعة نفر، أفراد سرية الاستطلاع، إلى داخل الأسوار، ولمحهم عمرو بن العاص من المرتفع الذي كان معسكراً فيه، فأمر جيشه بالهجوم، وتم تحقيق مفاجأة عسكرية جيدة ضد البيزنطيين، الذين لم يجدوا فرصة لتنظيم المقاومة، بل هربوا إلى سفنهم "قلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة"^(٦).

وواصل عمرو - بعد نجاحه هذا - سياسة إظهار القوة، فتابع السير نحو مدينة أخرى هي مدينة سبرت، كانت ظنت أنها بأمن من الفتح لما استعصى على عمرو فتح طرابلس، ولكن عمراً بعد نجاحه في فتح طرابلس، أسرع يغتتم الفرصة، مستفيداً من عامل الزمن للمفاجأة، وأرسل "خيلاً كثيفاً" لمدينة سبرت، وأهلها غافلون يظنون أنهم بأمن من قوة عمرو، فصادف وصول

٦- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣١

قوة الخيل إليها أن أبوابها مفتوحة لتسريح الماشية لدخولها المسلمون، واحتوى جند عمرو على ما فيها، ورجعوا إلى عمرو^(٧).

وكما تمكن عمرو من فتح سبرت، فتح أيضاً مدينة ثالثة هي مدينة ودان، بسرية قادها بسر بن أرطاة.

وبهذا يكون عمرو قد نجح بوضوح في تأمين الحدود الغربية لمصر الإسلامية. ولكن هل يكتفى عمرو بهذا، وهو المشهور بحب الفتوح؟

لقد نظر عمرو بشغف إلى إفريقية، بعد أن اختبرها بالفتوح والسرايا وجاس خلال حدودها، إبان فتوح طرابلس وما حولها، فأسرع يرسل إلى عمر (ابن الخطاب أمير المؤمنين، يستأذن في فتح إفريقية.

وتحفظ لنا كتب التاريخ نص الرسائل المتبادلة بين عمرو وعمر، ينقل ابن عبد الحكم عن عبد الملك بن مسلمة عن أبي لهيعة عن ابن هبيرة عن أبي تميم الجيشاني نص رسالة عمرو يقول فيها:

"إن الله قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه، فعل^(٨).

٧- نفسه

٨- فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٢. وما أدري ماذا يقصد عمرو بأن طرابلس

تبعد عن إفريقية بتسعة أيام؟ فهل قصد أنها خارجة عن الحد، أما أنه قصد ابتعادها عن قاعدة إفريقية (قرطاجنة) بهذا القدر من الأيام؟ وما أظن إلا أن الأمر الثاني أرجح وأقرب.

وخطاب عمرو ذا يدل على انضباط العلاقة بين الرئيس والمرءوس، ويدل على مركزية الأوامر الخاصة بالجهاد، فما كان عمرو ليصدر عن رأيه دون الاستعانة بأمر الخليفة.

ولما وصل خطاب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر، سمعه جالسوه يقول: "أفريقية.. المفرقة، المفرقة، لا أوجه إليها أحداً ما مقلت عيني الماء"^(٩)، ورد على خطاب عمرو رافضاً فكرة الغزو بالرسالة التالية:

"إنها ليست بأفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"^(١٠).

وموقف الخلافة هنا متسق مع إحساس الخليفة بالمسئولية، ومتفق ومجريات الأحداث، فما زالت مصر حديثة عهد بالفتح، وخط الإمدادات سيطول جداً، وربما تعرض في فترة أو أخرى لخطر القطع أو التأخر.

وقد أثبتت الأحداث أن الوقت لم يحن بعد، فقد وصل إلى علم عمرو ما يدور في مصر، من محاولة بعض البيزنطيين نكث العهد، وأنه من الضروري أن يعود إلى مصر، فاكثفت سياسة الفتح في تلك الفترة بإرسال البعوث الخفيفة السريعة، للتذكير بين حين وحين بقوة المسلمين.^(١١)

وباكتمال هذا المحور الثاني، أعنى محور إظهار القوة، عاد عمرو إلى مصر، وقد حقق هدفين مهمين:

٩- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٢

١٠- نفسه.

١١- يشير ابن عبد الحكم لى فتوح مصر والمغرب ص ٢٣٢ إلى ذلك بقوله:

"وكان عمرو يبعث الجريدة من الخيل، ليصيبون الغنائم، ثم يرجعون".

أولهما تأمين الحد الغربي لمصر من القوى البيزنطية بالغرب، وثانيهما عرك أمر الإقليم واختباره، وإشعار أهله أنهم ليسوا مطلوبين، وأن الغرض الرئيسي إنما هو العدو، أعنى البيزنطيين. (١٢)

ويبدو أنه نجح جيداً في تحقيق هذين الهدفين، والدليل على ذلك هو عدم وجود إشارة ذات بال إلى مقاومة بربرية لهذه التحركات العسكرية، ويبدو أن معظم البربر مالوا إلى الانتظار والمراقبة إلى أن تتضح لهم كل الأمور. (١٣)

وعاد عمرو إلى مصر، وتوقفت أعمال الغزو إلا من عدة سرايا صغيرة - كما مر - من هذا الوقت إلى سنة ٢٧هـ، حيث كان عمر - رضى الله عنه - قد توفي سنة ٢٣هـ وكان على المسلمين انتظار أوامر الخليفة الجديد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وحتى يتحقق ذلك واصل عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإلى مصر الجديد، سياسة عمرو بن العاص فيما يمس الناحية الغربية، فاستمرت السرايا أيضاً، وإلى ذلك يشير ابن عبد الحكم بقوله: فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يبعث المسلمين

١٢- بيد أن هناك إشارة إلى أن الروم (البيزنطيين) بعد أن فتح عمرو بن العاص برقة، استعانوا بقبائل نفوسة من البربر الذين يصفهم بأنهم "كانوا قد دخلوا في دين النصارى" مما يشير إلى تحالف بيزنطى بربرى مبكر جداً، وإلى تدخل بربرى، لكنه محدود. (انظر المرجع السابق)

١٣- فمن هذا المقام، يمكن أن ندرج الصراع العربى الإسلامى ضد البيزنطيين، فى منطقة برقة وطرابلس، إبان فتح عمرو بن العاص لها، ضمن الصراع الإسلامى البيزنطى على مصر.

فى جراند الخيل، كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو، فيصلبون من أطراف إفريقية ويغلمون. (١٤).

وواضح أن من بين أغراض هذه السرايا، أو الجراند، التأكد من أحواز مصر الغربية، ورصد المتغيرات على الحدود، ومراقبة القوى البيزنطية المعادية.

فتوح إفريقية

١- مرحلة عبد الله بن سعد بن أبى سرح:

كانت الخطوة السابقة من عمليات عسكرية فى طرابلس، وأحوازها، وأحواز برقة - كما سبق أن قررنا - إظهاراً لقوة المسلمين وتأكيداً وتأميناً لفتح مصر وحدها الغربى.

ويمكن للباحث أن يلحظ فى الفترة التى وقعت بين عودة عمرو من طرابلس، والتفكير فى إعادة غزوها ثم التفكير فى غزو إفريقية على عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح - يمكن ملاحظة أن البيزنطيين قد جمعوا أمرهم وبدأوا فى الغزو المضاد، أو محاولة أخذ ما فتحه المسلمون، ويمكن أن نلاحظ كذلك استمرار هذا الأمر إلى ما بعد الزمن المشار إليه بوقت غير قصير، بل يمكن التأريخ لبدء هذه الفترة بمحاولة البيزنطيين أخذ الاسكندرية. (١٥)

١٤- فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٦

١٥- راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٢٣٥ - ٢٣٨ ، ولا حظ لإصرار

البيزنطيين على الهجوم فى معركة ذات الصواري وغيرها.

إن مواجهة جديدة بين المسلمين والبيزنطيين لا بد أن تستأنف، يكون ميدانها الجناح الغربى، وستطول مدتها عدداً من السنين، إلى أن يتمكن المسلمون فى نهايتها من تخضيد خطر هؤلاء البيزنطيين فترة من الزمن.

وطبعى أن يكون أول من يحس بخطر البيزنطيين هى ولاية مصر الإسلامية، ممثلة فى واليها الجديد المعين بعد عزل عمرو عنها، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح.

ونقل عبد الله بن سعد إلى مركز الخلافة ما أحس به من خطر فى رسالة غاية فى الأهمية، أشار إلى بعضها المالكى إذ يورد شكوى ابن أبى سرح من البيزنطيين ، وغلبهم وقرب جندهم من المسلمين (١٦)

ويزيد ابن عبد الحكم على هذا إشارته إلى استئذان عبد الله بن سعد الخلافة فى ضرورة غزو هذه الناحية من المغرب: "فكتب فى ذلك عبد الله بن سعد إلى عثمان، فأخبره بقربهم من حوز المسلمين، ويستأذن فى غزوها. (١٧)

فى حين يزيد ابن الأثير طلب ابن أبى سرح الاستكثار من الجموع عليها. (١٨)

١٦- رياض النفوس ص ٨-٩.

١٧- فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٦

١٨- انظر الكامل ج ٣ ص ٨٩

اذن فالشكوى واضحة في المصادر الثلاثة من قرب البيزنطيين، وخطرهم، وضرورة الاستكثار من الجند المسلمين، وضرورة القيام بضربة وقائية، تدفع عن المسلمين هذا الخطر البيزنطي بإفريقية.

وأمام مشكلة كهذه لجأ عثمان إلى الشورى، ويوجز ابن عبد الحكم الأمر بقوله: "قندب عثمان الناس لغزوها، بعد المشورة منه في ذلك" (١٩) في حين يفصل النويرى الأمر موضحاً من الذى استشاره عثمان، ومن الموافق، ومن المخالف، وما سر معارضته، لقد استشار عثمان معظم الصحابة من أهل الحل والعقد، وجلهم وافق، إلا أن أبا الأعور سعيد بن زيد كره ذلك، ويعتمد في رفضه هذا على سبق رفض هذا الأمر أيام خلافة عمر بن الخطاب، ووجه أبو الأعور كلمة جامعة لعثمان. قائلاً: "ولا أرى لك خلاف عمر" (٢٠).

١٩- فتوح مصر ص ٢٤٦

٢٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د. حسين نصار، ج ٢٤ ص ٨، ويصور أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم في كتاب طبقات علماء إفريقية ص ١١-١٢ ما أصاب عثمان عندما بلغه كتاب عبد الله في أمر غزو إفريقية، وكيف أنه انفرد في المسجد بليل يتعبد، ويتفكر، ويفكر، وكيف أنه استشار علياً، وطلحة، والزبير، والعباس، وسعيد بن زيد أبا الأعور فجمعوا له رجلاً رجلاً، "فلم يزل جالساً يشاورهم حتى متسع النهار، ثم قام إلى بيته ففرقوا" ثم استدعى أبا الأعور وحده ليعرف سبب اعتراضه، ثم شاور بعد ذلك زيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة، ثم قال عثمان بعد هذا كله: "قد نهج لى رأيى، فندب الناس إلى غزو إفريقية".

إن عثمان - رضى الله عنه - في هذا نموذج ومثال للحاكم المسلم في خوفه على المسلمين، وحرصه على صالحهم، وفي سيره على منهج الشورى، وفي بذل غاية الجهد في كل مسألة، حتى يتضح له الرأي.

اعتمد أبو الأعور، الممثل للمعارضة هنا، على مبدأ دستوري هو عدم مخالفة أمر للخليفة السابق، في حين نظرت الأغلبية، وراعت المصلحة العامة، وهو أمر مقدم، فأشاروا بإنفاذ الجيش.

وحرص عثمان على كمال الحشد^(١١)، وقد أطلق على هذا الجيش اسم جيش العبادلة^(١٢)، لكثرة من خرج فيه من الصحابة والتابعين، ممن تسموا باسم عبد الله أو عبد الرحمن.^(١٣)

وواصل عثمان مسئولياته أميراً للمؤمنين، ومسئولاً عن الجند، فأخرج للجند أعطياتهم، وفرق فيهم السلاح، وأمدهم بالخيول كما قام بدور شخصي في الجهاد، بأن جاهد بأمواله، مثلما كان يفعل لجند غزوات رسول الله صلى الله

٢١- وقد خرج في هذا الجيش عدد كبير من بنى هاشم وبنى تميم وبنى عدي، وبنى أسد بن عبد العزى، وبنى سيم، وجماعة من بنى أمية، وعدة من بنى زهرة، وعدد من بنى هذيل، وخرج من جهينة ٦٠٠ رجل، ومن أسلم ٣٠٠ رجل، ومن مزينة ٨٠٠ رجل، ومن بنى سليم ٤٠٠ رجل، ومن بنى الدليل وضمرة وغفار ٥٠٠ رجل، ومن غطفان وأشجع وفزارة ٧٠٠ رجل، ومن كعب بن عمرو ٤٠٠ رجل. انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٨-١٠

٢٢- انظر : النويري، نفسه ص ٧-٨

٢٣- مثل عبد الله بن عباس و عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبيد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وعبد الله بن أنس، وعبد الرحمن بن صخر (انظر النويري ص ٨-٩)

وقد شك الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في سرد هذه الأسماء وأوعز وجودها إلى حرص مؤرخي المغرب على الاكتثار منها لما في كثرتها من تعظيم لشأن إفریقیة (انظر كتاب فتح العرب للمغرب ص ٨١). نعم ربما كانت هناك مبالغة من قبل مؤرخي المغرب، ولكن يلاحظ الباحث أن كتب المشرق شاركت هي الأخرى في سرد هذه الأسماء.

عليه وسلم، إذ "أعان عثمان الجيش بألف بعير من ماله، فحمل عليها ضعفاء الناس" رضى الله عنه، وخطب فيهم، وحثهم، ورغبهم في الجهاد، وكان ذلك في المحرم سنة سبع وعشرين^(٢٤)، وكان قائد هذا الجيش إلى أن يصل إلى مصر هو الحارث بن الحكم.

وبوصول هذا الجيش إلى مصر، وبانضمام جند مصر إليه أصبح تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح جيش كثيف، وصل إلى عشرين ألفاً^(٢٥)، ثم زاد أثناء العمليات العسكرية بجند قوامه اثنا عشر ألفاً أرسلهم عثمان مدداً.^(٢٦)

وكان المتوقع أن يخرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح في غزوة فاتحة تضم إفريقية إلى مصر، وتكون انطلاقة لمزيد من الفتوح تجاه الغرب، ولكن يبدو أن خطة الجهاد في هذه الفترة وظروف القتال جعلت غاية هذه الغزوة تتركز على ضرب القوات البيزنطية، التي تجمعت وقوى أمرها في هذه المنطقة، على حساب بعض ما حققه المسلمون من سابق نصر، وخاصة في طرابلس.^(٢٧)

أما مجريات الأمور، وخريطة الأحداث، فيمكن تلخيصها في أن البيزنطيين كانوا قد مدوا سلطانهم على مناطق كبيرة، منها طرابلس، وقابس،

٢٤- النويرى : نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٠

٢٥- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٤٧

٢٦- النويرى : المرجع السابق ص ١٢

٢٧- وجد المسلمون أن طرابلس قد استولى عليها البيزنطيون وتحصنوا بها،

الظفر النويرى: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١١

وغيرهما، وأنهم ركزوا قوتهم في منطقة داخلية في سبيطلة، اتخذوها مقراً وقاعدة لهم بدل قرطاجنة وكان رئيسهم يدعى جريجوريوس^(٢٨)

وعلى الرغم مما قيل من أن جريجوريوس هذا قد استقل عن حكم البيزنطيين، إلا أن الأمر والواقع لا يمنعان الدولة البيزنطية من معاونة عاملها السابق ضد من يعتبرونهم عدوهم الأول، أعنى المسلمين، ومن هنا يمكن تصور الأعداد التي يضمها جيش جريجوريوس^(٢٩)، ولكن ضخامة جند جريجوريوس، ربما ترجع إلى أنه بميله عن قرطاجنة، قاعدة الإقليم، إلى سبيطلة، في الداخل، أراد أن يستألف عدداً من البربر ليعاونوه ضد القوات الإسلامية.

وكان البيزنطيون أرادوا تعطيل القوات الإسلامية وشغلها بعمليات جزئية ضد حصن أو آخر، ولكن الواقع أن ابن أبي سرح لم يقع فيما أراده البيزنطيون، من صده وتعطيله عن زحفه تجاه مركز تجمع قواتهم في سبيطلة، حتى ولو كان هذا في سبيل أخذ مدينة مثل طرابلس، وقد نصح عبد الله بن سعد مستشاروه، فاستمع إليهم، وتوجه إلى حيث التجمع البيزنطي، إلى القوة التي يريد القضاء عليها، أو تخضيد شوكتها، وقل قوتها، فزحف ابن أبي سرح إلى سبيطلة.

٢٨- ورد اسمه في معظم المصادر الإسلامية على أنه جرجير، كما أورده

اليقوي في تاريخه ج ٢ ص ١٦٥ على أنه جرجيس.

٢٩- أوصله ابن عذارى في البيان المغرب ج ١ ص ٩ إلى مائتي ألف، وذكر

النويري في المرجع السابق نفسه أن جيش جريجوريوس وصل إلى عشرين ومائة ألف، ووضح أن على القارئ أن يأخذ هذه الأرقام ببعض التحيص، لظهور عامل المبالغة فيها.

ولم يفتح فحس قريب من سبيطة دار القتال عدة أيام ووصل المدد الإسلامي، وكان القتال يدور يوماً إلى وقت الظهر ثم يرجع الفريقان إلى معسكر كل، ثم فجأة غير المسلمون خطتهم، بأن حجزوا عدداً من الأبطال دون قتال ليواصلوا هم القتال عندما يتوقف الفريقان عن العمليات العسكرية ويعودان إلى معسكريهما، وحينذاك يخرج هذا الفريق المستريح ليهاجم على القوات البيزنطية التي بدأت في الراحة، فكان النصر للمسلمين، وانهزم البيزنطيون، وقتل رئيسهم، وفقدوا عدداً كبيراً من القتلى، وخسروا مالا جماً، وانهزم فلهم إلى مدينة سبيطة، غير أن المسلمين واصلوا مهاجمة القوات البيزنطية، فحاصروها، وفتحوا سبيطة، فأصابوا غنائم كثيرة، ولم يكتف ابن أبي سرح بهذا، بل بث سراياه هنا وهناك، فأذلت تلك الواقعة من بقى من الروم (٣٠).

وانتهت هذه الغزوة بإقامة صلح على شروط مالية بالغ فيها المؤرخون المسلمون. (٣١)

واستغرقت هذه الغزوة وقتاً طويلاً، بدأ بالتجهيز لها أول سنة ٢٧هـ وانتهى سنة ٢٩هـ، عندما عاد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر، دون أن يستثمر نتائج انتصاره الفائق في سبيطة وما حولها، ولو فعل لأمكنه

٣٠- انظر تفاصيل هذه الواقعة في النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١١ - ١٦.

٣١- قيل إن الصلح تم على ثلاثمائة قنطار من الذهب، وقيل على ألف وخمسمائة ألف (انظر النويري: نفسه ص ١٦ - ١٧) وقيل على مائة ألف رطل ذهب (انظر المالكي: رياض النفوس ج ١ ص ١١) غير ما غنم المسلمون من أموال ضخمة.

ضرب المغرب الأدنى ببعض يسر، ولكن عودته إلى مصر يمكن أن تفسر
بعدة أسباب:

أ- طول مدة غيابه عن مصر، وطول المدة التي أقامها جنده في الإقليم
(حوالي سنة وبعض السنة) (٣٢).

ب- عدم تأمين خطوط الإمداد لو طالت عن هذا الحد.

ج- عدم اتخاذ قاعدة للمسلمين في إفريقية (٣٣).

د- تجمع بعض القوى البيزنطية على الساحل والنواحي الشمالية
لمحاولة ضرب القوة الإسلامية. (٣٤)

تبقى نقطة جديرة بالتفصيل: من هم الذين صالحهم ابن أبي سرح؟ هل
هم البربر أو البيزنطيون؟

٣٢- قدرها المالكي في رياض النفوس ج ١ ص ١٧ بسنة وشهرين، في حين
قدرها النويري في نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٨ بخمسة عشر شهراً.

٣٣- أشار البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٦٨ إلى أنه "لما صالح عبد الله بن
سعد بطريق إفريقية، رجع إلى مصر، ولم يول إفريقية أحداً، ولم يكن لها يومئذ
قيروان ولا مصر جامع" كما أشار ابن عبد الحكم في فتوح مصر والمغرب ص
٢٤٦-٢٤٧ إلى أنه "رجع إلى مصر، ولم يول عليهم أحداً ولم يتخذ قيرواناً".

٣٤- إن استجابة ابن أبي سرح لطلب الصلح، لن تكون مستغربة، إذا علم أن
البيزنطيين استعدوا لإرسال أسطول إلى المنطقة، بعد أن بلغهم نبأ هزيمة جريجوريوس،
في موقعة سبيطلة هذه (انظر المالكي: رياض النفوس ج ١ ص ١٧) إن رد الفعل
البيزنطي السريع هذا، لابد أن تكون أنباؤه وصلت إلى ابن أبي سرح، فاتخذ قراره
السريع والصحيح بقبول طلبهم الصلح والعودة إلى مصر مؤثراً السلامة، وعدم التعرض
لحملة بيزنطية قادمة إليه، وهي مستريحة، وجنده قد أمضوا مدة طويلة في ميادين
القتال.

إن هنالك إشارة عابرة في نص البلاذري المنقول في الهامش السابق،
تنص على أن عبد الله بن سعد، صالح (بطريق إفريقية) يعنى بذلك رئيس
البيزنطيين. (٣٥)

وينبغي التركيز هنا على أن هذه الغزوة كانت تستهدف البيزنطيين وأن
معظم تعاملها كان معهم، بعكس الحملات الأولى التي قام بها عمرو بن
العاص على برقة وطرابلس، كما ينبغي تذكر أن قبضة البيزنطيين على
طرابلس قد ضعفت، وأن المسلمين عادت اليهم سيطرة ما على هذه المدينة
من غير أن نزع أنهم أتموا فتحها، أو جعلوها مصراً إسلامياً.

ويلاحظ في مقام الصراع البيزنطي الإسلامي أن من أهم نتائج معركة
سببلة هذه:

١- فرع البيزنطيين، والتجاء أكثرهم إلى الحصون. (٣٦)

٢- طلب البيزنطيين الصلح مع ابن أبي سرح، وعرضوا في سبيل هذا
الصلح كمية ضخمة من الذهب على أن يعود جيش المسلمين إلى حدود
مصر. (٣٧)

٣٥- يشير المؤرخون إلى أن اسمه جناحة (انظر النويري المرجع السابق ص
١٩) أو صاحبة (انظر ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١١)
٣٦- يقول ابن أبي دينار في المونس ٢٧ ص : "ذلت الروم بإفريقية، والتجأ
أكثرهم إلى الحصون، وداخلهم الرعب"
٣٧- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٨٥.

ب- مرحلة معاوية بن حديج

بعد غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكبرى، يلحظ القارئ ركوداً أو توقفاً في حركة الجهاد والفتح، ويرجع كثير من الدارسين هذا التوقف إلى ما أصاب العالم الإسلامي من أزمات أواخر خلافة عثمان، والفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة، وتولى خليفة جديد، وما صادفه على بن أبي طالب أمير المؤمنين من خلافات وأزمات، وصراع عسكري.

نعم تلك ظروف غاية في القسوة، والصعوبة، ولكن الجهاد فوق هذا جميعاً، وصالح المسلمين، وحدود الدولة الإسلامية، فوق تلك الظروف أيضاً. ومن هنا يمكن للدارس تصور - حتى في غيبة النصوص التاريخية - أن حركة الجهاد ما كانت لتتوقف والثغور تتأدى، والعدو يتوثب.

يمكن - إذاً - أن نتصور أن عمليات عسكرية - محدودة أو كبيرة - كانت تتم بين وقت وآخر، تمشياً مع المقولة التي بدأتها قبل، وهي ضرورة حماية الحد الغربي لمصر التي ثبت فتحها من جهة، وحماية المكاسب التي حققها المسلمون غربي مصر من قبل، من جهة أخرى.

ومع تأكيدى على أننا لسنا الآن في مجال الفرضية النظرية، فإنه يمكن التأكد من الافتراض السابق بنصوص تاريخية.

فأما تصور عدم معقولية التوقف عن الجهاد، فيرد عليه نص أورده ابن الأثير، في معرض مشاورة عثمان سنة ٣٤هـ لعدد من نصحائه (معاوية وعبد الله بن سعد، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر)

فأشار عليه الأخير: "أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد"^(٣٨)، ثم يقول ابن الأثير بعد تمام المشاورة: "فرد عثمان عماله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث"^(٣٩).

فالجهد إذا نصب أعين الناس، وهو وسيلة - كما في النص - إلى درء الخطر، بالإضافة إلى جلب المصلحة للمسلمين.

فإذا عدنا إلى كتب المغاربة، وجدنا نصاً مهماً أورده أبو العرب في كتابه طبقات علماء إفريقية وأنقله كالتالي:

قال: وحدثني فرات، عن عيسى بن محمد، عن ابن وهب عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان، قال وتلك الغزاة لا يعرفها كثير من الناس....."^(٤٠)

ونص آخر من كتب الفتوح، أنقله عن ابن عبد الحكم، وهو قريب من النص السابق بالسنة نفسها، مختصراً قال:

"... قال: غزا معاوية بن حديج إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين قبل مقتل عثمان، وأعطى عثمان مروان الخمس في تلك الغزوة، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس..."^(٤١)

٣٨ - الكامل ج ٣ ص ٤١

٣٩ - نفسه ص ٤٢

٤٠ - ص ١٥

٤١ - فتوح مصر والمغرب ص ٢٦١

وأركز هنا على ما في النصين من إجماع على أن غزوة قام بها معاوية ابن حديج سنة ٣٤هـ، وأن كثيراً من الناس لا يعرفونها، وعلى أنها في خلافة عثمان، يضم هذا إلى استشارة عثمان عماله ومستشاريه سنة أربع وثلاثين، والوصول إلى نتيجة حاسمة وهي ضرورة مواصلة الجهاد.

بهذين النصين، مع نص ابن الأثير، ومع إضافة الفرضية العقابية - لا بأس يمكن التأكد من أن غزوة ما، قام بها معاوية بن حديج، في هذا التاريخ (سنة ٣٤هـ)، ولعلها هي نفسها التي أشار إليها ابن الأثير نفسه في أحداث سنة ثلاث وثلاثين بقوله: "وفيها كانت غزوة عبد الله بن سعد إفريقية الثانية، حين نقض أهلها العهد" (٤٢).

فلعل عبد الله أمر بهذه الغزوة، أو كاد أن يبدأها ثم انشغل باستدعاء عثمان له، ونفذها من بعد ذلك معاوية بن حديج.

وقد أشارت كتب التاريخ إلى غزوة أخرى لمعاوية بن حديج سنة ٤٥هـ، وسكنت عن الغزوة الثالثة التي أشار إليها النصفان السابقان، فهل دخلت الثالثة هذه ضمن ما كان يؤمر به معاوية من بث سرايا وغزوات صغيرة بإفريقية، مثل تلك الغزوات التي جرت سنوات أربعين، وإحدى وأربعين، وثلاث وأربعين، وغيرها، قبل وبعد، مما يمكن أن يكون المؤرخون قد سكتوا عنها، لسبب أو لآخر، لصغر، أو غيره؟

لقد أشارت كتب التاريخ إلى غزوة شريك بن مسمي سنة ٤٠ هـ، كان عمرو بن العاص أمره أن يغزو لواتة فغزاهم.^(٤٣)

ولكنهم انتقضوا بعد الصلح فأرسل إليهم عمرو، عقبة بن نافع سنة إحدى وأربعين فانتهى إلى لواتة ومزاةة فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم من سنته، وقتل وسبي^(٤٤).

وفي هذه السنة -إحدى وأربعين- كانت الغزوة الثانية لمعاوية بن حديج، كما أشار ابن أبي دينار^(٤٥)، ولعلها هي التي أشارت إليها النصوص السابقة بأنها غزوة سنة أربعين، والتاريخان يتقاربان والتحقيق صعب في غزوات معاوية بن حديج خاصة^(٤٦).

وقد شهدت سنة ثنتين وأربعين غزوة أخرى، قام بها عقبة، ففتح غدامس، وودان، وغيرهما.^(٤٧)

كما شهدت هذه الفترة كذلك وفي سنة ثلاث وأربعين، غزوة عقبة لهوارة، وغزوة شريك لبلدة لبدة.^(٤٨)

٤٣- يقول المقرئ في المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٨٣ عنها "وعند عمرو لشريك بن مسمي على غزو لواتة من البربر، فغزاهم في سنة أربعين وصالحهم ثم انتقضوا".

٤٤- الكامل ج ٣ ص ٢٨٢ وانظر المرجع السابق نفسه.

٤٥- انظر المؤنس في أخبار الربيعة وتونس ص ٢٨.

٤٦- يشير إلى هذه الحقيقة الدكتور إحسان عباس. انظر: تاريخ ليبيا منذ

الفتح..... ص ٢٧

٤٧- انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٢٨٢ وكذا ابن أبي دينار: المؤنس ص

٣٠.

٤٨- انظر: المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٨٣

فهذا نشاط جهادي لا بأس به، وإن لم يكن كبير الأثر، أو ذا نتائج فعالة في عملية الفتح، لكنه -مع هذا- ذو أهمية بالغة من ناحيتين: الأولى: الاشارة بأن عملية الفتح لم تتوقف، على الرغم مما أصاب الدولة الإسلامية من مشاكل وفتن، والثانية مواصلة -ما أشرت إليه من قبل- من تأمين الحد الغربي لولاية مصر الإسلامية.

إذا، فقد ثبت بالأدلة النصية -على اختلاف قليل- أن حركة الجهاد لم تتوقف، بصورة، كلية، في فترة الخلافات التي شهدتها الدولة، أواخر عهد عثمان، وفي عهد علي بن أبي طالب، رضى الله عنهما.

يبقى، بعد هذا، إيجاز الدور الذي قام به معاوية بن حديج استمراراً لحركة الجهاد في المنطقة، استمراراً لعهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أو واسطة بين عهد ابن أبي سرح^(٤٩) وعهد عقبة بن نافع.

وسنركز هنا على غزوة كبيرة من غزواته الثلاث قام بها سنة ٤٥هـ، ويمكن أن نفهم من كلام النويري -مثلاً، وإن كنا لن نأخذه على علاقه - أن خطراً بيزنطياً جديداً هدد المنطقة^(٥٠)، فأرسل معاوية بن أبي سفيان معاوية ابن حديج إلى إفريقية ومعه جيش قوامه عشرة آلاف فيه "عدة أشرف من قریش"^(٥١).

وتمكن معاوية بن حديج، في غزوته تلك، من ضرب عدة مدن مثل: سوسة، وجلولاء، وانتصر، وغنم، ولكن الأهم من ذلك، في رأبي، هو

٤٩- وإلى ذلك يشير ابن خلدون في العبر ج ٤ ص ٢٩٤ بقوله: "ثم كان من بعد ذلك بيعث معاوية بن حديج، فيفتح ويثخن، إلى أن استملك فتح إفريقية".

٥٠- انظر: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٨

٥١- ابن أبي دينار: المونس ص ٢٨

تعرضه للجيش البيزنطي المحمول بحراً، وبلغ عدده ثلاثين ألف مقاتل، "فبعث ابن حديج إليه خيلاً فقاتلوه، فانهزم، وأقلع في البحر" (٥٢).

ويشير ابن أبي دينار إلى إرسال معاوية بن حديج لعبد الله بن الزبير - وكان في غزوة إفريقية - إلى سوسة لفتحها ومقاتلة من بها من النصارى البيزنطيين، يقول: "وقاتل النصارى الذين بها وظهرت منه شجاعة قوية" (٥٣)، كما فتحت جزيرة جربة في الوقت الذي تولى فيه معاوية أمور الجهاد. (٥٤)

ولم يكتف ابن حديج بمقاومة البيزنطيين وجهادهم بإفريقية، بل نراه يتخذ خطوة إيجابية طيبة بإخراجه أسطولاً إلى صقلية ليهاجم تجمعاً بيزنطياً وجد بها، وحقق نصراً عسكرياً، وغنم جنده غنائم كثيرة، ثم عاد الجند إلى إفريقية بعد إقامة شهر، وعن هذا يقول ابن أبي دينار: "وأرسل معاوية بن حديج جيشاً في البحر في مائتي مركب إلى صقلية، ففتحوها، وسبوا، وغنموا، وأقاموا شهراً، وانصرفوا بغنائم كثيرة" (٥٥).

كما يكتب لمعاوية بن حديج أنه أول من عمل على إقامة معسكر، أو مصر، أو قاعدة دائمة، في إفريقية، واختار لذلك منطقة القرن لتحقيق هذا الأمر، وإن كان رجوعه المبكر إلى مصر سنة ٤٦ هـ تقريباً، قد حرمه فرصة

٥٢- النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٠

٥٣- المونس ص ٢٨

٥٤- انظر نفسه

٥٥- نفسه، ونظرة معاوية بن حديج إلى صقلية من الأمور التي تحسب له، وتدل على فطانة، وسعة رؤية لميدان الجهاد، إذ إن صقلية كانت تمثل قاعدة هجوم على إفريقية، ومن أهميتها فكر البيزنطيون نقل عاصمتهم إليها في عهد قسطنطين الثاني، الذي اغتيل سنة ٦٦٨ م (انظر الدكتور إبراهيم العدوي: البيزنطيون والدولة الإسلامية ص ٢٢٣).

توطيد هذه النبئة ورعايتها، بما يفيد حركة الفتوح، وهذا ما سوف يتحقق فيما بعد ذلك بسنوات قليلة، بإقامة مدينة القيروان، على يد عقبة بن نافع.

وبهذا تمكن معاوية بن حديج في الفترة التي قضاها بإفريقية من أن يفرض سلطاناً إسلامياً على أجزاء منها، وأن يذكر البيزنطيين بما عليه المسلمون من قوة.

ومن أهم ما يلاحظ على هذه الفترة السابقة التي بدأت سنة ٢٧هـ، وانتهت سنة ٤٩هـ:

١- أن المعارك كانت تنتهي بالصلح، أو بانتصار غير حاسم، كان الجيش الإسلامي يترك المنطقة بعده إلى قواعده في الشرق، دون أن يترك وراءه قوة مناسبة تحافظ على المنطقة، وتثبت المكاسب، التي من أهمها إسلام بعض البربر.

٢- إقامة بعض المسلمين في برقة، ومنهم عقبة بن نافع كمحطة يلتقى فيها الجند، ومن الجدير بالذكر أن وجود العرب في هذه المنطقة أدى إلى دخول بعض البربر في الإسلام.

٣- محاولة معاوية بن حديج تأسيس معسكر إسلامي في منطقة القرن بالقرب من موقع القيروان، ويبدو أنه كان معسكراً مؤقتاً.

ثانياً: مرحلة القيروان

على الرغم من الجهد الذي بذله المجاهدون المسلمون في الجناح الغربي، أو بالأدق الجناح الإفريقي، إلا أن النتائج لم تكن على القدر المأمول الوصول إليه.

وقد وجهت الخلافة اهتمامها بهذا الجناح، فبدأت باختيار قائد كفء لقيادة المرحلة التي بدأت بعد معاوية بن حديج، والتي نحن بصدد الحديث عنها، قائد شهد فتوح القارة الإفريقية منذ بدايتها، فشارك في فتح مصر صحبة عمرو بن العاص، وشهد فتوح طرابلس، واكتسب خبرة واسعة بهذه المنطقة بسبب استقراره في برقة، وكثرة تحركاته العسكرية حولها، إنه عقبة ابن نافع الفهري وحول صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف، لكنه يعد من التابعين الذين ورد ذكرهم ضمن قوائم التابعين الذين دخلوا إفريقيا. (٥٦)

لقد توجت الخلافة (٥٧) - أخيراً - جهود عقبة بن نافع بأن وجهته إلى إفريقيا أواخر النصف الأول من القرن الهجري الأول، وكانت الخلافة الأموية قد وجهت إليه في مستقره ببرقة عشرة آلاف فارس، فجمع إليه عدداً آخر ممن كانوا معه.

وسيشغل عقبة صفحات مشرقة في تاريخ هذه المنطقة مرتين اثنتين، تنتهي الفترة الأولى منها بعزله، وتنتهي الفترة الثانية باستشهاده.

وبدأ عقبة في تنظيم جنده، وهنا تظهر نقطة محورية في حركة الجهاد، فلاول مرة، وبصورة واضحة وعملية، يجند عقبة بن نافع عدداً من بربر برقة وزويلة وما حولهما ممن أسلموا، ويضيفهم إلى جنده الوارد من

٥٦ - أبو العرب: طبقات علماء إفريقيا ص ١٨

٥٧ - أحسن معارفة هذا الاختيار، إذ اعتمد فيه لا على القرابات ولكن اختياره

اعتمد على ما كسبه عقبة من خبرات، وعلى حاجة الإقليم له.

الشرق^(٥٨)، مما يدل على أن بعض الأهلين أحسوا حلاوة الإسلام، وعرفوا ضرورة الجهاد.

لقد أدخل عقبة إلى الجهاد، عنصراً جديداً قوى أمر الفتح، ذلك أنه وجد أن الإقليم تنقصه قاعدة، تُغنى جند الفتح عن الانطلاق من المشرق، وتقتصر خطوط الإمداد، ويساعد وجودها على تثبيت ما تحقّقه جند الفتح من نصر، ويرعى شئون من أسلم من البربر ويحميهم، ويساعد على الحفاظ على المواثيق التي يكثر البربر من نقضها لغياب من يحافظ عليها، ففكر عقبة بن نافع في ضرورة إنشاء قاعدة إسلامية بإفريقية، يتخذها معسكراً للجند، وقاعدة للانطلاق إلى الجهاد.

وتخير عقبة الموقع المناسب لبناء قاعدة الإقليم، مواجهة لجبل أوراس، تلك المنطقة التي كثرت فيها حركات المقاومة والخروج ليطل عليها ويراقبها ويعمل على تخزيدها شوكتها. وموقع هذه المدينة، بالإضافة لتوسطه إقليم إفريقية، تقع على الطريق المؤدية إلى المغرب الأوسط لمواصلة الجهاد، وهو بعيد عن كل من الجبل والساحل بمسيرة يوم وهي مدة كافية للابتعاد عن خطر المفاجأة من غزو بيزنطي بحري، ومن كمائن بربرية تأتي من الجبل.

هذا بالإضافة إلى تمتع الموقع بوفرة الماء والمرعى والأرض الصالحة للزراعة، وبموضع يؤخذ منه الملح النقي، مما يمكن معه أن نصف هذا الموقع بأنه يتمتع بالاكتماء الذاتي. واستمر بناء هذه القاعدة مدة أربع سنوات

٥٨- وإلى هذا يشير النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٢ بقوله : "فجمع من أسلم من البربر، وضمه إلى جيشه الوارد عليه".

بدأت سنة ٥٠ هـ، وعند اكتمالها دعا التابعي الجليل عقبة، أن تكون هذه المدينة عزاً للإسلام، ومونلاً للعلم والعلماء، وأطلق عليها اسم القيروان (٥٩).

ويلاحظ أن عقبة أوضح سبب بنائه لقيروانه في قوله: "إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الكفر، لا أرى لكم يا معشر المسلمين إلا أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر (٦٠).

وقد دعا عقبة لمدينته قائلاً: اللهم املاها فقهاً وأمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً على من كفر بك، وأعز بها الإسلام وامنعها من جبايرة الأرض (٦١).

وقد أفادت هذه المدينة حركة الفتوح إفادة كبرى من الناحية العسكرية، ومن ناحية نشر الإسلام وهو الغرض الأساسي لحركة الفتوح، لقد أفادت المدينة في أنها أوجدت فرصة للإتصال السلمى بين البربر والعرب المقيمين بالمدينة، في الفترات التي كانت تتوقف فيها الحروب، الأمر الذي ساعد على

٥٩- من بين معانى كلمة قيروان (ذات الأصل الفارسي): القافلة، و

الجيش ومكان اجتماع الجند في الحرب، ويصف البكري مدينة القيروان بقوله: "ومدينة القيروان في بسات من الأرض مديد، في الجوف منها بحر تونس، وفي الشرق بحر سوسة والمهدية، وفي القبله بحر صفاقس وقابس، وأقربها منها البحر الشرقى بينها وبينه مسيرة يوم، وبينها وبين الجبل مسيرة يوم، وشرقيها سبخة ملح عظيم طيب نظيف، وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة وأحسنها الجانب الغربى، وهو المعروف بفحص الدوارة، يصيب فيها السنة الخصيبة للحبة مائة، وهواء هذا الجانب طيب صحيح".

٦٠- ابن عذارى: البيان ج ١ ص ١٩ .

٦١- أبو العرب: الطبقات ص ٨

تقبل بعض البربر للدين الجديد باقتناع دون أى شبهة اضطرار، هذا بالإضافة إلى أن بناء المدينة، فى حد ذاته، كان بداية للعمران الإسلامى فى ذلك الجناح الغربى للدولة الإسلامية.

والجدير بالذكر هنا، أن عقبة أفاد من خبراته، ومن خبرات من سبقه من القادة، ومن تفكير معاوية بن حديج فى إقامة معسكر القرن، وكان فى موقع قريب من الموقع الذى اختاره عقبة بعد ذلك، ونحب أن نشير كذلك إلى براعة عقبة فى اختيار موقع المدينة ذات المواصفات الاستراتيجية والمناخية الجيدة.

البيزنطيون وبناء القيروان

وعلى الرغم من أن بناء القيروان استغرق حوالى خمس سنوات، إلا أن المصادر لا تشير إلى محاولات مضادة من البيزنطيين المقيمين فى إفريقية، ولا من الدولة البيزنطية نفسها، ولعل تفسير الأمر الأول يمكن إرجاعه إلى قوة المسلمين، وحرص البيزنطيين فى إفريقية على عدم إثارتهم، أو أنهم، حسب رأى الدكتور العدوى، "كانهم لم يدركوا خطورة ظهور المعقل الإسلامى بالقرب منهم".

وأما عدم تدخل الدولة البيزنطية، فلعله يرجع إلى انشغالها بالحرب ضد المسلمين فى المشرق وذلك إبان حصار معاوية بن أبى سفيان القسطنطينية، والتى سماها المؤرخون الغربيون المحدثون بحرب "السنوات السبع" (٦٢).

جهود عقبة العسكرية والسياسية في ولايته الأولى

وأما عن جهود عقبة العسكرية في هذه الفترة، فقد أشار المؤرخون إشارة سريعة إلى أن عقبة جاس خلال إفريقية، وأنه افتتحها^(٦٣)، ويبدو أن تركيزه في ولايته الأولى هذه، انصب على تأسيس القيروان وحمايتها.

كما أن هناك إشارة إلى حسن سياسة عقبة إفريقية، إذ ينقل أبو العرب^(٦٤) عن يزيد بن أبي حبيب أن رجلاً من جند مصر قال: "قدمنا مع عقبة بن نافع، وهو أول الناس اختط القيروان، وقطعها للناس مساكن ودوراً، وبني مسجدها، وهو خير وال وخير أمير، كما ورد في نهاية الأرب: "ودبر عقبة أمر إفريقية أحسن تدبير"^(٦٥)

نهاية ولاية عقبة الأولى

عندما ولي معاوية بن أبي سفيان مسلمة بن مخلد على مصر، نرى الخلافة الأموية تزيد في إكرامه، فتعيد جمع إفريقية إلى ولاية مصر، ليصير عمل مسلمة بذلك جامعاً للمصريين: مصر وإفريقية معاً.

وربما مالت نفس مسلمة إلى أن يعين من قبله هو، رجالاً من أعوانه على الجهات والأحواز، فنراه بعد حين، يعزل عقبة بن نافع، ويعين رجلاً ممن يثق فيهم اسمه أبو المهاجر دينار، وقد جاء العزل بعد تمام بناء مدينة القيروان.

٦٣- الظفر: اللوبدي: نهاية الأرب ج٢- ص ٢٢

٦٤- طبقات علماء إفريقية ص ٨.

٦٥- اللوبدي: المرجع السابق

ولنا هنا ثلاث وقفات أمام ثلاث قضايا فرعية هي:

سبب عزل عقبة، وسوء طريقة عزله، وهجر القيروان، وفيما يلي كلمة موجزة عن كل قضية من هذه القضايا.

أ- سبب عزل عقبة:

من أهم الأمور التي يمكن ملاحظتها في هذه الفترة مسألة عزل عقبة، وقد جاء هذا العزل، بعد تمام بنائه وعمارته مدينة القيروان، وقد اختلف الدارسون في سبب هذا العزل المفاجئ إلى عدة آراء:

فالأستاذ الدكتور حسين مؤنس^(٦٦) يرى سبب العزل هو اشتغال عقبة ببناء مدينة القيروان، وحرمان الدولة الأموية من الغنائم، مما أعطى للسعاليات المدبرة ضده ثقلًا خاصًا، فنتج عنها عزله عن القيادة وضم إفريقية إلى والي مصر مسلمة بن مخلد.

ويرى تيراس في الجزء الأول من كتابه تاريخ المغرب، أن محاولة عزل عقبة لخوفه من أن يستقل عقبة بالمغرب، ولا يستبعد الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم هذا الرأي، ويشير إلى بعض القرائن التي تقويه، منها أن عقبة كان أحد أقارب عمرو بن العاص، وأحد قواده المرافقين له في فتح

٦٦- في كتابه فتح العرب للمغربص ١٤٧

مصر، وأن له شعبية في بلاد برقة وإفريقية، وأن معاوية كان يخشى من قبل مطامع عمرو بن العاص (٦٧).

وربط الأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي بين تقوى البيزنطيين وسعيهم للتحالف مع البربر ضد المسلمين وبين عزل عقبة، مشيراً إلى تغير الأوضاع البيزنطية، بسعى قسطنطين الرابع لمنع التعصب المذهبي وما يستتبعه من اضهاد لنصارى البربر، وبعض البربر، وكان نتيجة هذا بروز تحالف بيزنطي بربري محدود، ولم تكن سياسة عقبة بن نافع وقتها مناسبة للتعامل مع هذه التطورات الجديدة في الموقف (٦٨).

ويضيف جوليان سبباً آخر بقوله "ولعل القوم كانوا يعيبون على مؤسس القيروان، منحاه العسكري البحت، وموقفه الجاد تجاه قواد البربر، وما كان يأذن به من مجازر في غير هواة، وشنه غارات بالغة الخطورة، بقدر ما هي عديمة الجدوى (٦٩).

ولعل تفسير جوليان هذا خلط بين أحداث الولاية الأولى والثانية لعقبة، فإن ما يشير إليه من شدة وتوغل وجرأة في الأعمال العسكرية مع عدم موافقتنا على آرائه الخاصة جداً فيها - لم تكن إلا في الفترة الثانية وأن الفترة

٦٧- انظر كتاب الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير (الجزء الثاني

من موسوعة تاريخ المغرب الكبير) ص ١٢٣

٦٨- انظر: د. إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون ص ٢٣٩-٢٤٠ وكذا

بلاد الجزائر ص ٩١-٩٢

٦٩- تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٢٠.

الأولى كانت من الناحية العسكرية فترة هدوء نسبي وانشغال بالبناء والإسكان
(٧٠).

أما بقية الآراء، فإن معظمها مقبول، ونضيف هنا سبباً آخر يكمن في
سياسة الأمويين المالية، وسياساتهم في تعيين الولاة، إذ إن المغرب لم يقدم
لبيت المال الأموي الأموال المطلوبة، أو التي يتوقع وصولها منه، ليعتمد
عليها في مصارف الدولة المتعددة التي زادت على المصارف الشرعية وقد
تأخرت هذه الأموال بسبب مصاريف إنشاء المدينة، وقلة موارد الغنمة
والفيء، بسبب قلة العمليات العسكرية، وعدم إمعان عقبة في الغزو.

ثم ها هو ذا والي مصر مسلمة بن مخلد، صاحب المكانة الكبيرة في
دولة معاوية بن أبي سفيان، بسبب ما قام به من دور في المطالبة بدم عثمان،
أو على حد قول معاوية نفسه في حديثه لعقبة: "لقد عرفت مكان مسلمة بن
مخلد من الإمام المظلوم، وتكديمه إياه، وقيامه بدمه، وبذل مهجته" (٧١). مع
ملاحظة أن سياسة الدولة الأموية في اختيار رجالها يعتمد على ذوى
الإخلاص قبل أن يعتمد على ذوى المواهب والكفايات، أى أهل الثقة أكثر من
أهل الكفاية. هذا إذا أعوزتها الحيلة في اجتذاب هذه الكفايات في صفوف
المناوين إلى صفوفها.

٧٠- مع ملاحظة أن جوليان سيعود بعد قليل، بعد سطور قليلة، للشك في بعض

(غارات) عقبة تلك، حيث يصف إحدى (غارات) عقبة الكبرى بأنها "من الطراز
العالي"، وأنه "قديكون من المجازلة الإطمئنان إلى وقوعها" (انظر المرجع نفسه).

٧١- ابن عبد الحكم -فتوح مصر- ص ٧٠.

فمن ثم، يمكن ان نستنتج أن معاوية عزل عقبة لسبب مالى وضحنا،
وآخر إدارى هو مكافأة والى مصر، مسلمة بن مخلد، بضم إفريقية إليه ليكون
بذلك أول من جمعت له ولاية مصر والمغرب، كما أشار ابن عبد الحكم.

وأما خوف معاوية من أن يستقل عقبة بإفريقية، فهو أمر سابق لأوانه،
ويمكن الرد عليه بأن فتح إفريقية لما يستقر، فكيف يستقل بها مستقل فيتعرض
لألوان من المضايقات من الدولة الأموية ومن البربر المناوئين أيضاً، ثم هذا
هو معاوية يعد عقبة بإعادته إلى ولايته وقام يزيد ابنه بتنفيذ هذا، فلو كان
الأمويون يخافونه، لما وعدوه، ولما نفذوا وعدهم.

ب- طريقة العزل:

هناك إشارة للمالكي، أن أول من عين بعد عقبة من قبل مسلمة بن
مخلد هو أحد التابعين: خالد بن ثابت الفهمي بيد أنه أشار إلى سنة ٥٤هـ،
وعين بدلاً منه مولاة أبا المهاجر ديناراً، الذى وصل إفريقية سنة ٥٥هـ. ومن
هذا يتبين أن عزل عقبة، وتعيين خالد بدله، كان أواخر سنة ٥٤هـ على وجه
التقريب.

وتجمع المصادر على أن أبا المهاجر ديناراً أساء عزل عقبة بن نافع،
وهذا أمر غريب، فإن الذى عزل عقبة، بناء على رواية المالكي، إنما هو
خالد بن ثابت الفهمي أحد التابعين، فإن صح هذا الخبر فإنه يمكن تصور أن
خالداً لما تولى إفريقية لم يسئ إلى عقبة، فما كان من مسلمة إلا أن عزله
وعين مولاة أبا المهاجر، الذى أراد أن يتقرب إلى سيده إذا أخرج عقبة من

إفريقية، حتى لا يكون مركز ثقل وحتى تصبح الحلبة خالية يجري فيها جواد واحد دون خوف من الجند أو ممن أسلم من البربر.

ومن شكوى عقبة لمعاوية بن أبي سفيان، يمكن أن نلمح بعض الحيف الذي ألم به، ولم ترض نفسه السكوت عليه، وينقل النويري على لسان عقبة، شكواه لمعاوية فيقول: "إني فتحت البلاد، ودانت لي، وبنيت المساجد، واتخذت المنازل وأسكنت الناس، ثم أرسلت عبد الانتصار، فأساء عزلي" (٧٢).

ويبدو أن معاوية لم يكن يميل كثيراً إلى إحراج عماله، فاكتمى بتطبيب خاطر عقبة، ووعدته خيراً (٧٣).

ج- مصير القيروان على عهد أبي المهاجر دينار

تولى أبو المهاجر دينار إفريقية، من قبل مولاة مسلمة بن مخلد مكافأة له على صبره معه وخدمته له (٧٤). ويلحظ قلة الأخبار الواردة عن إفريقية في عهد أبي المهاجر دينار، على الرغم من طول الفترة التي تولاها، في حين كان التركيز على سوء عزل عقبة، وعلى هجر القيروان، وقد سبق أن أشرنا إلى القضية الأولى، ونناقش الآن قضية القيروان.

٧٢- نهاية الأرب ج٤ ص ٢٤ و٢٢ وإلى طريقة عزل أبي المهاجر (انظر ابن

الأنثري: الكامل ج٣ ص ٣٢١)

٧٣- انظر ابن الأنثري: المرجع السابق نفسه.

٧٤- ينقل ابن عبد الحكم ما قيل لمسلمة حول تثبيت عقبة: "وقد كان قيل لمسلمة لو أقررت عقبة، فإن له جزالة وفضلاً، فقال مسلمة: إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير ميل، فلنحب نحب أن نكافئه" (فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٦).

والمصادر التي رجعنا إليها تتفق على صحة هذا الوجه ، فإن عهد الحكم يقول : قلما قدم أبو المهاجر إفريقية ، ذكره أن ينزل في الموضع الذي اختلعه عقبة بن نافع ، ومضى حتى خلفه بميلين فاهتدى ، ونزل (٧٦) مخدراً بذلك موقعا جديداً لقاعدة جديدة أطلق عليها اسمه تيكروان (٧٦).

وبإلى هذا الحد ، لا نرى كثيراً من التجاوز من القائد الجديد ، فهو يريد أن يبنى لنفسه قاعدة جديدة ، لسبب أو لآخر ، وهذا الأمر يمكن أن نطبقه على عقبة نفسه عندما مال عن "القرن" ، معسكر معاوية بن حديج ، الذي فكر في إنشائه ، وبدأ خطواته الأولى فيه ، لقد مال عقبة عن هذا الموقع إلى موقع مدينته القيروان ، مثلما مال أبو المهاجر بعد هذا عن موقع القيروان إلى موقع جديد (٧٧).

ولكن الذي نراه غريباً بعد ذلك هو تلك الإشارة التي أوردها بعض المؤرخين أن أبا المهاجر دیناراً :

"أمر الناس أن يخرّبوا القيروان ، ويعمروا مدينته" (٧٨).

أو أنه "أخلى القيروان ، وأمر الناس بعمارة بلدة اسمها تيكروان" (٧٩).

٧٥- المرجع السابق نفسه.

٧٦- ورد هذا الاسم بعدة صور لكنها متقاربة مثل تكروان ، وتيكروان وهيرهما.

٧٧- الطرا بن عهد الحكم في فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٤ يقول عن عقبة ثم العصرف إلى القيروان (لعلها إفريقية) فلم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج يلباه قبله.....

٧٨- اللوبري: نهاية الأرب: ج ٢٤ ص ٢٥.

٧٩- ابن أبي دینار: المولى ص ٢٩.

إن الباحث يدرك مدى ما يمكن أن تفعله المنافسة، أو حتى الإحن الشخصية، في الأحداث، ولكن من المستبعد أن يصل الأمر بالوالى الجديد إلى التخريب أو الإخلاء، ولعل هذه النقول -كما يرى الدكتور حسين مؤنس- تعتبر من مبالغات المؤرخين^(٨٠).

ويمكن أن نتصور ميل القائد الجديد، أبى المهاجر دينار، إلى عمارة جديدة تعتبر قاعدة للإقليم، ترتبط باسمه أو باسم مولاة مسلمة ابن مخلد، عن طريق جذب الناس إغراء، أو دفعا، إلى المدينة الجديدة، ولكن لا يمكن تصور أمره بتخريب مدينة إسلامية، كانت قائمة قبل وصوله، واستمر وجودها عند وصوله، وبقيت بعده.

لقد صور بعض المؤرخين القضية على أنها انتقام شخصى، ولم يكتفوا باتهام أبى المهاجر بهذا، بل سحبوا هذا الاتهام، بعد، على عقبة نفسه عند عودته إلى الولاية، فهم يقررون أنه أمر بخراب مدينة تيكروان، وأنه رد الناس إلى القيروان^(٨١).

ولسنا نوافق على هذا القول، لأن عقبة إنما عاد إلى إفريقية بائعا لنفسه مشتريا الشهادة، ونفس كهذه تترفع عن هذه الأشياء الصغيرة، والمسألة أبسط من هذه، فإنها قضية اتخاذ قاعدة جديدة، وإنها قضية ميل الناس لسكنى القواعد والاقتراب من مراكز الإدارة.

٨٠- انظر فتح العرب للمغرب ص ١٧٠.

٨١- انظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية ص ٨ فى نقطة تخريب عقبة

لتيكروان يقول: "..... وخرّب تيكروان التى كان اتخذها أبو المهاجر قيروانا وانظر كذلك النوبرى: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦.

بعداً جديداً لجهاد أبي المهاجر، إذ حرص على الاقتراب من التجمعات البيزنطية في إفريقية، كما حرص على مجابتهما في المغرب الأوسط، كما أشرنا من قبل.

ونأتى الآن إلى النقطة الثانية في جهود أبي المهاجر وسياسته في المغرب، وهي نقطة جديرة بالتتويه والإشادة، أعنى بها سياسة حسن معاملة البربر، واستتلاف الغلاظ منهم، والإحسان إليهم، وهي بالتأكيد لب الدعوة الإسلامية وأصل أصلها، نفذها أبو المهاجر فأحسن تنفيذها، وزاد في إكرام رؤساء القوم خاصة، وصار بينه وبين بعضهم صعبة (٩٢).

كما يمكن اعتبار بناء القيروان أبي المهاجر الجديد، نقطة طيبة كذلك، فهو يبنى قيرواناً خديداً، كان في هذا إشارة إلى سياسة جديدة، أضف إلى هذا، قرب القيروان من مجموعة جديدة أراد أبو المهاجر الاحتكاك بها.

وهكذا نجد أن أبا المهاجر ديناراً غير السياسة التي اتبعها عقبة في ولايته الأولى والمعتمد على العمل العسكري، ليتلافى خطراً، تصوره ضخماً يكمن في تحالف بيزنطى بربرى برنسى، فعمل على ضرب هذا التحالف، بسياسة أكثر تقرباً من البربر البرانس، بترك القيروان إلى قرية بربرية، وقد يكون هذا لإشعار البربر أن العرب ليسوا فئة ذات امتيازات خاصة، هذا من جهة ولتقديم الدليل على حسن النية ومزيد من الاندماج، فالعرب يعيشون البربر في قراهم ومضاربهم، ولجأ أبو المهاجر إلى قبيلة أوربة، فحسن

٩٢- وقد لطن جوليان إلى ظاهر هذا الأمر فقال: "ويظهر أن أبا المهاجر، خلافاً لسلفه، فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين تاريخ إفريقيا الشمالية ص

علاقته بهم، واستألف منها رؤسائهم، وأسلم منهم عدد ليس بالقليل، فضرِب
بذلك التحالف البيزنطي البرنسي، وقد أفاده هذا، في مد سلطانة العسكري،
إلى أماكن لم يصل إليها جند الفتح من قبل، في المغرب الأوسط.

ولاية عقبة الثانية (أو الاستشهاد):

استمر أبو المهاجر دينار على إفريقية سبع سنوات، حقق فيها عدة نتائج
طيبة، كما رأينا، ثم إن الخلافة تصدر سنة ٦٢ هـ أمراً بعزل أبي المهاجر عن
إفريقية، وتعيين عقبة بن نافع للمرة الثانية عليها.

وقد سكنت معظم المصادر عن سبب العزل، ولكن يمكن أن نتصور أن
السياسة المالية للدولة الأموية، ربما كانت سبباً من أسباب هذا العزل، هذا إذا
كانت سياسة أبي المهاجر المهادنة المستألفة لم تحقق لبيت المال الأموي، ما
كانت الدولة ترجوه، وتراه ضرورياً لنفقات الفتح.

وربما تكون شكوى عقبة لمعاوية - رغم التأخيرات قد أثمرت (٩٣).

وربما كان أحد أسباب عزل أبي المهاجر، مع ما أشرنا إليه، ما وصفه
ابن خلدون بنشأة الردة في البربر (٩٤) ويزداد هذا السبب وضوحاً إذا أضفنا

٩٣- يشير النويري إلى قبول معاوية شكوى عقبة وأنه وعده برده على عمله،
ويعلق بقوله "وتراخى الأمر، حتى توفي معاوية، وولي يزيد"، (وإنه لتراخ مديد) نهاية
الأرب ج ٢٤ ص ٢٥.

٩٤- يقول في العبر ج ٤ ص ١٨٦ متحدثاً عن عقبة: "قدخل إفريقية وقد نشأت
الردة في البرابرة".

إلى هذا الخبر، ما نقله النويري، من أن يزيد لما علم حال إفريقية، وقال: "أدركها قبل أن تهلك وتفسد" (٩٥)، ورده إلى إفريقية والياً.

وربما كان سبب عزل أبي المهاجر - أو قل سبب إعادة عقبة للولاية مرة ثانية - هو جماع هذه الأقوال معاً.

وعاد عقبة لإفريقية التي قضى فيها زمناً طويلاً، منذ دخولها مع عمرو بن العاص إلى سنة ٥٥هـ، سنة عزله، وتشير المصادر إلى أن من أوائل أعمال عقبة بإفريقية القبض على أبي المهاجر وإساءة عزله وتقييده بالحديد. (٩٦)

كما تشير المصادر أيضاً إلى تخريب عقبة مدينة أبي المهاجر أو القيروانه، المسمى تيكيروان، وأنه أعاد الناس إلى مدينته القيروان، وقد سبق أن استبعدنا خطوات التخريب هذه، وشككنا في وقوعها من كل من عقبة وأبي المهاجر معاً.

وعندما استتب الأمر لعقبة في القيروان، جهز قوة عسكرية ترابط فيها، وجعل قيادتها لزهير بن قيس البلوي (٩٧).

ويتضح من الأخبار التي أوردتها المصادر عن عقبة أنه دخل إفريقية بهمة عالية، وعزيمة لا تفتر، آملاً الانتهاء من فتوحات المغرب التي طالت، وبقصد إلى الجهاد، وبتوق إلى الاستشهاد، يظهر هذا جلياً من قول عقبة

٩٥- نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٥ وهي عبارة تشير إلى عدم رضا الدولة

بسياسة أبي المهاجر، وتدل على خطورة الموقف هنالك.

٩٦- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٧.

٩٧- اكتفى النويري في نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦ بزهير، في حين ضم إليه

ابن عبد الحكم في فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٧ عمر بن علي القرشي.

لأبنائه إذ استدعاهم مودعا: "إني بعت نفسي من الله تعالى ببعاً مربحاً، أن أجاهد من كفر حتى الحق بالله، ولست أدري أتروني بعدها أو أراكم، لأن أملى الموت في سبيل الله" (٩٨).

وبسياسة تعتمد على أقصر الطرق - وإن لم تخل من الانتدفاع - توجه عقبة تجاه الغرب، في غزوة مندفة طموح، كان المأمول أن تأتي بنتائج دامية لحركة الفتوح، لكن عقبة في غزوته هذه لم يلتفت لعدة أمور:

- منها أنه لم يحافظ على المكاسب التي حققتها سياسة أبي المهاجر قبله.

- وأنه كان شديد الانتدفاع، بحيث لم يلتفت للجيوب التي خلفها وراءه (٩٩).

- ومنها أنه لم يلتفت إلى إحن شخصية، تمثلت في حنق القائد الأوربي كسيلة وتمرده، لأنه عومل معاملة لا تليق برئيس مثله (١٠٠)، وفي هذا المجال لم يستمع عقبة لتحذير أبي المهاجر المتكرر من كسيلة وقومه (١٠١).

- ومنها أنه لم ينتبه إلى طول خط الهجوم، وإلى أن هناك من كان يتتبعه ليغور الآبار (١٠٢)، ليحرم جيش عقبة من موارد الماء عند عودته، كان أمراً يدبر، ومؤامرة تحاك ضد عقبة، دون أن يدري (١٠٣).

٩٨- النويري: المرجع السابق ص ٢٦

٩٩- انظر المرجع السابق نفسه يقول: "ودخل الروم حصنهم فكره عقبة أن يقيم عليه "ومثل" وتبعهم إلى باب الحصن".

١٠٠- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٨٦.

١٠١- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٠.

١٠٢- انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب ص ٢٦٨ يقول: "وخرج ابن

الكاهنة البربري على إثر عقبة، كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة، فلم يزل

ويبدو -كذلك- أن اتصالاً بيزنطياً بربرياً قد تم، وإليه يشير النويرى بقوله "قلما بلغ الروم خبره، استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم" (١٠٤).

خط سير عقبة في غزوته الكبرى:

يتضح من نقول المؤرخين أن عقبة لم يوجه عنايته في حملته أو حملاته الجهادية هذه، ضد عدو واحد، بل نراه يقاتل البيزنطيين، ويقاتل البربر، ويقاتل تحالفاً ضم الفريقين (١٠٥)، كما لم يكتف عقبة بمغرب من المغرب الثلاثة بل نراه ينتشر، أو يضرب في جبهات متعددة (١٠٦)، حيث بدأ بالمغرب الأدنى، فقاتل ممس والزاب، وتاهرت، وطنجة وبلاد السوس حتى السوس الأقصى.

وتعتبر هذه الحملة من كبريات الحملات العسكرية في تاريخ هذا الإقليم، شملت المغرب الثلاثة، وأدخلت المسلمين إلى مناطق لم يكونوا دخلوها من قبل، وحقت عدة انتصارات عسكرية، وعرفت البربر في مناطق

كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس، ولا يشعر بما صنع البربرى ... وانصرف راجعاً والمياه قد غورت".

١٠٣- يشير ابن عبد الحكم في المرجع السابق نفسه إلى تحالف القبائل البربرية ضد عقبة، يقول: "وتعاونت عليه البربر".

١٠٤- نهاية الأرب: ج ٢٤ ص ٢٧.

١٠٥- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٨٦، وكذا ابن أبي دينار المونس

ص ٣٠-٣٢.

١٠٦- انظر النويرى: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٧-٢٨. وابن عبد الحكم:

فتوح مصر و المغرب ص ٢٦٧-٢٦٨ وكذا المرجعين السابقين نفسيهما.

ثانية بالاسلام، وتكفي هذه النتائج لهذه الحملة رداً على من قال من أهمية هذه الحملة، أو شكك في وجودها (١٠٧).

وهكذا وجدنا أنه عندما عاد عقبة في ولايته الثانية، وجد أن هذه السياسة بطيئة الخطو، وأن الحل الحاسم هو الحل الأمثل، معتمداً في ذلك على علاقة الفتوحات الإسلامية السابقة بالبيزنطيين، فهم كانوا محتلي المنطقة من الشام إلى المحيط قبيل الفتح، وهم الذين طردهم المسلمون من مناطق شاسعة من قبل، وهم الذين حاولوا، دون أن ينجحوا، استعادة ما كانوا يحتلونه، وها هي بعض القوى البيزنطية ما زالت متركزة في المغرب، تريد قوتها بالاستعانة ببعض العناصر السكانية وتمكن عقبة، بهذا، من ضرب قوات متركزة في عدة مناطق مثل وادي الحسيلة وتاهرت، بداه بضربات قاصمة، مكملاً محاولات أبي المهاجر دينار في السيطرة على المغرب الأوسط.

وربما كان الأفضل لعقبة، بعد هذه الحملة الطموح الطويلة، أن يتوقف، أو يتريث بعض الشيء، عند حدود المغرب الأوسط، وربما كان الأجدى اتخاذ القيروان آخر في هذه المنطقة، ثم الوثوب منه بعد ذلك إلى المغرب الأقصى، بعد أن يضم صفوفه ويحاول نشر الإسلام في ربوعه ويضمد جراح من أصيب من سكانه الأصليين بالمعاملة الطيبة.

لكنه مال إلى السرعة، وعمد إلى التوغل حتى أقصى موضع يمكن أن يصل إليه، في الوقت الذي لم يلتفت في توغله هذا إلى عدة جيوب للمقاومة البربرية، ولم يلتفت لاتصراف بعض قبائل البرانس عنه، واتصالهم بقوى

١٠٧- انظر رأي جوليان في هذه الحملة: في تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٢١.

بيزنطية، يضاف إلى ذلك طول فترة الغزوة، وضجر الجند من القتال، فادت هذه العوامل إلى وقوعه في كمين أعده بعض البربر واستشهد فيه هذا البطل العظيم.

وغيره من أمراء الجيش، فبقيت المدينة خالية من المدافع.

ثم جاءه الخبر بأن الروم قد احتلوا المدينة، فالتفت إلى رعاياه وقال:

«فلما عرفت عاقبة واستشهادي في يومئذ، فوالله ما كنت أظن أنني سأرى

رقعة منكم، ولم يبق إلا أن يأتوني من طريق عودتي عقبتي، وهل تأكد أنباء عودتي من

أخباركم فوحياتي، ولم يبق إلا أن يأتوني من مواضع قليلة، منها الموضع الذي سمي

«قمة» بعد بناء الفرس، ثم طلبة قبل الفيروان بمسيرة ثمانية أيام، وعندئذ أمر

بعقبته بتسريح جيشه، على أن يعود إلى الفيروان أفواجا، فقه منه بما دواخ

من البلاد، وأنه لم يبق أحد يحسبه، (١٠٨) ثم توجه بعد إلى تهودة وبادش،

ليقدر لهم ما يحتاجون إليه من فرسان يتركهم فيهما.

المصدر:

وفي هذه المنطقة بدأت الأخطار تطل على عقبته ومن بقي معه من عدد

قليل من الفرسان، وأول ما جبههم، هو قلة الكثرات من كان في الحصون من

البيزنطيين بعقبته وصحبته، كما لم يستمعوا إلى دعوته إياهم إلى الله عز وجل.

ثم اغتتم البيزنطيون هذه الفرصة واتصلوا بكسيلة (١٠٩) وحرصوه على

عقبته، فتسلل من معسكره وبدأ يجمع قوات مضادة، ولم يستمع إلى نصيح أبي

المهاجر بضرورة معالجة الأمر بالهجوم على كسيلة (١١٠) قبل أن يقوى أمره،

فكانت النتيجة ما نرى في التاريخ.

في التاريخ البيزنطي، الجزء الثاني، ص ٢٨-٢٩ وكذا ابن أبي دينار: المونس

ص ٣١.

١٠٩- النويري: المرجع السابق ص ٣٠.

١١٠- ابن أبي دينار: المونس ص ٣٠.

١٢٠- في التاريخ البيزنطي، الجزء الثاني، ص ٢٨-٢٩ وكذا ابن أبي دينار: المونس ص ٣١.

وكسيلة في هذا يتربص ويتقوى بمرور الوقت، ويقول لمن يطلب إليه الهجوم : " إنكم كل يوم في زيادة، وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه" (١١١).

وتم اللقاء ، وتروى المصادر مدى شجاعة الجند الإسلامي القليل، واشترأهم الشهادة جميعاً، سوى نفر قليل وقعوا في الأسر، منهم محمد بن أوس الأنصاري، وقد خلصوا من الأسر بعد ذلك، وأعيدوا إلى القيروان (١١٢) وهكذا نال عقبة ما كان يبتغيه، حاز الشهادة في ميادين، الجهاد ، وإن كان جهده هذا لم يضع - رغم الانتكاسة - وخطوات جهاده لم تذهب سدى، بل واصل المسلمون جهاده حتى اكتمل الفتح (١١٣).

واجتمع عدد كبير من البربر مع كسيلة وقصدوا القيروان، رمز الوجود الإسلامي، ودخلوها، فطلب من تبقى من المسلمين الأمان من كسيلة، فأعطاهم كسيلة الأمان (١١٤)، وأبقاهم فيها، في وقت كان يمكن تصور أنه سيلجأ إلى تقتيلهم واجتثاث جذورهم، فلماذا؟

هل ذكر سابق يد المسلمين عليه بإنقاذه واستخلاصه والإحسان إليه، فأراد أن يرد هذه اليد بيد مثلها ؟ أم أنه رأى ضرورة عدم مبادرة المسلمين،

١١١- النويري: المرجع السابق ص ٣١.

١١٢- ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٠٩

١١٣- يعلق جوليان على ما حدث بعد إستشهاد عقبة تعليقاً غريباً بقوله:

"معلوم أن جنمان عقبة مدفون في مسجد الراحة التي تحمل اسمه "سیدی عقبة"

على بعد خمسة كيلو مترات من جنوب تهودة، تحت قبة متواضعة البناء، يحج إليها

أحفاد الذين ساهموا في مقتله" تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٢٢.

١١٤- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٢.

فى هذا الوقت، بفعل جعلهم يعودون تجاه الغرب، بدل مواصلة طريقهم للشرق ؟ أو ربما يكون قد خشى من بقية المسلمين من البربر، الذين لا يدخلون تحت رناسته ولا ينضون مع تجمع الأوراسى؟.

وهكذا عادت القبروان إلى سلطان البربر من البرانس، وبخاصة قبيلة أوربة، أو التجمع الأوراسى، وهكذا أيضاً، غادر مرابطو الفتح، وأساسه، مدينة القيروان وإفريقية، إلى برقة أو مصر، لتصاب حركة الفتح بانتكاسة مؤثرة .

لقد كانت نهاية هذه الفترة من الجهاد، التى قادها عقبة، غير متفقة مع النجاح الذى صاحب بدايتها، فقد تمكن المرتدون، والحاتقون، من أن يستثمروا مقتل عقبة، وما أصاب المسلمين من جزع، وتمكنوا من الاستيلاء على القيروان فى محرم سنة ٦٤ هـ وظلوا مسيطرين عليها، وتقلصت بذلك المكاسب التى حققها المجاهدون فى الخطوات السابقة من حيث السيطرة، وإن بقيت بعض المكاسب المهمة مثل إسلام بعض البربر، ومعاشة العرب الذين لم يستطيعوا الرحيل شرقاً للبربر فى القيروان، وظهور بعض المقاومة البربرية لهذا الاتجاه المضاد للمسلمين، الذى قاده كسيلة الأوربى .

وبخلو الساحة - مؤقتاً - من الجند الإسلامى، استغل البيزنطيون هذه الفرصة، وآنزلوا أسطولاً لشواطئ إفريقية هبط منه عدد من فرسانهم، بقصد قطع الطريق الساحلى من برقة إلى المغرب (١١٥).

١١٥- انظر أوليفر، وفيج، موجل تاريخ إفريقيا، ترجمة الدكتورة دولت أحمد

صادق ص ٧٩.

واجتمعت قبائل الأوراس، ووجد نوع من التحالف البيزنطى مع بعض البربر^(١١٦)، وإن كانت بعض القبائل البثرية خارجة عن هذا التحالف.

ولكن هذا الانتصار الذى وصفه جوايان بأنه حاسم^(١١٧)، كان فى الواقع انتصاراً ظاهرياً مؤقتاً، فما كان المسلمون ليتركوا مصرأ إسلامياً فى هذه الفترة المبكرة فى تاريخهم دون محاولة استرداده.

القيروان بعد استشهاد عقبة

استثمر مقاومو الفتح الإسلامى، من بربر أوربة، ومن انضاف إليهم، استشهاد عقبة، وما تلاه من هزة فى نفوس المجاهدين هناك، استثمار كبيراً، فاسرع كسيلة يتقدم إلى القيروان^(١١٨) فى الوقت الذى اختلف فيه المسلمون هناك فريقين، إذ عزم زهير بن قيس على القتال، فى حين مال حنش بن عبد الله الصنعانى إلى غير ذلك^(١١٩) وكان لكل فريق وجهة نظره من ضرورة المجابهة والمبادرة، أو ضرورة التريث وأخذ الحذر ومعرفة ما يدور فى الساحة قبل اتخاذ الخطوات الإيجابية، وكان لابد من الاتفاق، فتم الرحيل، وتبقى فى القيروان المخلفون والذرائى الضعاف.

١١٦- نفسه ص ٧٩-٨٠

١١٧- انظر تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٢٢.

١١٨- هناك إشارة إلى ان زحف كسيلة تجاه القيروان، سبقه زحف آخر قام به

ابن الكاهنة، الذى نقلنا من قبل تتبعه عقبة وردمه الأبار، فى الحلة السيرا ج ٢ ص ٣٣٠: "ولما قتل عقبة زحف بن الكاهنة يريد عمرا وزهيراً، فقاتلاه، فهزم ابن الكاهنة و أصحابه، ثم خرجا إلى مصر بالجيش"، وبهذا تظهر بوادر منافسة بين الكاهنة وكسيلة على الأوراس، المضاد للمسلمين، حتى قبل أخذ القيروان.

١١٩- ابن خلدون: العبرج ٤ ص ١٨٦.

زهير بن قيس في إفريقية

قارنت الأحداث السابقة، من فقد القيروان، وسيطرة البربر، أو البربر والبيزنطيين، على ما كان بيد المسلمين في إفريقية - قارن ذلك عدة أحداث معوقة في الدولة الإسلامية لخصها ابن خلدون بقوله^(١٢٠) "وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية، وفتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط، وحروب آل الزبير"، يضاف إلى هذا ما كانت تعانيه الدولة الإسلامية على الحدود الإسلامية البيزنطية، كل هذا أدى إلى أن "اضطرب أمر الخلافة بعض الشيء، واضطرم المغرب ناراً، وفشت الردة في زناتة والبرانس"

وما كاد عبد الملك بن مروان يلتقط أنفاسه حتى نظر إلى المغرب ونظر فيمن يوليه، فلم يجد أفضل من زهير بن قيس البلوى، فولاه إفريقية^(١٢١)، وتجهز سنة ٦٩ هـ بجيش كبير، انطلق به صوب القيروان^(١٢٢).

ولما عرف كسيلة خبر مقدم زهير، رأى أن يميل بقواته عن القيروان إلى ممس (أو لميس) ليكون في الجبل وراءه، إن هزم، منجى ومهرب، وإن انتصر طارد المهزومين خارج إفريقية. ولكن زهيراً يقود معركة حاسمة وصعبة، ينتصر فيها المسلمون، وينهزم البربر، ويقتل كسيلة وعدد من أشراف البربر معه.

١٢٠- العبر ج ٦ ص ١٤٧.

١٢١- انظر ابن الأثير: الكامل ج ٣ ص ٤، ٣.

ويعمل اختيار زهير بما نقله النوبري من أنه هو صاحب عقبة، وأعرف الناس بسيرته، وأولاهم بشاره "نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٢.

١٢٢- ابن الأثير، المرجع السابق نفسه.

ووصل خبر استشهاد زهير وصحبه إلى عبد الملك بن مروان فتأثر به،
لكن كان عليه أن يتريث حتى ينهى صراعاً طويلاً وأساسياً مع عبد الله بن
الزبير (١٢٢) ليكون الرد الشافي، وتكون الجولات الفاصلة.

حسان بن النعمان (أو استقرار فتح إفريقية)

يحسن أن نقدم لجولات حسان بن النعمان في إفريقية بظروف كل من
الدولة الإسلامية وإفريقية عقب استشهاد زهير بن قيس البلوي، بإيجاز.

فأما ظروف الدولة الإسلامية، فإن الصراع الذي كان دائراً بين عبد
الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، لما انتهى واجتمع المسلمون على خلافة
عبد الملك، نظر بجد شديد لهذا الجناح الغربي البعيد فعين حسان بن النعمان
(الملقب بالشيخ الأمين) على إفريقية سنة ٧٤هـ، وأعد له جيشاً لم يدخل
إفريقية قط جيش مثله حسب تعبير ابن الأثير (١٢٨).

وأما أحوال إفريقية، فقد عادت بعض السيطرة البيزنطية على أجزاء
من الساحل الإفريقي، كما بدأت قبيلة أوربة نفسها في التفهر عن مركز
الصدارة في الأوراس، موسعة المجال لقبيلة أوراسية شديدة المراس تدعى

ونائج هذا ظهور مؤشر مهم، إذ التفتت الدولة البيزنطية إلى برقة مركزاً
إسلامياً مهماً، وقاعدة عسكرية تستغل في حركة الجهاد غرباً، فأصدرت القسطنطينية
أوامرها إلى صقلية بخروج أسطول كبير لضرب هذه القاعدة الإسلامية (برقة) ويمكن
أن يلحظ أن دور الأسطول الإسلامي في هذه المنطقة لم يستغل حتى الآن في مراقبة
الأسطول البيزنطي في صقلية لاتقاء هجماته على سواحل إفريقية الممتدة.

١٢٧- النظر ابن الأثير: الكامل جزء ٤ ص ١٣٥. وكذا النويري: نهاية الأرب ج

٢٤ ص ٣٣.

١٢٨- الكامل جزء ٤ ص ١٣٥.

جراوة تقودها امرأة تلقب بالكاهنة، تمكنت من أن تجمع قبائل الأوراس تحت إمرتها، والبربر والنصارى لها مدبرعون، ومنها خانفون^(١٢٩).

جولة حسان الأولى في المنطقة:

دخل حسان إفريقية، بجيش قوامه أربعون ألفاً، وكان عبد الملك قد أعطى حسان إذناً مفتوحاً، بأن ينفق على الفتح ما يحتاج إليه من بيت المال في مصر^(١٣٠).

وكان أمام هذا الجيش عدد من العمليات:

أولها: التصدي للجماعات البيزنطية، ومحاولات ضرب قاعدتهم قرطاجنة.

ثانيها: التصدي للتحالف البيزنطي البربري، الذي استجد بعد هزيمة البيزنطيين في قرطاجنة.

ثالثها: التصدي للتجمع البربري الخطير في الأوراس بقيادة الكاهنة. وقد نجح حسان في تحقيق انتصار واضح ضد البيزنطيين في قرطاجنة، ودخلها، وظفر بكثير مما فيها وممن فيها، وفر من بقي من

١٢٩- جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ص ٢٥

الوزير الحلل السندسية في الأخبار التونسية ج ١ قسم ٢ ص ٥٣٣، وعن الكاهنة يقول ابن عبد الحكم: "وهي إذ ذاك ملكة البربر، وقد غلبت على جبل إفريقية": فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٠.

١٣٠- النظر ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٣٤

البيزنطيين عن طريق البحر (١٣١).

وأما المهمة الثانية، فكانت التصدي لتحالف بيزنطى بربرى جديد بعد هزيمة القرطاجيين، وكان موقع هذا اللقاء فى صطفورة، ويبدو من وصف ابن الأثير للمعركة أن أعداد المتحالفين كانت كبيرة، وأن همتهم فى القتال كانت عالية، كأنهم يحاولون تعويض ما خسروه فى قرطاجنة، ولكن النصر كان حليف المسلمين، بعد قتال عنيف، تمخض عن عدد كبير من قتلى التحالف البيزنطى البربرى، كما نتج عن هذه المعركة بسط يد حسان فى البلاد (١٣٢).

وتراجع البيزنطيون إثر هذه الهزيمة إلى مدينة باجة وتراجع البربر إلى بونة، فى حين اضطر حسان إلى التوقف فى القيروان بسبب كثرة ما لحق بجيشه من الإصابات بعد هذه المعارك العنيفة، طلباً للشفاء والراحة.

أما الخطوة الثالثة، فكانت التصدي للتجمع البربرى الضخم والشرس فى منطقة الأوراس، بقيادة الكاهنة من قبيلة جراوة، وهى التى تمكنت من تجميع هذه القوى ورئاستها بعد مقتل كسيلة الأوربى. وكان حسان قد أدرك أن هذا التجمع له خطورة قصوى، وأن لزاماً عليه أن يتصدى له، وأنه إن تمكن من الانتصار عليه، فلن تخالفه البربر بعد ذلك (١٣٣).

١٣١- ابن الأثير: الكامل ج٤ ص ١٣٥.

١٣٢- وعن حولة حسان هذه يقول ابن الأثير فى الكامل ج٤ ص ١٣٥ "ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له فى صطفورة وينزرت، وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم، ولقى منهم شدة وفرة، فصبر لهم المسلمون، فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم، واستولوا على بلادهم، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وملكه"

١٣٣- نفسه

والتقى المسلمون والتجمع الأوراسي على نهر تينسي (أطلاق عليه فيما بعد نهر البلاء) وكان اقتراب المسلمين من قوات البربر قد صادف آخر النهار، وقرّر حسان عدم المبادرة بالقتال ايلاً، لكرهه القتال في ذلك الوقت، وللإستعداد وأخذ كسط من الراحة، ولكن يبدو أن المسلمين أصابهم التوتر والتعب بسبب هذا الانتظار ولصعوبة الإستراحة وأخذ كسط من النوم فبات الناس على سروجهم حتى أصبح^(١٣٤) فانهزم المسلمون بعد أشد قتال، وأصيب وقتل منهم عدد كبير، وأسر ثمانون رجلاً، وحرصت الكاهنة على مطاردة حسان حتى خرج من إفريقية، إلى حيث استقر في برقة مع وجيشه^(١٣٥).

الرحلة الثانية لحسان:

بقى حسان بن النعمان مقيماً على الأطراف الشرقية الإفريقية حيث أمره الخليفة، محتفظاً في الوقت نفسه بعدة مدن إفريقية كطرابلس والقيروان حتى سنة ٨١هـ، بانياً عدة قصور محارس للشواطئ سميت بقصور حسان^(١٣٦) إلى أن جاءه المدد، من رجال ومال، من قبل الخلافة التي لا بد أن يكون قد أهمها وأزعجها نبأ تلك الهزيمة، وصدر الأمر بقتال الكاهنة.

وقد عمل حسان - هذه المرة - على الأخذ بأسباب الحيلة وتأمين الاستعداد، وتلمس الطريق لمعرفة أحوال البربر^(١٣٧)، فعرف أن التجمع

١٣٤- الوزير: الحل السندسية ج ١ قسم ٢ ص ٥٣٣.

١٣٥- ابن أبي دينار: المونس ص ٣٤.

١٣٦- نفسه.

١٣٧- هناك قصة أوردتها المصادر عن أسير مسلم احتفظت به الكاهنة بعد انتصارها على حسان، وتبينته، وهو خالد بن يزيد، وأنه كان عيناً للمسلمين. استعان

الأوراسى أصابه الوهن وأن التفكك بدأ يدب فى أوصاله، والقبائل البربرية- خاصة البدوية منها- لا تصبر عادة على رئاسة قبيلة أخرى مدة طويلة، وخاصة أن أسباب هذه التجمع، أو هذا الخضوع لرئاسة قبيلة، ظهر لهم أنها تلاشت برجوع المسلمين تجاه الشرق عند هزيمة حسان من الكاهنة.

زاد على هذا أن الكاهنة لم تحسن التفكير، فهى حين أرادت أن تقلل من فرص استخدام المسلمين للحصون البيزنطية المتناثرة فى أنحاء الإقليم أو الإفادة منها، هدمتها، ففقدت بذلك تعاطف البيزنطيين، كما لم تكسب من وراء ذلك أمراً مؤثراً فى العرب، فهم لا يميلون فى ذلك الوقت للأسوار، فاعتمادهم على الكر والفر فى المقام الأول.

ولما أرادت الكاهنة أن تحصل على مزيد من الأموال أرسلت جندها ينهبون القرى والمدن بحجة ألا تقع الأموال فى أيدي المسلمين، أو بحجة أنها تفقد المسلمين بذلك غرضاً رئيسياً لهم، وهى فى هذا أيضاً مخطئة، لأن الجهاد والدعوة كانا هدف المسلمين الأول لا الغنائم ولا الأموال.

وخطأ آخر وقعت فيه الكاهنة، لما أرادت أن توجد منطقة عازلة قاحلة بينها وبين المسلمين، فأحرقت مساحات واسعة من الأرض الخصبة الخضراء، مما أفقدها تعاطف البربر، وبهذا تكون الكاهنة قد فقدت تعاطف كل من البيزنطيين والبربر كما فقدت سلطانها على التجمع الأوراسى^(١٣٨).

به فى معرفة أحوال البربر الداخلية. انظر فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٠ والكامل ج٤ ص ١٣٦، والنويرى ج٤ ص ٣٦.

١٣٨- وإلى هذا يشير ابن الأثير فى الكامل ج٤ ص ٧٤ ناقلاً عن الكاهنة قولها "إن العرب يريدون البلاد، والذهب و الفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعى، ولا

وزاد استياء البرزنطيين والبربر بإفريقية من أعمال الكاهنة، فهي قد
"عملت بأهلها الأفاعيل القبيحة، وظلمتهم الظلم الشنيع" (١٣٩)، وأدى هذا
الاستياء والشعور بالظلم إلى استغاثتهم بحسان من الكاهنة، وإلى حسن
معاملتهم لحسان ومساعدته (١٤٠).

ويمكن من هذا تصور سهولة عودة حسان إلى إفريقية، ولم يبق لإكمال
سيطرته عليها إلا القضاء على الكاهنة والسيطرة على بربر الأوراس، ويمكن
تصور صعوبة القتال، وأنه اشتد حتى ذلن الناس أنه الفناء (١٤١). ثم انتهى
الأمر بانتصار المسلمين انتصارا حاسما، استثمره حسان في فرض سلطانه
على إفريقية كلها، وأقام حسان بموضعه حتى استقامت البلاد (١٤٢)، وأمن
سكانها، كما كتب عليهم الخراج، ونظم أمور البلاد (١٤٣).

أرى إلا أن أخرج إفريقية حتى يأسوا منها، وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد،
فخربوها، وهدموا الحصون، ونهبوا الأموال، وهذا هو الخراب الأول لإفريقية.
ولعل التخريب الثاني ما نقله الوزير في الحل السدسية ج ١ ص ٥٣٥ بقوله
على لسان الكاهنة كذلك.... ولا نرى لكم خراب إفريقية حتى يأسوا منها، ويقل
طمعهم فيها، فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر و الريتون.

١٣٩- ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ١٣٧.
١٤٠- نفسه ص ١٣٦، وأيضا اللوبري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٣٧ وفيه فلما
قرب حسان من البلاد، لقيه جماعة من أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة، فسرّه
ذلك، ومار إلى قابس، فلقية أهلها بالأموال، والطاعة، وكانوا قبل ذلك يتحصلون من
الأمراء.

١٤١- النظر المرجعين السابقين

١٤٢- ابن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب ص ٢٧١.

١٤٣- النظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٨٧.

وكان البيزنطيون قد أفادوا من عدم ثبات نصر حسان ثم انهزامه من الكاهنة، ثم انشغاله بجولته الثانية ضد الكاهنة فأعد الامبراطور ليونتيوس سنة ٧٨ هـ (٦٩٧ م) حملة ضد المغرب، قادها البطريق يوحنا، وسهل له مهمته هذه ان من كان بها من المسلمين تركوها له، ولم يجد البيزنطيون أحدا يصبون عليه جام غضبهم سوى أهل قرطاجنة أنفسهم.

وبعد أن انتهى حسان من مشكلة الكاهنة وقتلها، قدم المسلمون مرة أخرى إلى قرطاجنة، واستعمل المسلمون هذه المرة القوة البحرية، وبها تمكن حسان من الانتصار على البيزنطيين في موقعة بحرية، أثرت بعدها البحرية البيزنطية بقيادة أشهر قادتها الإلتسحاب إلى قواعدها في بيزنطة (١٤٤).

وبهذا يكون أوان انتهاء الصراع البيزنطي الإسلامي في هذه المنطقة قد كاد يقترب. لقد كان حسان بن النعمان هو القائد الذي على يديه تم الانتصار على البيزنطيين، إذ حدد أهدافه بدقة، وركز جهده أولاً على التجمعات البيزنطية وخاصة في قرطاجنة، ثم على من تحالف منهم مع البربر في أوراس، وصارت له سيطرة على إفريقية وامتدت إلى المغرب الأوسط كذلك.

وكان على حسان بن النعمان أن يؤمن سواحل إفريقية من خطر الهجوم البيزنطي البحري من قاعدتهم الخطيرة، القريبة: صقلية. وهذا هو صاحب الحل الهندسية يشير إلى اشتداد غارات الروم (البيزنطيين) على المدن الساحلية، ولجوء المسلمين إلى حل مضاد، دون أن يحدد تاريخ هذا الحل، إلا إشارة غامضة، مفادها أن هذا الحل بدأ بعد بناء مدينة القيروان. والأقرب أن

١٤٤- انظر في هذا الدكتور العدوي: الأمويون و البيزنطيون ص ١٥٨.

يكون ما فكر فيه المسلمون هو إقامة قصور تمثل حصوناً على الساحل يربط
فيها قوم يراقبون الساحل، ويدافعون عنه، وذلك مثل قصور سوسة، والقصور
التي بناها حسان ونسبت إليه. وأغاب الفلن أن حسان بن النعمان هو الذي
وجه الانتظار إلى هذا الحل (١١٥).

وفي هذا الطور من الجهاد، يبرز دور الأسطول الإسلامي، حيث
استعان حسان بن النعمان به في معركة ضد البيزنطيين إبان استعادته
قرطاجنة (١٤٦).

وبهذه الانتصارات، يمكن القول بأن الخطر البيزنطي قد خضع، ولم يعد
له تأثير يذكر (١٤٧)، وأن على من يأتي بعد حسان بن النعمان أن يعمل على
تثبيت نتائج الفتح، ويوجهه إلى المغرب الأقصى ويزيده توطيداً.

وأخيراً أصبحت إفريقية - تماماً - إقليمياً إسلامياً استقر فيه الحكم
الإسلامي منذ ذلك الوقت، وحرص حسان على تأكيد هذا الأمر، فبدأ في

١٤٥- يقول الوزير في الحل السندسية جـ ١ ص ٣٠٣ مشيراً إلى فكرة هذه
القصور: "وذلك انه لما افتتحت إفريقية إشتدت غارة الروم على مدن البحر، فابتنت
القصور على السواحل، كقصور سوسة وغيرها، وجعل بها من عبيد أهل القيروان ومن
أنتدب معهم، قوم للرباط فكثروا هنالك".

١٤٦- كان يقود الأسطول البيزنطي الذي قابله أسطول حسان، البطريق يوحنا،
و انتهى الصراع بالسحابة إلى القسطنطينية. كما مر.

١٤٧- تمكن حسان بن النعمان من بث الأمن في الإقليم، وتوطيد سلطان
المسلمين، يقول ابن خلدون عنه "وأمن البربر، وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من
الروم والفرنج..." العبر ٤ ١٨٧

تنظيم الإقليم إدارياً، مثل تدوين الدواوين، وتعيين العمال^(١٤٨)، كما حرص على تقوية الناحية العسكرية ببناء قوة بحرية إسلامية ترابط في الإقليم وتكون مسئولة عن حماية شواطئه، فمال إلى مدينة قديمة تسمى ترشيش (أو ترسيس بالمهملتين) واستعان بنجارين من أقباط مصر، فوصل إليه منهم ألف، عاونوا في إنشاء أسطول إسلامي إفريقي، ببناء دار صناعة في هذا الموضع^(١٤٩) الذي سيطلق عليه فيما بعد اسم تونس.

كما لم ينس حسان الناحية الاجتماعية كذلك، فحرص على أن يقرب العرب من البربر، وأن يكثر ويعمق التفاهم والاندماج بينهما وأن يشجع البربر على المشاركة في حركة الجهاد، فضم اثني عشر ألفاً منهم إلى قوامه المجاهدين، وتعتبر هذه الخطوة لبنة بالغة الأهمية في صرح البناء الاجتماعي المغربي، وفي التغيرات السياسية التي ستتجهها المنطقة أيضاً، سنرى قمتها عند أول فتح الأندلس، حيث مثل عدد المجاهدين^(١٥٠) الفاتحين البربر تفوقاً عددياً واضحاً.

وهكذا رأينا جهاد حسان بجولتيه في إفريقية وما يليها غرباً. وكيف أنه بدأ بهذا عهداً جديداً لحركة الفتح، وأنه حقق عدة انتصارات ومنجزات

١٤٨- انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٣٨، و المالكي: رياض

النفوس ج ١ ص ٣٧

١٤٩- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٨، و الوزير:

الحلل السندسية ج ١ قسم ٣ ص ٥٦٥، وذكر أن سبب بناء الأسطول حماية إفريقية والإغارة على سواحل الروم.

١٥٠- انظر ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٨٧

عسكرية فى البر والبحر، وعدة انجازات اجتماعية وإدارية مهمة، كفلت الهدوء والاستقرار للمنطقة.

وبقى أن يستمر هذا الجهاد حثيثاً تجاه الغرب، وهذا ما لم نر حسان يعمل، وخاصة فى منطقة المغرب الأقصى.

موسى بن نصير و اكتمال الفتح

رأينا من قبل، كيف عزل عقبة فجأة عن ولايته الأولى، ثم كيف عزل أبو المهاجر فجأة أيضاً، ثم هذا هو حسان بن النعمان يعزل فجأة كذلك.

والناظر إلى مرات العزل المتكررة هذه، ربما ظن أن الدولة الأموية لم يكن لها سياسة ثابتة فى تعيين الولاة، ولكن إن صح هذا الظن، ظاهرياً، وفى بعض الحالات، إلا أننا نرى أن السياسة المالية والإدارية للدولة الأموية ربما كانت القاسم المشترك لمرات العزل هذه.

وبهنا هنا أن نركز على عزل حسان، ذلك أنها صحبت بإرسال مجموعة تفتيشية لحسان، (من أربعين من رجال والى مصر، الذى "أمرهم أن يحتفظوا بجميع ما معه" (١٥١)، كما أن هناك إشارة عن جوليان إلى أن من أسباب عزله، إقراره نظاماً ضريبياً ثابتاً فى بلاد المغرب، وأنه بذلك أصبح فى عينى الخليفة مشبوهاً فاستقدمه" (١٥٢).

وعينت الخلافة الأموية قائداً جديداً، هو موسى بن نصير، وقد اختلف فيما عينه وفى تاريخ تعيينه. فهناك من يشير إلى أنه عين من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان مباشرة، أى دون الرجوع إلى الخليفة، ومعنى

١٥١- النوبرى نهاية الإرب ج٢ ص ٢٨.

١٥٢- تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٣٢.

هذا أنه عين في خلافة عبد الملك بن مروان، ولا عجب في تعيين والى مصر للوالى الجديد - إن كان حدث هذا - لأنه كان ولى العهد وقتذاك، وعليه أيضاً يكون تعيينه قبل منتصف سنة ٨٥هـ، لأن عبد العزيز بن مروان توفى في ١٣ من جمادى الأولى منها.

وأما من أشار إلى أن ولايته جاءت من عبد الملك نفسه أو الوليد فإن تاريخ تعيين موسى يتأخر سنة أو أكثر، إذ توفى عبد الملك في شوال سنة ٨٦هـ (١٥٣)، أو يتأخر تعيينه إلى سنة ٨٨هـ، حسب رواية المقرئ (١٥٤)، أو ٨٩هـ حسب رواية النويرى (١٥٥).

ولكن الأقرب هو تاريخ ٨٥هـ لأنه التاريخ الذى يتحقق فيه تعيين عبد العزيز بن مروان له، وربما يمكن التوفيق بين هذا التاريخ وربط ولاية موسى بعهد الوليد، أنه صدر أمر التعيين في نهاية عهد عبد العزيز، وأن وصول موسى، وبداية ظهور أثر العمليات العسكرية التى قام بها، لم تظهر إلا أول عهد الوليد، فربط به.

أما عن خطة موسى بن نصير في إكمال الفتح، فيمكن تصور ضرورة إفادته من تجارب الفاتحين قبله، كما يمكن تصور السهولة النسبية في عملياته، لأن الإقليم كان قد عرف من قبل جهاد المسلمين وبأسهم، وحرصهم على تمام الفتح، كما أن عدداً من البربر لا يستهان به دخل الإسلام، وعرفه، وأن عدداً

١٥٣- انظر تحقيق تواريخ وفاة عبد العزيز وعبد الملك ابني مروان في ابن

الأثير: الكامل ج٤ ص ٢٣٧.

١٥٤- انظر نفع الطيب ج١ ص ١٤١.

١٥٥- نهاية الإرب ج٢٤ ص ٣٩.

منهم شارك في الجهاد من أيام حسان، كما رأينا، بالإضافة إلى ما عرف من مهارة موسى، وحنكته، وحبه للجهاد.

إن خطة موسى تظهر في خطبة له أوردها ابن كتيبة، ننقل منها ".....
فإن كل من كان قبلي كان يعمد إلى الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز
الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة" (١٥٦).

إذا فخطته (تمشيط) المغرب، حسب المصطلح العسكري المعاصر،
وهذا يتطلب منه البدء بإفريقية وتأكيد تمهيدها وتحويلها إلى ولاية إسلامية، ثم
الدخول إلى المغرب الأوسط وتوطيد أقدام الفتح فيه إكمالاً لما قام به حسان
بن النعمان، ثم ينطلق بعد ذلك إلى المغرب الأوسط، ليفتحه، ويبسط نفوذه
المسلمين عليه، ويكمل به فتوحات المغرب التي طال مداها جداً.
وكان عودة حسان قد أعطى الفرصة لبعض العناصر في المغرب
الأوسط في التحرك، فإن موسى "رأى البربر قد طمعوا في البلاد" (١٥٧) ومن
هنا ضرورة التركيز على قبائل زناتة وهوارة وكتامة من قاطني المغرب
الأوسط والمهيمنين على ذلك الإقليم، وكان يقودهم رجل يدعى طامون، وكان
على موسى، لكي يتهيأ له السيطرة التامة على الإقليم، أن يقضي على قوة هذا
الرجل، مثلما سبق لحسان أن قضى على الكاهنة من قبل، وتمكن موسى من
القضاء عليه، وأرسله إلى مصر حيث قتل هنالك (١٥٨).

١٥٦- الإمامة و السياسة ج٢ ص ٦٣.

١٥٧- انظر ابن خلدون: العبر ج٤ ص ١٨٧.

١٥٨- انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص ٤١.

وظهر أثر هذا النصر سريعاً، فبدأت القبائل، وعلى رأسها كتامة، في طلب الأمان، وإرسال الرهائن، دليلاً على الدخول في الطاعة وصدق النوايا (١٥٩).

واستمر موسى في توطيد الفتح بالمغرب الأوسط منطلقاً إلى سحوما، ثم إلى نهر ملوية، متابعاً مراكز المقاومة، مخضداً خطرهما (١٦٠) فتم له بذلك السيطرة على المغرب الأوسط.

وكان على موسى بن نصير أن يؤمن شواطئ المغرب الممتدة، ولا يتأتى ذلك إلا بإنشاء أسطول إسلامي قوي، وهنا نرى بعض المصادر تتسب إلى موسى أنه أول من بنى دار صناعة تونس، في حين أننا قدّمنا أن حسان بن النعمان أول من أنشأها بترشيش، موضع تونس الحالية، ولا تضاد في ذلك، فإن كان حسان أول من بنى دار الصناعة، فإن موسى توسع في هذا، وزاد عليه بتهيئة الميناء، إذ قيل "إن الذي خرق البحر إلى تونس هو موسى بن نصير (١٦١) فنعمت تونس بمرفأ هادئ".

وتمكن موسى بن نصير في المغرب الأوسط من إنهاء الخطر البيزنطي. وبسط يد المسلمين فيه وأحكم قبضته عليه ومن هنا يمكن الحكم عليه، بأنه صار ولاية إسلامية مثل جاره المغرب الأدنى.

وأما في ميدان المغرب الأقصى، وهو ميدان لم يوطد المسلمون فيه أقدامهم من قبل، فيبدو أن أخبار موسى في المغربيين قبله كانت قد وصلت

١٥٩ - نفسه.

١٦٠ - انظر الدكتور العدوي: موسى بن نصير ٤٠.

١٦١ - الوزير: الحلل السندسية ج ١ قسم ٣ ص ٥٦٥.

أهلهم، فعرفوا أنهم لا طاقة لهم بموسى، فسهل هذا عليه فتح الإقليم بسرعة واضحة، فمال إلى المدن الكبرى ومواطن التجمعات البربرية وحارب على فتح طنجة^(١٦٢) وسبتة، وهما قاعدتا الإقليم فنجح في الأولى، في حين أخفق في الثانية، وتركها لحملة قادمة تكون فيها سبتة أكثر نفعاً.

ولم توقف سبتة موسى، بل انتشر في الإقليم فافتتح درعة ومصرات تافيلالت، والسوس، وسيطر على بلاد صنهاجة والمصامدة، وأخذ رهائن منها، وذلك حوالي سنة ٨٨هـ^(١٦٣).

واتخذ موسى بن نصير منطقة متوسطة في المغرب، يرقب منها أحوال الإقليم، لتكون قريبة من إفريقية والمغرب الأوسط الممهلدين، وقريبة في الوقت نفسه من فتوح المغرب الأقصى الجديدة مراقبة وتثبيتاً، وجعل هذا المركز في تلمسان^(١٦٤).

ولم يكتف موسى بفرض السيطرة الإسلامية على الإقليم، بل رأى ضرورة تأمين هذا الفتح عن طريق دق باب صقلية، التي كان من الممكن أن يتخذها البيزنطيون قاعدة لضرب المغرب، فغزا صقلية^(١٦٥).

١٦٢- يقول ابن عبد الحكم في فتوح مصر والمغرب ص ٧٦ عن فتح موسى لطنجة "وهو أول من نزل طنجة من الولاة" وكان يقطنها عدد من قبائل البربر البتر و البرانس وكانوا خارج الطاعة، فتمكن منها وولى عليها والياً ثم عزله بطارق بن زياد.

١٦٣- كانت سبتة "قدماً" لاسبانيا على الشاطئ الإفريقي، فلعل موسى آخر الإصطدام بها لحين البدء في غزو الجانب الأوربي عبر المضيق.

١٦٤- انظر البلاذري: فتوح البلدان ص

١٦٥- ابن أبي دينار: المونس ص ٣٦.

كما لم يكتف بالنواحي العسكرية، فحرص على إعادة توطيد بعض الجماعات المخوف منها، فنقل عدداً من " الأقاليم إلى الأمانى" (١٦٦) ليكونوا قريبين من يده، بعيدين عن التآمر، أو الانحراف عن الطاعة.

كما حرص موسى على حسن معاملة البربر، وخاصة بعد ما مالوا إلى الطاعة، وأمر أعيان العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوا هذه الجماعة أمور دينهم الجديد (١٦٧).

تبقى نقطة فرعية، وهى ما يلحظه الدارس بفتوح موسى من كثرة ما نقل عن أعداد السبى، حتى فى إقليم المغرب الأدنى المنتهى من فتحه من قبل ولاية موسى بن نصير، كما يلحظ اختلاف الناقلين فى تعداد السبى، ففى حين يذكر ابن عبد الحكم (١٦٨) أن الخمس كان عشرين ألفاً، ذكر النويرى (١٦٩) أن الخمس كان ستين ألفاً، فى حين وصل عدد الخمس عند ابن خلدون (١٧٠) إلى سبعين ألفاً، وهى أرقام مذهلة، لا يتصور قبولها، والوجه أن هناك مبالغة فائقة فى هذه الأرقام، ولعل رقم عشرة آلاف التى ذكرها ابن أبى دينار (١٧١) يكون مفتاحاً للحل.

١٦٦- الوائيز/ الحبل السندسية ج١/ قسم ٣ ص ٥٦٦.

١٦٧- نفسه، ج١ ص ١١١.

١٦٨- فتوح مصر والمغرب ص ٢٧٥.

١٦٩- نهاية الارب ج ٢ ص ٣٩.

١٧٠- العبر ج ٤ ص ١٨٧.

١٧١- المولى ص ٣٥.

إن كثرة هذه الأعداد تتنافى مع ما ذكر من سياسة الاستتلاف وحسن
المعاملة، وتتنافى مع طبيعة الأمور ومدى الأحوال، وبده ميل البربر
للطاعة.

وأيما ما كان الأمر فقد أثرت هذه الأعداد في البربر، وستكون إحدى
أسباب شكواهم للخلافة الأموية في القرن الثاني الهجري كما سنرى.

وبنهاية فتوح موسى بن نصير للمغرب ينول المغرب للحكم الإسلامي،
ويصير ولاية مستقلة، ستتخذ بعد فترة قصيرة قاعدة تغذى حركة الجهاد في
القارة الثالثة التي دعا المسلمون فيها للإسلام، بدأت أولاها في آسيا، ثم في
أفريقيا، والثالثة هذه في أوروبا، حيث بلاد الأندلس.

إطلالة على القرن الأول الهجري

الإسلام والعربية:

سبق أن أشرت إلى طول المدة التي تعرض فيها العرب لإقليم المغرب أو أقاموا فيه حتى اكتمل الفتح، وبدأ البربر يعرفون طريقهم إلى الإسلام والعربية وسنتعرض باختصار لطول مدة الفتح وأسبابه، وتطور وانتشار اللغة العربية.

فأما التعامل العربي البربري، فجدير، قبل أن نعرض لمراحله، أن نشير إلى أن العرب لم يجابهوا شعباً في فتوحاتهم من قبل مثل مجابيتهم للشعب البربري، فأما مصر والشام فكانت المجابهة غالباً ضد المحتلين. وأما معظم الفتوحات قبل ذلك فكانت ضد الدولة، ممثلة في رئيسها وجندھا أكثر من كونها ممثلة في شعبها. ويمكن القول إنه بسبب هذه المجابهة، وبسبب تدخل قوى أخرى مساعدة، كانت المجابهة على الجناح الغربي طويلة وصعبة.

وربما زاد في صعوبة هذه المواجهة طول خطوط الإمداد، وعدم استقرار الجند الإسلامي في قاعدة داخل الإقليم إلا بعد مدة ليست بالقليلة، وعدم معرفة العرب المعرفة المطلوبة للغة البربرية، مما يمثل حاجزاً لغوياً له تأثير ضخم في عدم إمكان التفاهم السلمي، أضف إلى ذلك عدة صعوبات خاصة بقوة أجنبية هي قوة البيزنطيين، وعدة مشاكل إسلامية تدور معظمها حول منصب الخلافة أواخر عهد عثمان، وعهد علي بن أبي طالب ثم في عهود متفرقة زمن الدولة الأموية.

وبلاحظ أن قادة الفتح قد اختلفوا في طريقة معاملتهم للبربر، أو في الأسلوب المتبع في الفتح، من بين متخذ أسلوب القتال الحاسم، أو سياسة الاستتلاف والتجميع، أو أسلوباً مزدوجاً. بيد أن هذه السياسة أو تلك، لم تكن تملئها أهواء القادة، بل كانت تتدخل فيها، في مواقف كثيرة، سياسة البربر أنفسهم، وتتدخل القوة البيزنطية.

وقد استمرت سياسة القادة الفاتحين تتجه إلى هذا الأسلوب أو ذاك، حتى هيا الله قلوب عدد من البربر فدخلوا الإسلام طواعية واقتناعاً، فبرز الإسلام عاملاً مميزاً وأساسياً لإتمام الفتح، وما أن اقتنع بعض البربر بالدين الجديد حتى تمسكوا به، ودافعوا عنه، وحاولوا جهدهم أن ينشروه داخل الإقليم وخارجه، وكان لهم دور محمود في هذا الشأن.

الإسلام في المغرب

استمرت الفتوحات الإسلامية في منطقة المغرب الكبير، مدة أطول مما استغرقتها الفتوحات التي سبقتها، وربما كان بدء الانتشار الواسع للإسلام بعد إنشاء القيروان، لأن الفترة التي سبقت إنشاء هذه المدينة كانت مليئة بالنشاط العسكري، ولم يكن المسلمون وقتها مستقرين في مكان بعينه، وبعد إنشاء القيروان تمكن المسلمون من الاتصال السلمي مع أهل المغرب، وهنا تبرز سماحة الإسلام، وحضارته، كأدوات جلب طيبة وناجعة لنفوس البربر، أضف إلى هذا بساطة العقيدة الإسلامية وسهولة تقبلها.

وظل البربر يقبلون على الإسلام في النصف الثاني من القرن الهجري الأول، وقامت الدولة الأموية بجهد كبير في سبيل دعوة أهل المغرب إلى الإسلام، ويحفظ التاريخ للخليفة عمر بن عبد العزيز مكانة كبيرة في هذا المجال، وحرص عمر بن عبد العزيز على أن يرسل العديد من الفقهاء ومن التابعين إلى هذه المنطقة ليدعوا الناس إلى الدين ويعلموهم مبادئه^(١٧٢)، انطلاقاً من سياسته التي تعتمد على الدعوة.

وقد أشارت المصادر إلى أن رأس المائة الأولى شهدت تحول الكثيرين من أهل المغرب إلى الإسلام^(١٧٣)، في حين بقي قليل منهم على ديانته الأولى

١٧٢- انظر جهود عمر بن عبد العزيز لنشر الإسلام في المنطقة د. أحمد شلبي الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامي ص ١٦٧-١٦٩.

١٧٣- انظر على سبيل المثال: ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١٠٣، وابن أبي ديار المونس ص ٨ ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٣٧، ٤٥.

وفى الحديث عن الارتدادات، نهتم بها - من منظور التطور السياسى -
دون التركيز على أسباب هذه الارتدادات القليلة، وهل هى أسباب مالية أو
اجتماعية أو دينية، وطبيعى أن تكون الجماعات المرتدة من داخل البلاد، وأن
تكون من الجماعات التى لم يستقر الإسلام فى قلوبهم استقراراً تاماً، وهى
فئة قليلة (١٧٥).

وبينما كان الإسلام مستقراً على الساحل، وتقوم به دراسات إسلامية
عالية المستوى، كانت الحال بالداخل تختلف، فقد تجمعت بعض القوى
المناهضة للإسلام وراحت تدفع بعض الطامعين إلى ادعاء النبوة، وأبدهم
آخرون بدافع الجهل أو العصبية. ومن أوائل هؤلاء المتنبة الكذابين صالح بن
طريف، أوائل القرن الثانى الهجرى، فقد ادعى النبوة، وزعم أنه نزل عليه
كلام موحى به، واستمر ادعاء النبوة فى أسرة هذا الرجل إلى نهايات القرن
الرابع الهجرى (١٧٦). وقد ظهر غير هؤلاء من المتنبة أيضاً، واستغل هؤلاء
جميعاً جهل بعض الأهلى فى المناطق الداخلية، أو سذاجتهم، وحاولوا
تضليلهم (١٧٧).

١٧٥- يلاحظ تضخيم كاتب مقالة بربر فى دائرة المعارف الإسلامية لمسألة
الارتداد هذه، وتحريفه كلاماً نقله ابن خلدون فى العبر، وهو تضخيم، لم يأت بالدليل،
والصحيح أن بعض جماعات من البربر ارتدت عن الإسلام، لكنها عادت إليه من جهة،
وكانت قليلة من جهة أخرى، غير قبائل برغواطية، التى انحرفت عن الدين، مدة
طويلة.

١٧٦- يرجع صالح بن طريف هذا إلى أصول يهودية، انظر أخبار صالح بن
طريف وأسرته فى ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٦٠ - ٦١.

١٧٧- من هؤلاء المتنبة رجل سمي نفسه (حاميم بن من الله) واعتمد على
جهل قبيلته ليدعى النبوة. وقد ذكرت المصادر أخباراً عن نحل هؤلاء المتنبة، وهى

ومن مظاهر الانحراف عن الدين الإسلامى، والذي وجد فى بعض المناطق الداخلية بالمغرب الأقصى، ما قامت به قبائل بر غواطة وهى ظاهرة غريبة فى تاريخ الإسلام فى المغرب الأقصى، فقد استجابت هذه القبائل لصالح بن طريف، الذى أشرنا إليه من قبل، ثم لأبنائه، وأفراد أسرته من بعد ذلك، وكانت استجابتهم قوية واستمرارهم طويلاً، استمر عدة قرون. وكانت هذه القبائل كثيرة متعددة، شملت جراوة وزواغة، وبنى أبى ناصر، ومنجصة، وبنى واغمر، وبنى بورع، وبنى دمر، ومطماطة، وبنى وزكسينت^(١٧٨) واستمر موقف هذه القبائل إلى أن انتهى أمرها فى منتصف القرن الخامس الهجرى.

ومن غريب شرعتهم - وذكر بعضها ابن عذارى، وذكرها بتفصيل أكثر البكرى - أنهم يؤمنون بالأنبياء، لكنهم يؤمنون أيضاً بنبوة صالح بن طريف ومن تولى بعده، ويؤمنون كذلك بالكتاب الذى ألفه لهم ويعتبرونه من الكلام الموحى به. ولهم شرائع تخالف الشريعة الإسلامية فى العبادات من صلاة وصوم، وفى الزكاة وفى الأحوال الشخصية، وفى الديات، أما كتابهم الذى وضعه صالح بن طريف لهم، فتكون من ثمانين سورة منسوبة إلى أسماء النبيين كيونس، وبعض الشخصيات الأخرى كقارون وفرعون، وبعض الحيوانات كالجراد والحنش، وفيها أيضاً سورة غرائب الدنيا، وقد ذكر البكرى كل هذا بتفصيل كبير، كما ذكر بعض أجزاء من كتابهم المزعوم هذا^(١٧٩).

أخبار غريبة ويمكن الرجوع إلى السلاوى: الاستقصاء ج ١ ص ١٦١، ١٧٥. وابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٧١.

١٧٨- انظر البكرى: المغرب ص ١٤٠-١٤١.

١٧٩- انظر عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٣٢٢-٣٢٣. و إلى البكرى فى

المرجع السابق ص ٣٨-١٤١ ففيهما الغناء الكثير.

ولم يستطع الأدارسة، على الرغم من جهودهم الواضحة والمحمودة في نشر الاسلام، وعلى الرغم من إحرازهم عدة انتصارات ضد هذه النحلة الغريبة، أن يقضوا عليها القضاء المبرم^(١٨٠) ذلك أن سنة ٣٥٢هـ شهدت استمرار بعض القبائل على هذه المذاهب الغريبة^(١٨١).

وقد قابل المرابطون هذه الظاهرة وهم بصدد إقامة دولتهم، فقام عبد الله بن ياسين بتقديم جهادهم على جهاد غيرهم، لأنهم أهل ضلالة وكفر، ولأنهم ذوو عدد، وكثرة، ودار بين قوة المرابطين الناشئة الفتية وقوة قبائل برغواطة صراع عنيف استمر مدة طويلة، بدأه عبد الله بن ياسين واستشهد في إحدى معاركه، وأكمّله بعده أبو بكر بن عمر وكان أول أعماله الزحف إلى برغواطة، وتمكن أبو بكر من الانتصار عليهم، وقتل منهم عدداً وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب^(١٨٢).

١٨٠- يقول السلاوي: إن ادريس بن عبد الله خرج سنة ١٧٣هـ للقضاء على القبائل التي اتبعت نحلاً غريبة، وكان قد بقي منهم بقية متحصنون في المعازل والجبال و الحصون المنيعه، انظر الاستقصا ج١ ص ١٤١.

١٨١- ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص ٣٢٤.

١٨٢- السلاوي: الاستقصا ج٢ ص ١٧-١٨.

اللغة العربية

ودار صراع لغوى بين العربية والبربرية، واتخذ هذا الصراع شكلاً مخالفاً لما كان بين العربية والقبطية في مصر، ففي حين تغلبت العربية على القبطية تماماً في مصر بعد عدة قرون، نرى العربية في المغرب تتمكن في عدة مناطق، وتتسحب البربرية إلى أماكن أخرى. ويقرر الدكتور أحمد مختار أن العربية تمكنت من الانتشار الكبير في ليبيا بسبب جعلها لغة الدواوين، وبسبب هجرة العرب المستمرة إليها، وغير ذلك، وإن ظل للبربرية وجود جزئي صغير في ليبيا^(١٨٣). فإن كانت العربية في القرون الأولى بعد الفتح لم تتمكن من القضاء التام على البربرية في المغرب الأدنى، المجاور لمصر، والنقطة التي يلتقي عندها معظم القبائل العربية الوافدة، فما بالك بالمغرب الأوسط، يليه المغرب الأقصى.

١٨٣- د. أحمد مختار النشاط الثقافي في ليبيا ص ٦٤.

وقد مر الصراع اللغوي بين العربية والبربرية بمراحل ثلاثة^(١٨٤)،
أولها مرحلة التعادل، والثانية المرحلة التي مال الميزان فيها لصالح العربية،
والثالثة الانتصار المستقر للغة العربية.

وقد استمر التعادل إلى نهاية القرن الأول الهجري، وفيها حول العرب
الفاثون لغة الدواوين إلى العربية، وامتدت المرحلة الثانية لتغطي القرون:
الثاني والثالث والرابع من الهجرة^(١٨٥).

ويرجع الفضل في ميل الميزان تجاه لغة العرب إلى الإسلام، الذي به
وبحضارته، تمكنت دول مثل الرستمية والأغلبية من زيادة نشر العربية أما
لماذا لم تكمل اللغة العربية. انتصارها في هذه المرحلة؟ فذلك يرجع إلى عدم
اختلاط العرب بالأهلين الاختلاط الكافي، ويرجع ذلك إلى وجود عدة عوامل
مضادة، منها الشعور القومي عند بعض البربر، ووجود مناطق يصعب على
العرب الوصول إليها مثل المناطق النائية والجبلية، وقد استمرت هذه الحالة
إلى بداية القرن الخامس الهجري.

١٨٤- المرجع السابق ص ٧١. وما بعدها.

١٨٥- وفي البيان المغرب لابن عذاري ج ١ ص ٣١٨ إشارة إلى جهل بعض
البربر بالعربية في وقت متأخر، فعندما وفد أبو صالح زمور البرغواطي على الحكم
المستنصر الأموي بالأندلس سنة ٣٥٢هـ "كان المترجم باللسان العربي عيسى بن داود،
وانظر كذلك البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٣٤-١٣٥.

وما زالت البربرية تمثل بعض المشكلات في منطقة المغرب الكبير
حديثاً، إذ أطلقت براسها مرات عدة، مرة بسبب حرص الاستعمار الفرنسي
على إحيائها، ومرة أخرى لعوامل اجتماعية أو عنصرية .

الفصل الثاني

عصر الولاية

الفصل الثاني

عصر الولاية

أصبحت إفريقية (المغرب) ولاية قائمة بنفسها منفصلة عن مصر بعد تمام فتحها، ويشير النويرى إلى ذلك بقوله: "وأفرد إفريقية عن مصر"، وبهذا يصبح الجناح الغربى كياناً خاصاً يتبع الخلافة مباشرة^(١) ويمكن التاريخ- عملياً- لهذا العصر الجديد الذى أطلق عليه (عصر الولاية) بنهاية عهد موسى ابن نصير.

ويمتد عصر الولاية من منتصف العقد الأخير للقرن الأول الهجرى إلى منتصف العقد التاسع من القرن الثانى الهجرى، ويمكن وصف هذا العصر بأنه كان عصر اضطرب وقلق، وأن عدداً من المتوثبين على الولاية قد تغلبوا عليها عدة مرات.

وواقع الأمر أن تاريخ المغرب فى القرن الثانى الهجرى، قد تطور جداً عنه فى نهاية القرن الأول من حيث علاقة العرب والبربر، القرن الأول أن يستمر الهدوء، ويزداد انتشار الإسلام، وتتدفع فقد ظهرت الفتن، والاضطرابات، والتجرو على منصب الولاية، فيحين بعض الجند والياً

^١ - وعندما فتح إقليم الأندلس أضيفت ولايته إلى المغرب، انظر النويرى نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٥٦

ارتضوه هم دون الرجوع للخليفة، ودون رضا العامة، أو أن يستعفى الوالى لخطورة الأحداث وكثرة الشكاية. وقد أشار المؤرخون إلى اضطراب إفريقية وسوء طاعة أهلها أكثر من مرة، وكيف أنها تداعت على بعض الولاة بأمسها مسلماً وكافراً^(٢)

كما بدأت بعض المذاهب الوافدة إلى الإقليم فى الظهور والتأثير على مجريات الأحداث، وكان الخوارج على رأس هذا الأمر - كما سنرى. وبهمنّا - قبل أن نوجز أحداث هذه الفترة - أن نوضح أسباب هذا الاضطراب أو عنف رد الفعل من قبل الإقليم.

إن مفتاح حل هذه القضية يكمن فى معرفة شخصية البربر، فالبربرى البدوى معتد بنفسه غاية الاعتداد، محب للحرية، يأبى الضيم، ويغضب لما يمس حريته، أو لما يظن أنه يمسها، وقد أثر هذا فى طول مقاومة البربر للفتح الإسلامى، وظهرت هذه المقاومة أكثر وضوحاً فى المنطقة التى تلى طرابلس غرباً لكثرة القبائل البدوية، ولوجود عوامل إضافية هى قوة البيزنطيين المتمركزة فى قرطاجنة الممثلة هى وصقلية وغيرهما لسيطرة الحكم البيزنطى فى الجزء الغربى من البحر المتوسط، وكذا مساندة بعض القبائل البربرية المتحضرة للقوات البيزنطية ضد المسلمين.

كانت بداية العلاقة بين العرب المسلمين والبربر بداية غير حسنة، بدأها البربر بالتشكك فى نوايا العرب، وعدم فهم المغزى الحقيقى لحركة الفتوحات الإسلامية، وهو شىء لم يتمكن المسلمون فى هذه الظروف من إظهار جانب

٢ - ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٤١٦

الحق فيه، إلا بعد مرور سنوات طويلة من الصدام، وكان إنشاء القبروان
حاملاً مساعداً في سبيل توضيح الأمور.

وعندما تمكن بعض البربر من إدراك هذا المغزى الحقيقي، بدأت
المقاومة تقل، غير أنها لم تكن مطردة في ذلك، لأن بعض القادة العرب
المسلمين لم يحسنوا فهم طبيعة هذه الجماعات البربرية، وأنها جماعات تتنوع،
ولا تقهر بسهولة، وأنها تحس أنها صاحبة الأرض، فوقع هؤلاء القادة بذلك
في خطأ جسيم، هو عدم الاستمرار في حسن معاملة هؤلاء القوم.

وكما تردد معاملة القادة العرب لهذه الجماعات البربرية بين الإحسان
وعدم الفهم، تردد هؤلاء البربر بين حسن الطاعة، والارتداد عن هذه الطاعة.
فوجد القادة الفاتحون، نتيجة لهذا كله، معاونة بربرية، أو مقاومة.

ومع انتهاء العمليات العسكرية يكون المغرب قد صار جزءاً من الدولة
الأموية، لكن هل يمكن القول أن الفتح الإسلامي قد اكتمل؟
لا يستطيع القول بهذا، ذلك الفتح فتحان:

أولهما: فتح عسكري المظهر (وإن لم يخل من النتائج الإسلامية
المطلوبة).

وثانيهما: فتح ديني وهو الغرض النهائي من وراء الحركات العسكرية.

وكان هذا الفتح قد بدأ يؤتى ثماره أثناء العمليات العسكرية المشار إليها،
لكنه لم يبد تام الوضوح إلا منذ نهاية المائة الأولى، وفي عهد عمر بن عبد
العزیز خاصة، وذلك:

١- بفضل اهتمام هذا الخليفة الأموي بالجانب الأهم في حركة الفتوحات الإسلامية، أعنى جانب الدعوة، فقام بإرسال الفقهاء يقرئون الناس القرآن، ويعلمونهم شرائع الإسلام، ويدعون إلى الدين الجديد.

٢- وبفضل عامل آخر ظهر أثره بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، أقصد الخوارج الذين قاموا بالدعوة، وساعد على نجاحهم عوامل أخرى ستتضح فيما بعد.

ويبدو أن هذين العاملين اللذين أقاما الفتح الديني، وفدا إلى الإقليم في وقت جد متقارب، وإن كان يمكن الحكم بأن الداعين من الخوارج كانوا أكثر حرية في الانتقال وربما أكثر عدداً، فتمكنوا من الانتشار، كما تمكنوا من الوصول إلى التجمعات البربرية في الأماكن الوعرة والنائية المتطرفة، أو مالوا إليها ابتعاداً عن قبضة الولاة.

ويلاحظ أن أوائل القرن الثاني الهجري، مع هذا شهد تركيزاً من الولاة عامة على الجانب السيئ في المعاملة، فكثر شكوى البربر من سوء معاملة الولاة العرب لهم، وتركزت الشكوى في عدة مجالات:

١- في المجال السياسي والعسكري، كانت شكوى البربر من أنهم يقومون بواجباتهم خير قيام، دون أن يكون لهم في مقابل هذه الواجبات حقوق متوازنة، تتفق وتعاليم الإسلام في هذا الشأن.

٢- في المجال الاقتصادي تركزت شكوى البربر حول عدم حصولهم على أعطياتهم كاملة، وحول كثرة ما يورد من أموال إلى خزانة الأمويين، كما شكوا من سوء استغلال الأمويين للثروة البربرية، وذلك كله يتنافى مع التعاليم الدينية الواضحة في هذا المقام، والتي تبين الأوجه الصحيحة

لكل من الإنفاق والموارد، تلك التعاليم التي خرج عليها الأمويون بسبب سياستهم المالية التي ابتدعوها وانتهجوها (٣)، وهناك أيضاً إشارة سريعة إلى التعدي في الصدقات، كما مال بعض الولاة إلى تقايد سياسة الحجاج في العراق للصلة التي كانت بينهما إذ كان هذا الوالي "(يزيد بن أبي مسلم سنة ١٠٢ هـ) كاتباً للحجاج من قبل.

٣- وفي المجال الاجتماعي، لم يعتبر بعض الولاة العرب البربر إخوة لهم في الدين، بل مالوا إلى اعتبارهم مواليتهم، فلم يعطوهم ما كانوا يستحقونه من مكانة، وهو أمر لم يقبله البربري، كما لم يحرص ولاة الأمويين عامة بعد خلافة عمر بن عبد العزيز، على الشعور الإسلامي عند البربر فأكثرُوا من إرسال السبايا إلى المشرق هدايا للخلفاء، كما اقترح بعض العمال، (عمر بن عبد الله المرادي، عامل طنجة منذ سنة ١١٦ هـ من قبل عبيد الله بن الحبحاب والي المغرب) تخميس البربر أنفسهم (٤)، فأثر اقتراحه الذميمة هذا تأثيراً سيئاً في نفوس البربر، وأدى إلى قيام بعضهم بفتن سقط فيها عدد من القتلى (كما أشار ابن عذارى).

٣- انظر خطوط هذه السياسة المالية للأمويين في كتاب الدكتور محمد حلمي محمد أحمد. الخلافة والدولة في العصر الأموي، وتذكر كتب التاريخ المغربية بأمثلة كثيرة عن سوء استغلال الولاة الأمويين للثروة في المغرب.

٤- وذلك بزعم أن البربر في "المسلمين" وفي ذلك أكثر من مغالطة، فما كان من الممكن اعتبار مسلم فيناً للمسلم، هذا جانب، ومن جانب آخر فإن تخميس الفية لم يتفق عليه الفقهاء ولم يقل به إلا الشافعي، وجعل خمسة لأهل الخمس من الغنيمة، وبقية الأخماس الأربعة للمقاتلة وللصالح العام.

عانى البربر من المشاكل ذات الشعب الثلاثة المشار إليها آنفاً واستمرت معاناتهم هذه متوازية مع الدعوة الإسلامية، دون أن يؤثر أسس هذه الدعوة في رد الولاة الظالمين إلى الحق.

ويمكن اعتبار من انضم من البربر إلى الدين الجديد قسمين اثنين:

قسم انضم إلى الدين عن فهم وحب، وقسم ثان انضم إليه عن غير فهم دقيق، أو عن مجرد متابعة.

ولعل نظرة كل من القسمين السابقين إلى المشاكل المشار إليها كانت مختلفة، فاما القسم الثانى فقد أظهر رفضه لسوء المعاملة وعدم فهم شخصية البربرى، عن طريق الارتداد عن الدين، أو عن طريق الانحراف بمبادئه القويمة (٥).

وأما القسم الأول الذى دخل الإسلام عن فهم وحب، فقد وقع فى مشكلة كبيرة، كيف يعلن عن سخطه على المعاملة غير الطبيعية التى يلقيها من الولاة العرب المسلمين، دون أن يكون فى ذلك أى تفسير خاطئ لموقفهم من الدين الإسلامى نفسه؟

لقد غضب بعض البربر من سوء معاملة يزيد بن أبى مسلم والى المغرب من قبل يزيد بن عبد الملك، وكان هذا الوالى كما وصفه ابن عذارى (٦) ظلوماً غشوماً، فتأروا ضده وقتلوه.

٥- ظلت آثار هذا الانحراف قائمة فى بعض المناطق بالمغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، وقام الأدارسة، ثم المرابطون، بدور كبير فى إنهاء هذه الانحرافات.

٦- انظر البيان المغرب ج ٨ ص ٤٨

ولم يكن من الممكن أن يقوم البربر بقتل كل وال ظلوم غشوم، فهو أمر غير مقبول لا من البربر أنفسهم، ولا من السلطة المركزية بطبيعة الحال، فقبل البربر التفهم الظاهري الذي أبداه الأمويون وانتظروا إلى حين.

لكن سياسة المهادنة الأموية هذه، سرعان ما تغيرت في عهد هشام، وجاء من ولاته من أعاد المعاملة إلى ما كانت عليه من سوء، وحاول البربر تنبيه الخليفة الأموي، فسافر وفد منهم إلى دمشق (فيهم ميسرة المضغري الذي سنشير إليه بعد قليل) لكن هذا الوفد لم يمكن من مقابلة هشام نفسه، لاتخاذهم دون محكوميته حجاباً، فلم يقابل هذا الوفد إلا أحد أعوانه (وهو الأبرش الكلبى)، والراجع إلى فحوى النقاش الذي دار بينهما، يجد فرقاً كبيراً في المنهجين فالأمويون أو ممثلوهم تفكيرهم مادي، والوفد البربري يعتمد على مبادئ الدين الإسلامي، وعلى رأسها العدل والمساواة في الحقوق وعاد الوفد إلى بلاده بعد أن تأكد أن الولاة لا يصدر عن أنفسهم، وإنما هي سياسة الدولة الأموية والخليفة الأموي نفسه.

وإزاء صعوبة التفاهم مع الحاكمين العرب والتعامل معهم، وإزاء عدم التفات الدولة الأموية لمصالح البربر ورغباتهم، بدأت العصبية الجنسية تعمل عملها، وبدأت رغبة البربر في إيجاد نوع من تحقيق الذات في النمو، فاتخذوا لتحقيق ذلك عملياً أكثر من وسيلة (كلها يبعد عن مظنة المساس بالإسلام).

أولهما: اتخاذ مذهب الإمام مالك مذهباً خاصاً بهم يتفردون به عن مذهب السلطتين العربيتين الحاكميتين الأموية فالعباسية.

ثانيهما: الانضواء أو الانضمام إلى الفكر الخارجي الوافد إلى الإقليم، والمنتشر بصفة منظمة منذ أوائل القرن الثاني الهجري.

وثالثها: الانضواء تحت لواء التأثير العربي، العلوي، القادم من المشرق،
ثانراً ضد العباسيين.

ولكن معظم أشكال إنلهار الاستقلال فى هذه الفترة - عصر الولاة - كان
يتركز - من جانب البربر - على ميل بعضهم إلى حل قضية "الحكم".

ولن نعرض هنا حديثاً عن الخوارج، إذ إن موضعه سيكون الفصل
الأول من الباب الثانى، ولكن اكنفى بالإشارة إلى دخول أفكار فرقتين منها هما
الصفريّة والإباضية، وأن عدة قبائل عرفت هذا الاتجاه فى سائر المغارب
الثلاثة^(٧). وأن أهم ما جذب بعض البربر إلى هذا الاتجاه كونه اتجاهاً قداماً
من المشرق (لم يبتدعوه) وما تضمنته الأفكار الخارجية من عدم اشتراط
قرشية الخليفة، ومن الخروج على السلطان الجائر وعزله.

وهناك أسباب أخرى للاضطراب الذى اتسم به عصر الولاة بالإضافة
إلى السببين السابقين، أعنى به سوء الإدارة العربية، ووجود خلافت عصبية.

ومن أمثلة سوء الإدارة، ولاية يزيد بن أبى مسلم، وكان مولى للحجاج
وكاتباً له، ويشير ابن أبى دينار إلى أن سليمان بن عبد الملك كان فى حبس
يزيد وبقي فى سجنه طيلة خلافته وخلافة عمر بن عبد العزيز من بعده، ولم
يطلقه إلا الوليد بن عبد الملك، ثم أرسله إلى إفريقية والياً.

٧- يقول ابن خلدون: "ثم يلفض فيهم عروق الخارجية ولقنوه من العرب،
الناقلة ممن سمعها بالعراق، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية
والصفريّة" العبر ج ٦ ص ١١٠.

فهو اذا تلميذ الحجاج، ثم نزل سجن سليمان وعمر بن عبد العزيز لم ينقذه إلا الوليد، فلا يستغرب أن تكون إدارته من النمط العنيف القاسي، وقد عانى أهل إفريقية ذلك منه بالفعل.

وادت سياسة يزيد بن أبي مسلم هذه إلى أن ثار عليه الناس وقتلوه والمؤرخون ينكرون هذا القتل، وجمعون على أن سببه كان مطولاً لأن يعاملهم معاملة الحجاج أهل العراق، وأن يبقى الجزية على من أسلم من أهل الذمة، وابن كان ابن أبي دينار يشير بالإضافة إلى هذا أيضاً - أنه قيل إن الذي قتله من الخوارج^(٨).

ومع هذا التجرف على منصب الوالي وقتله، حرص البربر على تقديم تفسير صحيح لموقفهم هذا، فهو ليس من قبيل الثورة ضد الخلافة، ولا الارتداد عن الإسلام، إنما غضبة وانفعال ضد من يسومهم غير ما أمر به الإسلام، وابن الأثير^(٩) ينقل رسالتهم المعتذرة إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك:

"إنا لم نخلع أدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا على ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه، وأعدنا عاملك" (يعنون به محمد بن يزيد مولى الاتصال).

ومن أمثلة الخلافات، ما تكرر من سطو على منصب الولاية فيطرد متوثب الوالي ويحل محله حيث تجرأ عبد الرحمن بن حبيب الفهري فطرد

^٨ - انظر ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٣٥١ وابن خلدون العبر ج ٤ ص

١٨٨ والمؤنس ص ٣٩

^٩ - المرجع السابق نفسه.

حنظلة بن صفوان الكلبي، الذي كان هشام ولاء في صفر ١٢٤ هـ (١٠). وكان عامله على مصر فوصل المغرب ربيع الآخر سنة ١٢٤ (١١) ثم أخرجه عبد الرحمن من المغرب في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ (١٢)، وقد حاول أن يعالج الموقف فأرسل إلى مروان بن محمد الذي قبله وولاه إفريقية والمغرب والأندلس (١٣).

وكان هذا العمل فاتحة طريق لعدد من التجرو فكما سطا عبد الرحمن على حنظلة، سطا عليه بدوره أخوه إلياس بن حبيب، ثم تغلب حبيب مرة ثانية.

ويمكن أن نصف الفترة من سنة ١٢٧ هـ إلى ١٤٤ هـ بأنها فترة التغلب والتجرو على منصب الولاية، ولعل هذا يرجع - في أحد أسبابه - إلى أنها فترة وقعت في نهاية الخلافة الأموية وبداية الخلافة العباسية الجديدة.

ومن الخلاقات الداخلية كذلك، ظهور وجه العصبية في المغرب وتدخل الجند في طرد الوالي الذي أرسلته الخلافة العباسية، واختيار وال جديد، يظهر هذا عندما عين أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي والياً على إفريقية سنة ١٤٤ هـ، لكنه أخرج منها بعد أن ثارت عليه المضربة، وأخرجوه سنة ثمان وأربعين (١٤).

١٠ - العبر ج ٤ ص ١٩٢

١١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٨ وايضا ابن الأثير:

الكامل ج ٤ ص ٤٧٣

١٢ - العبر ج ٤ ص ١٨٨

١٣ - اللويري: نهاية الأرب ج ٤ ص ٦٢

١٤ - العبر ج ٤ ص ١٩٢

ويُفسر النويري هذا بقوله^(١٥) "ثم فسد عليه جنده بعد ذلك وتحدثوا أن المنصور كتب إليه أن يقدم وأنه أبى ذلك، فاجتمع رأيهم على إخراجه وتولية عيسى بن موسى الخراساني..... من غير أمر أبي جعفر، ولا رضا العامة، إلا أن قواد المضربة تراضوا به"

على أن فترة الولاة - رغم ما فيها من اضطراب لم تخل من فترات هدوء، أو سيطرة من قبل الولاة، فمثال فترة الهدوء ولاية اسماعيل بن أبي المهاجر الذي تولى على عهد عمر بن عبد العزيز، ويحمل ابن خلدون وصف سيرته بأنه "كان حسن السيرة"، ووصف أثره في الإقليم بقوله: "وأسلم جميع البربر في أيامه"^(١٦) كما يصفه النويري بقوله "وكان خير وال"، ووصف عصره بأنه قد "غلب الإسلام على المغرب جميعه"^(١٧)، فكان خير عامل لخير خليفة أموي.

إن هذا الهدوء أوائل عصر الولاة أدى إلى نتيجة عظيمة، وهي التركيز على الجانب الأهم بعد نهاية حركة الفتح الإسلامي، أعنى مجال الدعوة الإسلامية وقد تمكن عمر بن عبد العزيز من اختيار الوالي المناسب لهذه

١٥ - نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٧٦

١٦ - العبر ج ٤ ص ١٨٨

١٧ - نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٥٦

المهمة، وزوده بعدد من الفقهاء ليعلموا الناس أمور دينهم^(١٨)، فأتى هذا الجهد بهذه الثمرة الطيبة.

وفيما يلي بيان بأسماء الولاة خلال هذه الفترة التي شملت جزءاً من الخلافة الأموية وصدراً من الخلافة العباسية:

ثبت الولاة الأمويين والعباسيين

سنة ٩٦هـ

١- محمد بن يزيد

١٠٠هـ

٢- إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر

١٠١هـ

٣- يزيد بن أبي مسلم

١٨- وممن بعثهم عمر بن عبد العزيز، كما يذكر أبو العرب في كتابه طبقات علماء إريقية: صبان بن أبي جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور، وإسماعيل بن عبيد (تاجر الله) وطلق بن جابان، وبكر بن سودة وعبد الرحمن (بن رافع التلوخي وغيرهم) (انظر ص ٢٠)

- ٤- بشر بن صفوان الكلبى ١٠٣هـ
- ٥- عبيد بن عبد الرحمن السلمى ١١٠هـ
- ٦- عبيد الله بن الحبحاب ١١٦هـ
- ٧- كلثوم بن عياض ١٢٣هـ
- ٨- حنظلة بن صفوان الكلبى ١٢٤هـ
- ٩- عبد الرحمن بن حبيب (طرد حنظلة وحل محله) ١٢٧هـ
- ١٠- الياس بن حبيب تغلباً
- ١١- عبد الملك بن أبى الجعد
- ١٢- عبد الأعلى بن السمح المغافرى
- ١٣- محمد بن الأشعث الخزاعى ١٤٤هـ
- ١٤- الأغلب بن سالم ١٤٨هـ
- ١٥- عمر بن حفص هزار مرد ١٥١هـ
- ١٦- يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبى المهلب ١٥٤هـ
- ١٧- روح بن حاتم ١٧١هـ

١٧٤هـ

١٨- نصر بن حبيب

١٧٧هـ

١٩- الفضل بن روح

١٧٩هـ

٢٠- هرثة بن أعين (استغنى)

٨١- ١٨٤

٢١- محمد بن مقاتل

(عزله الرشيد بإبراهيم بن الأغلب لتبدأ صفحة جديدة وهي ولاية

الأغلبية).

الباب الثانى

عصر الدول البربرية الصغرى

الفصل الأول

مدخل إلى الحركات الاستقلالية البريرية

الفصل الأول

مدخل إلى الحركات الاستقلالية البربرية

سبق أن أشرت في الفصل الثاني من الباب الأول إلى بعض مشكلات عانى منها البربر، واضطر بعضهم إزاءها أن يعملوا لتحقيق ذاتهم واستقلالهم، وأن من أهم هذه الوسائل:

١- اتخاذ المذهب المالكي مخالفة لمذهب الخلافتين الأموية ثم العباسية.

٢- الالتفاف حول التأثير العلوي.

٣- الالتفاف حول أفكار الخوارج.

ويكون تركيزي في هذا الباب على العامل الثالث لارتباطه الوثيق بأول تجمعات سياسية بربرية شملت المغرب الثلاثة.

ويجدر أن أقدم لهذا بكلمة موجزة عن الخوارج، أصلهم، وانتقالهم إلى المغرب، ليكون هذا توطئة للحديث في الفصلين القادمين عن أهم تجمعاتهم السياسية سواء الصغیر منها أم الكبير.

من المعروف أن جماعة خرجت على علي بن أبي طالب بعد التحكيم، مثلت فكراً معارضاً، هذه الجماعة أطلق عليها عدة أسماء منها الخوارج، وكانت هذه الجماعة تضم عدداً من الفقهاء المجتهدين، ونتيجة لاجتهاداتهم تفرقت هذه الجماعة إلى فرق كثيرة، كان الفكر الديني مع الفكر السياسي أساساً لها.

وبلاحظ أن بعض هذه الفرق اشتد، فابتعد على حسب درجة اشتراطه
عن أهل السنة، وأن بعضاً آخر كان أقرب إلى الاعتدال فاقترّب على حسب
درجة اعتداله من مذهب أهل السنة. ومن أهم الفرق المشتتة التي وصلت
المغرب، فرقة الصفرية، كما عرف المغرب فرقة الإباضية المعتدلة.

أما كيف انتقل الفكر الخارجي إلى المغرب، فقد سبق أن أشرت إلى أن
الدعوة الإسلامية حمل لواءها عمر بن عبد العزيز وشارك في بث الدعوة
رجال، غير رسميين، لكنهم مخلصون أيضاً، هم دعاة الخوارج الإباضية
والصفرية ووفدوا من العراق إلى منطقة البربر فنشروا الدين، باعتراف هذه
الأفكار السياسية، التي سنرى أنها وافقت هواهم، وانضوى آخرون تحت لواء
هؤلاء المعتنقين بغرض الوصول إلى ما يصبون إليه، استعانة بهذا الفكر
السياسية الوافدة، وانكب بعض معتقي الفكر الخارجي عليه درساً وفهماً، ونبغ
آخرون فأرسلوا ليتلقوا مزيداً من الأفكار الخارجية من كبير الخوارج
بالعراق، عادوا بعدها إلى المغرب محاولين زيادة نشر المذهب. وقد ظلت
العلاقة بين خوارج العراق وخوارج المغرب مستمرة فترة من الزمن، كما
سنرى في أخبار الدولة الرستمية في المغرب الأوسط.

واختار الخوارج منطقة المغرب لأنها تمثل منطقة أطراف في العالم
الإسلامي، وربما كانت الدعوة أول الأمر مركزة في المغربين الأقصى
والأوسط، أكثر من المغرب الأدنى مركز الإدارة العربية في الإقليم على ما
ستدل عليه الأحداث بعد ذلك.

وقد أقبل جمع من البربر على الفكر الخارجي، لما فيه من آراء وافقت
هواهم، وبخاصة المبدئين الأساسيين الموجودين في معظم فرق الخوارج إن
لم يكن فيها جميعاً، وهما اجتهاد فقهاء الخوارج في مسألة عدم اشتراط كون

ال خليفة من قریش، وإفتارهم بوجوب الخروج على السلطان الجائر وخلعه ولو عن طريق القتال.

وعلى هذا يكون اختيار بعض البربر للفكر الخارجى مناسباً لظروفهم ورغباتهم :

أ- لأن الخوارج ثاروا على الخلافة العربية فى المشرق، والبربر ضاقوا بمعاملة الولاة العرب، وودوا العثور على صيغة مناسبة للتعبير عن سخطهم ضد هذه السياسة العربية فى مواطنهم.

ب- ولأن أفكار الخوارج قريبة إلى نفوس البربر، وشعورهم بذاتيتهم، وبخاصة فكرة الخوارج عن الخلافة، وعدم اشتراط القرشية فى الخليفة لأنهم أرادوا أن يحكموا أنفسهم تحت ظل الدين الإسلامى.

ويلاحظ أن الجماعات البربرية شديدة الحماس انضوت تحت الأفكار الخارجية المتشددة أو اعتنقتها، فاختارت بعض بطون زناتة الفكر الصفرى، ذلك أن قبيلة زناتة كانت من القبائل البربرية شديدة التعلق بالاستقلال ظهر ذلك من تاريخها قبل الإسلام وبعده.

وبعد أن حققت هذه الجماعات الزناتية وغيرها - إلا قليلاً أملها فى الاستقلال، تخلى عدد منهم عن المذهب الصفرى المتطرف، وتركوا الفكر الخارجى، أو مالوا إلى الفكر الخارجى المعتدل المتمثل فى فرقة الإباضية، وذلك أواخر القرن الثانى الهجرى ولم يستمر المذهب الصفرى إلا فى المغرب الأقصى فى شماليه، وفى مدينة سجلماسة جنوبيه.

ويلاحظ على هذا العامل - أعنى انضمام البربر إلى أفكار الخوارج أنه كان متوزعاً على المغرب الثلاثة، وأن قبائل عدة مالت إلى هذا الاتجاه. ومن

هذه القبائل في المغرب الأدنى: لواتة ونفوسة. وزواغة، ومن قبائل المغرب الأوسط التي مالت إلى اتجاه الخوارج مغيرة ولماية، ومديونة، وبنو يفرن، ومن أهم قبائل المغرب الأقصى التي مالت إلى الاتجاه: مضغرة، ومكناسة، وبرغواطة، وغمارة، يضاف إلى هذا جميعاً عدد من القبائل التي كانت تتوزع بلاد المغرب جميعاً مثل زناتة وهوارة.

كما يلحظ أن هناك عدداً آخر من القبائل لم يشتهر عنها انضمامها إلى اتجاه الخوارج، مثل قبيلة كتامة وقبيلة أوربة، وقد مالا فيما بعد إلى وجه أخرى، فأما كتامة فمالت إلى الفكر الشيعي وعاضدت الفاطميين وأقامت لهم دولتهم هناك، في حين ساعدت أوربة الناصر العلوي في إقامة دولة الأدارسة.

الفصل الثاني

أهم الدويلات البربرية الصفورية
في المغرب الأقصى

الفصل الثاني

أهم الدويلات البربرية الصفيرية في المغرب الأقصى

أولاً: دويلة الخوارج الصفيرية في طنجة

تقدم عند الحديث عن دخول حركة الخوارج إلى المغرب، أن المغرب الأقصى دخل ضمن الجهات التي اختارت فكر الخوارج، وسيلة من وسائل التعبير عن عدم رضاهم، وعن ميلهم للاستقلال، وكانت قبيلة مضغرة إحدى القبائل التي عاشت بالمغرب الأقصى وانضوت تحت لواء فكر الخوارج للتعبير عن سخطها.

وتتدرج مضغرة تحت بنى فاتن من ضريسة، من البربر البتر، وإخوتها قبائل عدة هي لماية، وصدينة، وكومية، ومديونة، ومغيلة، ومطماطة، وملزوزة، ومكناسة، ودونة. وقد عرف عدد كبير منهم الفكر الخارجي وانضافوا إليه، مثل مضغرة ولماية ومطماطة ومكناسة ومغيلة.

وتعتبر مضغرة من أكبر هذه القبائل، وكان لها نشاط مضاد للفتح الإسلامي، ولهذا وصفهم ابن خلدون بقوله: "وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الإسلام، نشبوا في نشر الردة وضروبها، وكان لهم فيها مقامات"-(١)، وعندما تمكن الإسلام من قلوبهم، نراهم يهرعون - بعد هذه المقاومة العنيفة - إلى الجهاد في سبيل نشر الدين فعبروا المضيق إلى الأندلس فاتحين، واستقر بعضهم هنالك.

١- انظر العبر ج٦ ص ١١٠

وقبيلة كهذه "عرف عنها قبل تمكن الإسلام من قلوب أفرادها الانشقاق والفتن والاضطرابات، يمكن تصور تصرفاتها بعد تمكن الإسلام منها، فهي لم تخضع إلا للإسلام، فإن اختلفت مع حكام الإقليم، فلا نتصورها ترضى بالاحتكاك إلا للإسلام.

لقد شاركت هذه القبيلة في حركة المعارضة ضد ما رفضوه من تصرفات بعض ولاة الإقليم، وكان لزعيمها ميسرة المضغري دور بارز في هذه الحركة، إذ توجه هو ونفر من البربر إلى دمشق لمقابلة هشام بن عبد الملك خليفة المسلمين، ليعرضوا شكواهم عليه، تلك الشكوى التي أبرزها الطبري، مثلت أهم ما كان يعترض عليه البربر من مسائل اقتصادية واجتماعية، سبق أن أشرت إليها، ولكن أس المسألة كان اختلاف القاعدة التي يحتكم إليها الفريقان، والتي ظهرت في عبارة جاءت على لسان متحدث الوفد المشار إليه: "لم نجد هذا في كتاب ولا سنة، فنحن مسلمون"، وعبر الوفد عن غرضه من هذه الوفادة بقوله: "فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟" (٢)

ولم يجد ميسرة ملجأ بعد فشل شكواه هذه إلا الميل إلى فكر الخوارج، تأكيداً للمعارضة وتحويلاً لها من النظرية إلى العمل.

وصادف هذا استعمال عبيد الله بن الحبحاب لعمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، وواصل هذه المسيرة التي أمضت البربر حيث "كثر عيثهم بذلك في أموال البربر، وجورهم عليه" فكانت هذه هي شرارة

٢- الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٥٥ (طبعة الأستاذ محمد أبو

الفضل إبراهيم).

الثورة التي قادها ميسرة، حيث دفع البربر إلى قتل عمر بن عبد الله المرادي والي طنجة، واستولى البربر بذلك على المدينة.

وتحرك ميسرة معلناً انفصاله بهذا الجزء عن جسم الخلافة الأموية، وعين على طنجة عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، الذي يمتد أصله لبقايا البيزنطيين في الإقليم، وكان ولاؤه صار إلى العرب.

وكان ميسرة قد أقبل على خطوة سياسية لم يسبق إليها، فأعلن نفسه "خليفة"، وهي خطوة متنامية العظم، لا تتناسب بالمرّة مع حجم الثورة، وحجم ما أنجزه ميسرة في هذه الحركة. إن مبايعة ميسرة بالخلافة تعني أنه أراد تطوير الصراع والسير فيه لآخر طريقه، وإلى هذا يشير ابن خلدون بقوله: "وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة، داعياً إلى نخلته من الخارجية على مذهب الصفرية"^(٣).

وخطوة إعلان الخلافة هذه، تشير بوضوح إلى ميل البربر إلى حكم أنفسهم، وإلى خطوة أكثر طموحاً وهي إعلان خلافة بربرية في المغرب، وقد شاع البربر في هذه المنطقة ميسرة فبايعوه خليفة "وخاطبوه بأمر المؤمنين" ويبدو أن البربر قد اشرأبت نفوسهم لهذه الحركة، وأنهم مالوا إليها بدليل إشارة ابن خلدون إلى ذلك بقوله "وفشت مقالته في سائر القبائل بإفريقية"^(٤).

وعمل ميسرة على توسيع نطاق حركته فتقدم إلى السوس، فقتل عاملها من قبل والي الأموي، ليمتد سلطانه على منطقة واسعة بالمغرب الأقصى. ويصور ابن خلدون حالة المغرب الأقصى بقوله: "واضطرم المغرب ناراً،

٣- العبر ج ٦ ص ١١٠

٤- نفسه ج ٤ ص ١٨٩

وانتقض أمره على خلفاء المشرق، فلم يراجع طاعته بعد^(٥)، إيدانا بتمام الانفصال، وبإبتهاده عن مركز السلطة المركزية في الشرق منذ هذا التاريخ: سنة ١٢٢ هـ.

ويوجز ابن عبد الحكم هذه الأحداث الخطيرة المتشابكة بقوله: وانتقضت البربر على عبيد الله بن الحبحاب بطنجة، فقتلوا عامله عمر بن عبد الله المرادي، وكان الذي تولى ذلك ميسرة الفقير البربري ثم المذغري، وهو الذي قام بأمر البربر، وادعى الخلافة، وتسمى بها، وبويع عليها، ثم استعمل ميسرة على طنجة عبيد الأعلى بن جريح الإفريقي وكان أصله رومياً، وهو مولى لابن نصير، ثم سار إلى السوس وعليها إسماعيل بن عبيد الله فتنة، وذلك أول فتنة البربر بأرض إفريقية^(٦).

وهكذا نشأت أول دويلة بربرية ذات طابع استقلالي، في تاريخ المغرب، في طنجة وبلاد السوس، تعتمد على أفكار الخوارج الصفرية. وكان قد صانف إنشاء هذه الدويلة ظروف مواتية، فالبربر يشكون^(٧)، وكثير من جند المغرب مبعوثون في بعث إلى صقيلة، ولم يتمكن وإلى المغرب من الوقوف ضد هذه الحركة.

٥- العبر ج ٦ ص ١١٩

٦- فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٣

٧- ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٤١٦

وعلى الرغم من عودة الجند المبعوث إلى صقيلة، لأرض المغرب إلا أن نتيجة القتال كانت في غير مصلحة عبيد الله بن الحبحاب ذلك أنهم "اقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله"^(٨)، ثم تحاجز الفريقان، وعاد ميسرة إلى طنجة.

وهناك إشارة سريعة توضح تطوراً غير واضح التفاصيل، في الخط السياسي لهذه الجماعة الجديدة، فقد سخط البربر على "خليفته" وقتلوه "لسوء مسيرته". إن النضج السياسي لهذه الجماعة لم يزل في درجاته الأولى، ومن ثم يمكن تصور تقلبات وفتن كثيرة واندفاعات فجائية. وارثضى بربر هذه الدويلة الجديدة الناشئة أن يولوا عليهم خالد بن حبيب الزناتى.

ويلحظ في هذا الاختيار أنه لم ترد إشارة إلى اتخاذ القائد الجديد لقب الخلافة، فهي عودة إذاً إلى الحجم الطبيعي، ويلحظ أيضاً أن القائد الجديد لم يكن من قبيلة مضغرة، فهل هي خطوة أبعد إلى النضج السياسي ابتعاداً عن القبيلة، أم أنه ربما كان لزناتة بعض بطون شاركت هذا التجمع كان منها الزناتى هذا؟

أياً ما كان الأمر، فقد جمع الزناتى جموعه، وواجه بقية جند والى المغرب، وتمكن من الانتصار عليه انتصاراً واضحاً، بعد أن أوقع جند الخلافة في كمين قتل فيه "حماة العرب وفرسانهم، وكماتها وأبطالها"^(٩)، وكان القتلى "وجوه أهل إفريقية من قریش والانتصار وغيرهم" ومن أجل هذا سميت تلك المعركة "بغزوة الأشراف"^(١٠).

٨- نفسه

٩- ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٥٥

١٠- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٩٤.

وقد تجرأ مزيد من البربر على اتخاذ مثل هذه الخطوة، وكان موضعها هذه المرة، مكاناً أقصى، وأبعد، عن يد السلطة المركزية. في الشرق، في مكان يقع جنوبى المغرب الأقصى داخلًا فى الرمال، إنه سجلماسة.

وكان يقطن بهذا الموضع المجرى بوايدى مليوه من أعلاه إلى مصبه فى البحر شاملاً سجلماسة وتازا وتسول وأنحاءها، جماعة من البربر تنتهى إلى ورصطفا بن يحيى، تتكون من ثلاث قبائل كبيرة هى مكناسة وورتناجة ومكفة، وتنقسم كل منها إلى بطون كبيرة، ولكن هذه التجمعات غلبت عليها شهرة مكناسة.

وكانت رئاسة هذه الجماعات فى بيتين، هما بنو واسول بن مصلان بن أبى نزول، وبنو أبى العافية بن أبى نائل بن أبى الضحاك بن أبى نزول، وعنهما يقول ابن خلدون "ولكل واحد من هذين الفريقين فى الإسلام دولة وسلطان صاروا به فى عداد الملوك" (٢٠) "فأما بنو واسول فقد سيطروا على سجلماسة وأعمالها، وأما بنو أبى العافية فقد سيطروا على تازا، وتسول، وملوية، وملية.

وكانت هذه القبائل قد دخلت فىمن دخل من قبائل المغرب تحت لواء الخوارج، اتخذوه شعاراً لهم، وتجرأوا بعد حركة ميسرة على القيام بمثل ما قام به، وكانوا قد مالوا إلى الخوارج الصفرية، (٢١) وتحت شعارها تكون فى هذا الموضع من المغرب الأوسط دويلتان أولهما (دولة بنى واسول ملوك

٢٠- انظر العبر ج ٦ ص ١٣٠، ١٣١.

٢١- انظر العبر ج ٦ ص ١٢٩.

سجل ماسة وأعمالها) والثانية (دولة بنى أبى العافية، ماوك تسول) كما عنونهما ابن خلدون (٢٢). وفيما يلي كلمة عن دولة سجل ماسة الخارجية

١ - نشأة دولة بنى واسول فى سجل ماسة (٢٢)

لما هاج المغرب واضطرب البربر بعد أن مال كثير منهم للانضواء تحت اللواء الخارجى للتعبير عن رغبتهم فى الاستقلال، كانت مكناسة إحدى القبائل التى فشا فيها هذا الأمر.

وبدأت بربر مكناسة تكوين أول تجمع سياسى لهم لم يزد عدده عن أربعين تقضوا الطاعة وأعلنوا الانفصال، وظهر تكوينهم السياسى باختيار قائد لهم، واختيار قاعدة لملكهم، فاختار هؤلاء نفر أحد رؤساء الخوارج، من موالى العرب، وهو أمر جدير بالملاحظة، فهم فى استقلالهم هذا يختارون رجلاً من موالى العرب، لعلمهم بهذا يشيرون إلى أنهم فى هذا الأمر ليسوا بدعة، أو لأنهم لم يتمكنوا أول أمرهم من اختيار رئيس منهم، وكان هذا الرئيس الأول يسمى عيسى بن يزيد الأسود.

وكانت الخطوة الثانية هى اتخاذ قاعدة لهم، فاختاروا موضع سجل ماسة، فاخطوا بها قاعدة لهم، وسرعان ما اندفع بربر مكناسة الذين يعيشون بالقرب من هذا المكان للانضمام إلى هذا التجمع السياسى الجديد، وكان ذلك فى سنة ١٤٠هـ.

٢٢- انظر نفسه ص ١٣٠، ١٣٤.

٢٣- بعد العبر لابن خلدون عمدة المصادر التى تحدثت عن أخبار دولة بنى

واسول، وغيره ناقل عنه، انظر العبر ج ٦ ص ١٣٠-١٣٢

ومثلما حدث في دولة طنجة، عندما ثار بربر مضغرة على أميرهم الذي بايعوه، لأنه "سألت سيرته فنقم عليه البربر ماجاء به فقتلوه" ثار أيضاً بربر مكناسة على حاكم دويلتهم الجديد وأوصلوه إلى الموت وعن ذلك يقول ابن خلدون: "ثم سخطوا أميرهم عيسى، ونقموا عليه كثيراً من أحواله، فشدوه كثافاً، ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين، لكن فترة بقاء ميسرة في الدولة الصفرية في طنجة كانت أقل بكثير من فترة بقاء عيسى بن يزيد الأسود، ففي حين لم يكمل ميسرة عاماً، استمر عيسى حوالي خمس عشرة سنة، وهي مدة جديرة بالملاحظة.

واجتمع أمر بربر دولة بنى واسول على اختبار حاكم جديد منهم، وهو كبيرهم أبو القاسم سمكو بن واسول بن مصلان بن أبي نزول. ويبدو أن اختيارهم هنا كان يقوم على أساس العلم والمكانة في القوم، فهو كبير في قومه، وأبوه كان قد حصل على درجة من العلم كافية لأن تزيد من مكانته في قومه، فهو قد رحل إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ العلم على يد بعض التابعين، وكان مسموع الكلمة في مكناسة، يدل على ذلك أنه هو الذي نصح قومه باختيار الحاكم السابق لهم فسمعوا وأطاعوا.

ولا نعرف بالضبط متى تولى أبو القاسم، وما يشير إليه ابن خلدون، هو أن الناس اجتمعوا بعد موت عيسى بن يزيد (سنة ١٥٥) " واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم" دون أن يحدد سنة، ثم يذكر أنه توفي سنة ١٦٧هـ لمنتها عشر سنين من ولايته" فإما أن يكون يزيد قد توفي سنة ١٥٧هـ (وحدث بين سبع وخمس تحريف) وإما أن يكون هناك بين سنة ١٥٥ وسنة ١٥٧ تراخ أو اضطراب أو حاكم آخر لم يذكر اسمه.

ويلحظ في حكم هذا الحاكم تطوراً سياسياً مهماً، هو دعوة هذه الدولة للعباسيين، وخطب في عمله للمنصور والمهدي من بنى العباس^(٢٤) ووضح أنها طاعة شكلية، ففي هذا الزمن المتأخر لم يكن للدولة العباسية سيطرة ذات فاعلية على المغرب الأقصى عامة، وعلى سجلماسة منه خاصة، وهو يتتافى كذلك مع كون الرئيس خارجياً، ومع كون عامة الناس من الخوارج كذلك.

أما الحاكم الثالث فكان إلياس بن سمكو، أي ابن الحاكم السابق، ويبدو أنه كان معاوناً لأبيه من قبل، يظهر هذا من أن مكناسة كانت تدعوه بالوزير. ولكن خوارج مكناسة لم يصبروا طويلاً عليه، فانتقضوا عليه. أما سنة الانتقضة، ففي طبعة بولاق للعبير أنها سنة (أربع وتسعين)^(٢٥) ووضح تحريفها البالغ لأنه يتعارض مع مدة حكم أخيه بعده، ويتتافى مع انتقاضهم عليه، ويبدو أن إلياس لم يستمر طويلاً، وأنه أقيـل أو عزل قبل سنة ١٧١هـ، وهي السنة التي توفي فيها عبد الرحمن بن رستم، لأن إليسع عاصره، وأصبر إليه، كما سنرى، ويمكن تصور أن السنة هي (تسع وستين) مثلاً.

ومرة أخرى يختار بربر مكناسة حاكماً جديداً لهم، وهو اليسع بن أبي القاسم، (وهو أخو إلياس) وعهده جدير بوقفة، فقد استمر حكمه من سنة ١٦٩ (المقترحة) إلى سنة ٢٠٨هـ واتسم عهده بالعمران إذ أتم بناء سجلماسة وبنى سورها "لأربع وثلاثين سنة من ولايته"، وبدأت مظاهر الفخامة واختط بها المصانع والقصور^(٢٦) وهي من مظاهر أبهة، الملك ودليل على ظهور الترف.

٢٤- العبـر ج ٦ ص ١٣٠.

٢٥- ج ص ١٣٠.

٢٦- العبـر ج ٦ ص ٣٠-١٣١.

وكان لليسع ميول توسعية، فحاول مد سلطانه إلى ما يجاوره من بلاد، فأرسل سراياه إلى ما يحاوره، وامتد نفوذه حتى درعة، وكان له خمس ما خرج من معادنها" (٢٧).

وحرص اليسع على توسيع علاقات دويلته الخارجية الصفريّة بالإصهار إلى الدولة الرستمية الخارجية الإباضية في المغرب الأوسط، فزوج ابنه مدراراً بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم حاكم الدولة الرستمية الذي عاصر كلاً من أبي القاسم، وولديه الياس واليسع من حكام بني واسول في سجلماسة.

وكانت علامات الملك قد ظهرت على عهد اليسع، ووصلت دويلته إلى أوجهها، ويشير ابن خلدون إلى هذا بقوله "وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة" (٢٨).

وبعد وفاة اليسع سنة ٢٠٨هـ تولى ولده مدرار الحكم ولقب بالمنتصر، وامتد حكمه خمسة وأربعين عاماً إذ توفي سنة ٢٥٣هـ، لكن حكمه مع طول مدته لم يكن على درجة حكم أبيه من قبل، بل لم يخل من عدة مشاكل داخلية، إذ نازعه ولده ميمون (من زوجة غير أروى) في الحكم "وتتازع في الاستبداد على أبيه، ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين.. ولم يلبث أن خلع أباه واستبد بأمرة".

٢٧- نفسه ص ١٣١.

٢٨- نفسه ص ١٣٠.

ويلحظ أن هذا هو أول خلاف داخلي في الأسرة الحاكمة الواسولية
ملوك سجلماسة، وهو منعطف واضح في سيرتهم ولكن ميمونا هذا تسوء
سيرته فيخلعه أهل سجلماسة، وأعادوا أباه مدرارا إلى الحكم وتوجه ميمون
إلى درعة.

ولا تشير المادة التاريخية إلى أسباب النزاع بين الولد وأبيه، إلا أننا
يمكن أن نلمح ميل مدرار لابنه من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم
وتفضيله على ابنه هذا، وربما خشي ميمون (من أم أخرى) أن ينول الأمر
إلى إياضية المغرب الأوسط يظهر هذا من تهديد مدرار نفسه بأن يولى ميمونا
ابن الرستمية، مما يضطر الأهلين إلى خلع مدرار وإعادة ولده ميمون الآخر
من درعة وإرجاعه للحكم، وربما كان اللقب الذي عرف به دليلاً على أنه
الأولى بالحكم إذ يشير ابن خلدون إلى أنه عرف بالأمير وذلك قبيل وفاة والده
سنة ٢٥٣هـ (٢٩).

نهاية الدولة

ولم يبق من عمر هذه الدولة بعد مدرار إلا حوالي ٤٣ سنة، قضى منها ميمون من سنة ٢٥٣ إلى سنة وفاته في ٢٦٣، وولده محمد إلى أن توفي سنة ٢٧٠هـ ثم اليسع بن مدرار إلى أن قتل في صراعه مع طلائع الفاطميين سنة ٢٩٦هـ.

ويلاحظ أن أمراء هذه الفترة وبخاصة الأخير منهم كان على علاقة طيبة مع العباسيين، وكانوا يدينون بطاعة - صورية - للمعتضد العباسي، ولهذا قبض على عبيد الله، وولده أبي القاسم، وحبسه في سجنه طاعة للعباسيين، مما عرضه لسخط طلائع الفاطميين، وأدى هذا إلى قتله، وإلى سيطرة وقتية للفاطميين إذ ولوا من قبلهم والياً على سجلماسة رجلاً من قبيلة كتامة القائمة بأمر الفاطميين في المغرب يدعى إبراهيم بن غالب المراسي.

غير أن بني واسول لم يرضوا بهذا فتأروا بوالي الفاطميين وقتلوه ومن كان معه من كتامة، وذلك سنة ٢٩٨هـ، وبايعوا واسول حاكماً عليهم، غير أنه لم يعمر، ومات في نهاية القرن، فتولى أحمد أخوه، إلى أن تمكن الفاطميون سنة ٣٠٩هـ بقيادة مصالة بن حبوس من القبض عليه.

وحاول الفاطميون نشر مذهبهم الشرعي في سجلماسة وعينوا من بني
واسول واليا عليها من قبلهم، هو ابن عم الحاكم السابق واسمه المعتز بن
محمد بن ساور بن مدرار، قلم يابث أن استبد بها وهي محاولة واضحة
لإعادة سلطان بني واسول على سجلماسة، وقد أعاد الطاعة الصورية
للعباسيين ولما مات سنة ٣٢١هـ تولى من بعده ولده محمد، فاستمر عشر
سنوات ثم مات فتولى بعده ولده الطفل سمكو مدة شهرين، كانت الوصية عليه
خلالها جدته^(٣٠)، لكن تغلب عليه ولد عمه محمد بن الفتح بن ميمون.
واستولى على الحكم، ودعا بدعوة العباسيين.

ويلحظ أن محمد بن الفتح كان منطقياً مع نفسه فهو عندما يدخل في
طاعة العباسيين لا يستمر على خارجيته، بل يعود إلى مذاهب أهل السنة
رافضاً مذهب الخوارج، وهو منعطف أيضاً في سيرة هذه الدولة، التي
اتخذت مذاهب الخوارج لها مذهباً إذ كان معظم حكامها من الخوارج
الصفريّة، وهم إن غير بعض حكامهم مذهبهم فإلى مذهب الإباضية على قلة
ما حدث من ذلك، فمذهبهم خارجي على أية حال.

وقد تلقب محمد بن الفتح بالشافع بالله، واتخذ خطوة جديدة غير هذه
الخطوة المذهبية، إذ ضرب باسمه نقوداً أطلق عليها الشاكرية وإلى هذا يشير
ابن خلدون بقوله:

٣٠- انظر العبر ج ٦ ص ١٣١

"....بالدعوة إلى بنى العباس، وأخذ بمذاهب أهل السنة، ورفض
الخارجية، ولقب بالشافع بالله، واتخذ السكة باسمه ولقبه، وكانت تسمى
الدارهم الشافعية"، كما ينقل ابن خلدون عن ابن حزم قوله: "وكان غاية
العدل" (٣١)

واستمر حكم هذا الحاكم السنى إلى سنة ٣٤٧هـ وكان إعلانه عن سنين
ودعوته للعباسيين، سبباً كافياً لتصدى الدولة الفاطمية له، حيث زحف عليه
جوه الصقلى، بأمر المعز لدين الله الفاطمى، فغلبه على سجلماسة، واستولى
عليها وفر محمد الشافع بالله، ثم وقع فى أيدي الفاطميين بعد ذلك حيث اقتيد
إلى القيروان أسيراً.

واستمرت سجلماسة فى قبضة الفاطميين مدة، إلى أن ثار المغرب على
الشيعة، وبدأت زناتة تميل إلى أموى الأندلس، وهنا ينتهز بعض أبناء أسرة
بنى واسول الفرصة للثورة، حيث ثار أحد أبناء الشافع بالله، وحاول أن يدعو
للمنتصر بالله بالأندلس، ولكن أحد أخوته يقتله سنة ٣٥٢هـ ويعيد الطاعة
إلى الفاطميين.

وكان هذا إيذاناً بالنهاية، وكانت آخر خطواتها تمكن الأمويين بالاندلس من فرض سلطتهم على سجلماسة، فكانت نهاية دولة بني واسول من المغرب، في حين كانت بالنسبة للأمويين الأندلس "أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى" (٣٢).

وأهم ما يلحظ على هذه الدولة أنها قامت على أفكار الخوارج الصفرية، وأن حكامها دانوا بهذا المذهب إلا عدداً قليلاً منهم نص عليه المؤرخون، تحولوا إلى الإباضية، وإلا حاكماً من أواخر حكامهم وهو الشاكر بالله الذي "رفض الخارجية" و "أخذ بمذهب أهل السنة".

كما يلحظ عليها كذلك أنها حاولت أن تظهر - في بعض فتراتها رغم استقلاليتها - بمظهر عدم الانفصال، فدعت في بعض فتراتها للدولة العباسية، وهو أمر غريب فكيف تكون خارجية ثم تدعو إلى العباسيين، وهو أمر لم يحله إلا الشاكر بالله. كما يلحظ كذلك أنها حاولت أن تمتد من نفوذها حتى امتد إلى ذرعة في العمق الجنوبي مضيئة إليها مساحة واسعة جداً.

وعن علاقات سجلماسة التجارية يلحظ أن موقعها أعطاهما مركزاً اقتصادياً جيداً، فهي على طريق القوافل التجارية الداخلية والخارجية إلى بلاد السودان.

٣٢- انظر العبر (ج- ٦ ص ١٣٢)

فاما التجارة الداخلية، فهي على طريق موصلة إلى فاس، وإلى أغمات وإلى درعه، وإلى تلمسان، وهي بهذا متصلة بالمغرب الأوسط. واما التجارة الخارجية، فهي تقع على الطريق الموصلة إلى أودغشت، ثم إلى النيجر، وعلى طريق أدرار ثم إلى غانا^(٣٣).

وهي بهذا تقع على طرق أهم التجارات في هذه المنطقة، وبخاصة أودغشت و غانا، فهي من أوائل المدن المغربية التي تمر عليها تجارات السودان المختلفة، من ذهب، وأخشاب، وجلود، من عدة سلع استوائية يستفيد منها المغرب، ويتوجه جزء منها عبر الموانئ الشمالية إلى أوروبا^(٣٤).

وكان وقوع سجلماسة على الطرق التجارية المختلفة المتجهة إلى بلاد السودان الغربي، ثم اشتراك أهلها في هذه التجارات، سبيلاً طيباً لنشر الإسلام والحضارة الإسلامية في ربوع هذه البلدان الواقعة جنوب الصحراء، ذلك أنه من المعروف عن بعض التجار المغاربة قيامهم بدور ضخم في سبيل نشر الإسلام في البلاد الواقعة جنوب الصحراء عن طريق القدوة الحسنة، التي لمسها أهل هذه البلاد فيهم، فأحبوا أن يكونوا منهم، فسألوا عن عقيدتهم، وآمنوا بها.

٣٣- انظر: د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ج٦ ص ١٩٢-١٩٨.

٣٤- نفسه ص ٢٠٣.

الفصل الثالث

الدولة الرسّمية

الفصل الثالث

الدولة الرستمية

رأينا عند حديثنا عن الدويلات الخارجية الصفريّة البربرية قلّة المعلومات، وشحتها أحياناً، ولكن عندما نأتى إلى أخبار البربر الإباضية نجد انفرجاً ملحوظاً فى كم المعلومات الواردة.

كما يلحظ أمر آخر هو كثرة عدد البربر الإباضيين، ويقدر ابن خلدون عدد تجمع من التجمعات الخارجية بحوالى ثلاثمائة وخمسين ألفاً كلهم إباضية^(١).

وكان الإباضيون أيام أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة بالبصرة. قد بعثوا داعيتهم سلمة بن سعد إلى إفريقية والمغرب، أوائل القرن الثانى الهجرى، وقد حقق هذا الداعية نجاحاً فى جبل نفوسة، حيث استمال إليه الناس، فالتف عدد منهم حول أفكارهم.

ومالت نفوس البربر هناك إلى الاستقلال، وظهرت عدة إرهابات لتجمعات مذهبية سياسية إباضية فى إفريقية، عقب انتهاء الدولة الأموية، فتجمع الإباضيون فى طرابلس تحت قيادة رجلين هما الحارث وعبد الجبار، لكن الوقت لم يكن مناسباً، من حيث الزمان (لقوة الخلافة)، ومن حيث المكان (لاقتراب المغرب الأدنى من يد الخلافة)، فتمكن والى المغرب عبد الرحمن ابن حبيب من وأد هذا التجمع قبل أن يكتمل نموه.

١- العبر ج ٦ ص ١١٣.

ورأى إباحيو نفوسه ضرورة الترتيب وأخذ المزيد من العلم، فأرسلوا
بعثاً من أربعة نفر إلى البصرة سنة ١٣٥هـ، ليتلقوا المزيد من علوم المذهب،
وكان من هذا البعث عبد الرحمن بن رستم (الذي ستتول إليه أمور الإباحيين
في المغرب بعد فترة)، وهناك في البصرة اتصل هذا البعث بأبي الخطاب عبد
الأعلى بن السمع، الذي تأقت نفسه للدعوة في المغرب، فأرسله أبو عبيدة
مسلم بن أبي كريمة مع البعث العائد إلى المغرب. (٢)

ووصل أبو الخطاب والبعث إلى إفريقية سنة ١٤٠هـ، ليعيد ما كان
حاوله الحارث وعبد الجبار من قبل، وبويع بالامامة بعد سيطرة الإباحيين
البربر على طرابلس أوائل سنة ١٤٠هـ.

ومن أهم ما نلاحظ في هذه الفترة الصراع بين الإباحية والصفرية،
يمثل الصفرية جموع ورفجومة، ضد أنصار أبي الخطاب، وذلك بسبب كثرة
عدد الصفرية، وكثرة شكايه الناس منهم، وقد نتج عن هذا الصراع انتصار
الإباحية وضمهم القيروان إلى مناطق سيطرتهم (٣).

وقد تحقق لهذه المحاولة فرصاً من النجاح أكبر من سابقتها إذ استمرت
مدة أربع سنوات، وانتشر تأثيرها المذهبي والسياسي إلى عدة أجزاء من
إفريقية والمغرب الأوسط، وكان هذا النجاح أيضاً - عاملاً مهماً نبه الدولة
العباسية، على مدى خطورة هذا الاتجاه، فأرسل العباسيون محمد بن الأشعث

٢- يشير الشماخي الى قيادة أبي الخطاب بقوله: "فاستشار العامة أبا عبيدة في
شأنهم إن أنسوا من أنفسهم قوة، أيومرون عليهم واحداً منهم، قال: نعم، وأشار إلى أبي
الخطاط... كتاب السير ص ١٢٤.

٣- عين أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم والياً على إفريقية عقب هذا النجاح.

لولاية إفريقية بجيش ضخم، تمكن به من الانتصار على أبي الخطاب وقتله سنة ١٤٤هـ^(٤) ليقتض بذلك على محاولة مذهبية سياسية كادت تتجمع.

وقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن محاولة مواصلة العمل العسكري من، وإلى إفريقية، في هذا الوقت، وفي هذا المكان، أمر مكتوب عليه الفشل، فأنزى الركون إلى الهدوء، وإعادة التفكير في أمر التجمعات الإباضية، بعد أن فشلت محاولتان لإيجاد كيانات سياسية مذهبية لهم من قبل. وسيكون لعبد الرحمن بعد هذا أن يقوم بعمل أكثر إيجابية، وأكثر تخطيطاً.

نشأة الدولة الرستمية

نظر عبد الرحمن، فيما سبق للإباضيين البربر من محاولات، فوجد أن موقع محاولتي السابقتين ربما مثل أهم أسباب الفشل، فارتأى ضرورة الابتعاد عن يد الخلافة، بالوصول إلى المغرب، ورأى أن المغرب الأوسط سيعطى لحركتهم مزيداً من فرص النجاح، لابتعادها عن يد الخلافة، ولاتقاربها لحركات استقلالية أخرى سبقتهم في المغرب الأقصى، ولوجود عدد غير قليل من بربرها ممن انضموا إلى أفكار الإباضية.

ومن ثم نرى عبد الرحمن يلجأ إلى المغرب الأوسط لتجتمع حوله عدة طوائف من البربر الإباضية، منهم قبائل لماية، ولواتة، وورجالة ونفزاوة^(٥) وغيرها، وظلت هذه الأعداد في ازدياد، يصل بهم ابن خلدون إلى أكثر من ثلث مليون، أوائل النصف الثاني من القرن الثاني الهجري - كما مر.

٤- انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٧٢

٥- انظر ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١١٢

وبدا عبد الرحمن فى العمل - فى هدوء - لإيجاد التجمع المذهبى
السياسى للإباضيين، وكان عليه أن يبنى مجتمعاً بدأه ببناء مدينة لهم فى
المغرب الأوسط، هى مدينة تيهرت (تاهرت).

أما لماذا اختار تيهرت ودون غيرها؟ فهناك عدة أسباب لذلك أهمها أنها
قريبة من مواطن قبيلة لمايه التى أحبها وأحبته، ولتوفر الأمرين الهامين فى
اختيار أى مدينة أو قاعدة جديدة، وهما المزايا المعيشية والاستراتيجية، فتوفر
من الأولى المياه (من الينابيع ومن نهر ميه) والأرض الخصبة،
والجوالطيب، وتوفر من الناحية الاستراتيجية توسط المكان بين الأطلس
والصحراء، ووقوعه فى سفح جبل، مما بقى من فجأة الغارات.

وقد بدأ البناء سنة ١٤٤هـ، ورغم حرص عبد الرحمن بن رستم على
العمل بهدوء حتى لا يثير عليه والى العباسى، إلا أن مسيرة الأحداث زجت
بالإباضيين إلى الصراع، حيث اشتركوا فى حصار وقتل والى العباسى عمر
ابن حفص سنة ١٥٤هـ، واستمر النزاع والقتال بين والى العباسى الجديد
يزيد بن قبيصة بن المهلب، ووصلت المعارك بينه وبين الخوارج عامة
(صفرية وإباضية) إلى ثلثمائة وخمسة وسبعين حرباً^(٦)، ومع هذا نرى
حرص ابن رستم على المواءمة منذ حاول عدم إثارة الولاية العباسية^(٧).

ويختلف الدارسون حول تاريخ نشأة الدولة فمنهم من يرجعها إلى البداية
الدستورية أعنى اختيار والى إلا أن نشأة الدولة لا تكون إلا بتحقيق العناصر
الثلاثة جماعة ومكان وقائد، وهذا ما لم يتوفر إلا بعد مضى عدة سنوات من

٦- انظر ابن خلدون، العبر ج ٦ ص ١١٣.

٧- فوادع مهج بن حاتم بن قبيصة (نفسه).

المشروع في هذا التيار، أعنى إلى سنة ١٦٠هـ، ويرى بعض الدارسين (٨) أن تأخر إعلان الدولة إلى هذا التاريخ كان بقصد.

ويشير الدارسون إلى أسباب هذا الاختيار فهناك عدة مرشحات، منها غزارة علمه، وسابق طلبه له في البصرة، كما سبق أن أشرنا، وأن أبا الخطاب سبق أن عينه على إفريقية، وعينه من قبل قاضياً، ثم إنه لا يعتمد على عصبية قبلية قد ترتقى إلى درجة الاستبداد بالحكم دون مبدأ الشورى، إذ إن عبد الرحمن يرجع أصله إلى الفرس، والإباضيون يريدون إقامة إمارتهم، أو تجمعهم المذهبي السياسى هذا، لا على العصبية، القبلية ولكن على مذهبية تجمع القوم في إطار مبادئ معينة، على رأسها مبدأ الشورى.

وبهذا يكون النظام السياسى للدولة الإباضية في تيهرت (الدولة الرسمية) قائماً على أساس من الاختيار معتمداً على مبدأ الشورى، مع الاستعانة بجماعة الشورى، فيما يشبه البرلمان قوى التأثير، وقد حلا لبعض الدارسين أن يصف هذا النظام بأنه جمهورى ديمقراطى، وإن كنت لا أميل إلى مثل هذه الأوصاف، أو استعمال المصطلحات في غير أزمانها، أو سحب الأوصاف الحديثة على نظم سابقة.

نمو الدولة وازدهارها

عمرت الدولة الرسمية ما ينيف على قرن ونصف القرن من الزمن وتولاها خلال هذه المدة ستة أئمة ليكون متوسط حكم الإمام أكثر من ربع قرن، وهو متوسط عال، ربما يشير، من بين مؤشرات المختلفة، إلى استقرار نسبى على الرغم مما أحاط الدولة من مشكلات أهمها دولة الخلافة، والمشكلات القبلية التى لا تفتأ تطل برأسها خلال فترات التاريخ الإسلامى

٨- دبور: تاريخ المغرب الكبير ج٣.

المختلفة في المغرب، حتى في نظم الحكم التي أرادت أن تكون المذهبية أساساً تلتف حوله.

ويمكن تقسيم الدولة بعد نشأتها إلى فترتين: فترة ازدهار، وفترة ضعف وسقوط، وعندما كانت المذهبية سائدة، اختفت عوامل القبلية أو كادت، وازدهرت الدولة، ويمثل عهد الإمام عبد الوهاب، والإمام أفلح عهد ازدهار الدولة.

ومن أمثلة هذا الازدهار استقرار أوضاع الدولة الداخلية واتساع حدودها، فشملت قابس وسرت وقفصة وغداس وغيرها. كما نما النشاط الاقتصادي، والعمراني والثقافي.

علاقة الرستميين بجيرانهم

تعددت السمات المذهبية لجيران الدولة الرستمية، من خوارج صفرية، تمثلهم دولة بني مدرار بسجلماصة ودولة علوية سنية أقامها الأدارسة، ودولة سنية أخرى أقامها الأغالبة في المغرب الأدنى في حين كانت الدولتان الأخريان بالمغرب الأقصى، وفي أقصى المغرب عبر الزقاق (المضيق) عاشت الدولة الأموية الأندلسية، وفي أقصى الشرق كانت الدولة العباسية. وكانت العلاقات مختلفة بين الرستميين وجيرانهم حسب الاتجاه المذهبي أو حسب التطور والمصالح السياسية.

ففي حين أملى الاتجاه السياسي الخلاف بين الرستميين والعباسيين، أملى ذات الاتجاه علاقات ود وتعاون بين الرستميين والأمويين بالأندلس، على الرغم من سنية كل من الدولتين، ويمكن تصور أن العلاقة بين الأغالبة المالكية والرستميين الإباضية قائمة في الدرجة الأولى على المصالح

السياسية، على الرغم من أن المفترض فيها أن تقوم على أساس مذهبى
سياسى يفرض على الأغلبية دور العدو المتوثب الطامع فى القضاء على
الرستميين.

والأغلبية، وهم ممثلو الخلافة العباسية، ومنطقتها الحاجزة بين المغربين
الأقصى والأوسط، وسائر بلاد الخلافة إلى الشرق، لم يقوموا بدور الإنهاء
على حركات الخروج والاستقلال فيما يليهم من بلاد المغرب غرباً. وإنما كان
دورهم متقطعاً، أكثر منه مستمراً وإيجابياً، وحرصت الدولتان على عدم
الإفراط فى إظهار العداوة، ومال الأغلبية أحياناً إلى الدس والتآمر، وحرص
الرستميون على إظهار المودة حتى قبل ظهور دولة الأغلبية (٩).

أما علاقة الدولة الرستمية بالدولة الصفيرية فى سجلماسة، فكانت تقوم
على درجة قوية من المودة والاتفاق قدر الطاقة، حتى لا تقع تحت تهديد
أى من القوى المناوئة كقوة العباسيين، وقوة الأدارسة الذين مالوا إلى التخلص
فى المغرب الأقصى من كل نحلة مخالفة، كنحلة برغواطية، ومقاومة
الأدارسة للفكر الخارجى فى دولتهم (١٠). وقد توجت هذه المودة بزواج
سياسى إذ تزوج الأمير مدرار بن المنتصر من سجلماسة بابنة عبد الرحمن
ابن رستم: أروى.

وفيما يلي دراسة عن الأحوال السياسية للدولة الرستمية، جعلتها فى
عدة نقاط، عن:

٩- انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١١٣.

١٠- انظر فى مقاومة الأدارسة للخوارج فى دولتهم د. حسن على حسن: دولة
الأدارسة بالمغرب ص ٢٥١ (رسالة ماجستير).

- اختيار الحاكم، والخلافات الدستورية حول أسس الاختيار عبر تاريخ الدولة.

- الخلافات القبلية والمذهبية، وأثارها السياسية .

- التطور السياسى فى اتخاذ لقب الحاكم .

- أهم الوظائف فى الدولة.

١ - اختيار الحاكم

اعتمد الخوارج- فى عمومهم- على مبدأ الشورى طريقاً لاختيار الحاكم، وبخاصة فى أوائل عهود تجمعاتهم السياسية. ويسمى الحاكم عندهم إماماً. والإمامة عند الإباضية تنقسم أربعة أقسام: إمامة الظهور، والدفاع والشراء والكتمان. وإمامة الحكم هى النوع الأول منها (إمامة الظهور).

ولما أقام الإباضيون سنوات طويلة بلغت حوالى عشرين سنة، اجتمع رؤساء الإباضية فى تاهرت، واستقروا على ضرورة اختيار إمام لهم، يقيم أمورهم، ويرجعون إليه فى أحكامهم، وينصف المظلوم، ويقيم الصلاة، ويحصل الزكاة ويقسمها فى أصحابها.

وبدأ التفكير، أول الأمر، يأخذ صورة تحاول الابتعاد عن التفكير القبلى وإن وقعت فيه وقوعاً خفياً، فابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، يشير إلى أن رؤساء الإباضية فى تاهرت قلبوا أمرهم، فوجدوا فى كل قبيلة أكثر من رجل يدبر أمرها، ويمكن أن يلى الإمامة، ولكن الرؤساء رأوا الابتعاد عن أى منهم، خشية أمرين:

١- أن تفسد نية الرجل الآخر الذى لم تختره الجماعة.

٢- أن يقدم أهله، ويرفع شأن عشيرته على غيرهم.

ثم استقر امرهم على عبد الرحمن بن رستم، لأنه لا قبيلة له يشرف بها، ولا عشيرة له تحميه، وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضياً وناظراً^(١١)

فهذه هي مسوغات اختيار عبد الرحمن، ويلحظ أن كفايته، واختيار ابن الخطاب (عبد الأعلى بن السمح المعافري الإباضى)، له تأخراً عن مسوغ عدم وجود قبيلة له يتقوى بها، ويرفعها، وهى محاولة للبعد عن الفكر القبلى، وإن كان يلحظ فيها - مع هذا، وعلى النقيض - مدى وضوح الفكر القبلى فى التفكير السياسى لهذه الجماعة فى هذه الفترة المبكرة.

وقد بدا من مشاور الجماعة التى اختارت عبد الرحمن، مبدأ دستورى مام هو مبدأ الاختيار، ومبدأ آخر هو إمكان عزل الإمام إن لم يعدل، وذلك من قولهم: "فإن عدل، فذلك الذى أردتم، وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه"^(١٢).

وسار عبد الرحمن بن رستم أول حكام الدولة الإباضية فى تاهرت مسيرة العدل، وتابع الناحية الدستورية، وعاش حياة الزهد، وعمل على تطوير الدولة، وزيادة عمرانها ورخائها، وأكمل أشكال الحكم، بتعيينه - بالإشتراك مع

١١- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٩-٣٠، وبعد اختيار عبد الرحمن ابن رستم قال له الرؤساء: "رضيك الإمام فى ابتدائنا، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا" (نفسه ص ٣٠-٣١) ويلحظ أن أبا الخطاب لما استولى على القيروان طارداً منها الخوارج الصفرية اختار عبد الرحمن بن رستم عاملاً عليها سنة ١٤١هـ وتوجد وثائق نية تظهر هذا الاختيار، حيث ضرب عبد الرحمن فلوساً تحمل اسمه بالقيروان فى تلك الفترة.

١٢- المرجع السابق ص ٣٠، ويلحظ الأمر القبلى السلبي فى قولهم: "ولم تكن له قبيلة تمنعه، ولا عشيرة تدفع عنه"

المحكومين - رجال الدولة وعمالها، مثل القضاة، وأصحاب الشرطة، وأصحاب بيت المال، والمحتسبين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأكد الشكل الدستوري عند اختيار ثاني أئمة الإباضيين في تاهرت، بعد موت عبد الرحمن بن رستم، إذ تخير عبد الرحمن سبعة من رجال الدولة منهم ولده عبد الوهاب (١٣)، ليقوموا - بعد موته - باختيار أحدهم إماماً للإباضيين، وأما بقية السبعة فهم مسعود الأندلسي، وعمران بن مروان الأندلسي، وأبو الموفق سعدون بن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب ابن سدمان، ويزيد بن فندين.

واجتمعت مجموعة السبعة هذه بعد موت عبد الرحمن بن رستم، وطالت اجتماعاتها، ولم تصل إلى اختيار إلا بعد شهر، وقد أدت مسيرة التفاوض والنقاش إلى انحصار الأمر بين رجلين أولهما في الترتيب مسعود الأندلسي ثم يليه في المرتبة الثانية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ولكن الأمر لم ينته إلى هذه النتيجة، إذ زهد مسعود في الحكم، وتعصبت

١٣- وهذا يذكرنا باختيار مبدأ الاستخلاف المرتبط بالشورى، الذي مال إليه عمر ابن الخطاب (إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني)، وانتهى عمر إلى اختيار الرهط الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راض، وهم من المبشرين بالجنة، هم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، رضى الله عنهم، وأضاف إليهم عمر ولده عبد الله مرجحاً (لا مرشحاً) عند تعادل الأصوات، فإن لم يرضوا بجانبه فليرضوا بالجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف، وهو ما حدث بالفعل، حيث أخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الترشيح على أن يرضوا برأيه، فوافقوا (انظر قصة الشورى في ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ٤٥٩).

زناتة والعجم لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١١)، فاما زناتة فلان ام عبد الوهاب من قبيلة يفرن الزناتية، واما العجم فلأنهم يعمتون بأصولهم إلى الأصل البعيد لعبد الرحمن بن رستم أبي عبد الوهاب، فهذا عصبية قبلية، وتحزب جنسى، ظهرا واضحين فى اختيار ثانى أئمة دولة الإباضيين فى تاهرت، وأثرا فى هذا الاختيار (مع ما كان من زهد المرشح الأول مسعود الأندلسى عن الإمامة) (١٥).

٢ خلافت دستورية

ويبدو أن هذه النتيجة لم ترض بعض المرشحين، فقام يزيد بن فدين معارضا مرتين:

أ- فمرة، طالب ابن فدين بضرورة عدم انفراد الإمام عبد الوهاب بالحكم، وضرورة وجود مجلس شورى، لا يصدر عبد الوهاب إلا عن رأيه، (وفى هذا لون من تقييد صلاحيات الحاكم، ربما ابتعد عن فكرة الشورى إلى المشاركة فى الحكم).

١٤- أنظر البارونى: الأزهار الرياضية ص ٩٠، ٩١، وأنظر د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٤٦٤-٤٦٥.

١٥- يظهر هنا تطور فى الفكر السياسى الإباضية، فقد أشار أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة إمام إباضية الموصل، وذلك قبل تكون الدولة الرستمية، إلى أنه إذا وصل الإباضية فى المغرب إلى درجة من القوة فى العدد والعدة، ووجب تولية إمام لهم، فإن أبى قتلوه. وكان أبو عبيدة يشير فى هذا الصدد إلى رجل بعينه، هو أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح، وأنظر د. الحريرى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى ص ٧٧، هذا فى حين تسامح إباضية تاهرت مع مسعود الأندلسى لما زهد فى الحكم، رغم ميل معظم جماعة السبعة إليه.

وهنا يبرز اتجاه دستوري - في جدال دستوري عنانيم القيمة - إذ ينبغي مسعود الأندلسي، الذي كان أول المرشحين في الشورى، المشار إليها من قبل، قائلاً: " لا نعلم شرطاً في الإمامة غير أن يحكم بيننا بكتاب الله، وسنة نبيه عليه السلام، وأثار الصالحين قبله" (١٦)، وهنا تنهزم المعارضة، وتتم مبايعة عبد الوهاب.

ب- ولما أخفق ابن فندين في هذا الدفع الدستوري، لجأ إلى طعن دستوري آخر، حيث طعن في صحة اختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً للإباضية في تاهرت، لأن في جماعة الإباضية من هو أعلم منه، فهو هنا يعتمد على صفة العلم شرطاً من شروط الإمامة (١٧).

وقد أدى هذا الطعن الدستوري إلى انقسام صفوف الإباضية قسمين: نكارية، أنكروا إمامة عبد الوهاب، ووهابية - وهم الكثرة - مالوا إلى مبايعة عبد الوهاب، ثم تطور هذا الخلاف النظري الدستوري إلى صدام عسكري، التقت فيه سيوف الإباضية النكارية بالإباضية الوهابية، انتهى بانتصار الوهابية، وتأكيده إمامة عبد الوهاب (١٨).

وهكذا رأينا خلافاً دستوريين، تطور ثانيهما إلى قتال، وذلك قبل أن توثق بيعة عبد الوهاب إماماً للإباضية تاهرت بعد موت إمامهم الأول هناك:

١٦- يذكرنا هذا بما قاله عبد الرحمن بن عوف لكل من علي، ثم عثمان، في قصة الشورى لاختيار خليفة بعد: عمر: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله، وسنة رسوله، وسيرة الخلفيتين من بعده" (الكامل ج ٢ ص ٤٦٤) فذلك الذي تحراه مسعود الأندلسي مبدأ دستوري إسلامي سبق تقريره.

١٧- انظر د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب ج ٣ ص ٣١٨ وما بعدها.

١٨- انظر مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٩.

عبد الرحمن بن رستم. ويلحظ أن نطاق هذا الخلاف الدستوري اتسع حتى شمل إباضية المشرق في البصرة والكوفة، حيث أرسل الإباضية من هنالك، يشدون أزر عبد الوهاب، ويؤيدون بيعته، مما أكدبيعة إمام الدولة الرستمية الثاني (١٩).

وسار عبد الوهاب أول أمره حسب الشروط الدستورية التي دافع عنه بها عبد الوهاب بن مسعود، وهي أن يحكم بكتاب الله، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأثار الصالحين قبله، لكن الخلافات المذهبية، والتطور الاقتصادي، والنزاع العرقي والقبلي، أدت جميعها إلى تطور سياسي دستوري، يعبر عنه ابن الصغير بقوله: "فكان ملكاً ضخماً، وسلطاناً قاهراً" (٢٠) ويؤكد هذا التطور الدستوري بقوله: "ثم اشتد أمر عبد الوهاب، وقوى عليه، وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك" (٢١).

وهذا التطور يذكر بالتطور الدستوري الذي أصاب شكل الحكم في الدولة الإسلامية، حيث انقلب من الخلافة أيام الراشدين إلى شكل (الملك العضوض) أيام الأمويين بعدها.

الحاكم الثالث

بعد وفاة عبد الوهاب، لم يكن هنالك كثير خلاف حول تحديد شخصية الحاكم الثالث، إذ كان عبد الوهاب قدم ولده أفلح للأعمال في حياته، وربما ينهم من نص ابن الصغير "ورشح أفلح للإمارة" (٢٢) أنه بمثابة تعيينه ولياً

١٩- انظر الأزهار الرياضية ص ١١٢.

٢٠- أخبار الأئمة الرستميين ص ٤٣.

٢١- نفسه ص ٥١.

٢٢- نفسه ص ٥٥.

للعهد، ويتفق هذا الفهم مع ما سبق ذكره من تحول الصورة الدستورية للحكم في تاهرت من الإمامة إلى الملك، فلا عجب أن يعين عبد الوهاب ولده ولياً للعهد.

وقد أثبت أفلح بن عبد الوهاب كفاية عالية في حياة أبيه، وتجمع حول الناس يقضى لهم حوائجهم (٢٣) كما أثبت شجاعة فائقة في حرب هوار، حتى قال عبد الوهاب: "لقد استحق أفلح الإمامة" (٢٤)، وأثبت شجاعة فائقة في مقاومة منافسى أبيه من الإباضية النكار حين دافع عن تاهرت في غيبة أبيه دفاع الأبطال (٢٥)، كما كان يتمتع بصفة العلم، أشار إلى هذا الدرجيني، وإن كان يتمتع بهذه الصفة منذ صغره (٢٦)

والى وصول أفلح إلى الحكم يشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد بقوله: "كان من الطبيعي أن تؤول الخلافة إلى أفلح مؤهلاً لولاية إمامة تاهرت" (٢٧)

وبهذا يتقرر مبدأ دستوري جديد للإباضية، في شروط اختيار الحاكم وهو اشتراط العلم والشجاعة، وهكذا هذا فقهاء الإباضية حذو فقهاء أهل السنة في اشتراط هذين الشرطين (٢٨).

٢٣- نفسه ص ٥٥-٥٦.

٢٤- الدرجيني ص ٥٥

٢٥- نفسه ص ٥٤.

٢٦- نفسه ص ٧٧ قال: "كعد بين يديه أربع حلق يتكلمون عنده في فنون العلم قبل

أن يبلغ مبلغ الحكم"

٢٧- تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٣٧.

٢٨- نفسه ص ٣٣٨

وحرص أفلح على أن يتابع سياسة جده عبد الرحمن، في الحرص على مبدأ الشورى وفي حرصه على إشراك جماعة علماء الإباضية في الاختيار، وذلك مثل موافقته على اختيار محكم الهواري ساكن الأوراس قاضياً، رغم تخوفه من حدته، نزولاً لترشح جماعة العلماء له. (٢٩)

خلافات دستورية في عهد أفلح (٣٠)

١- ومع هذا لم ينج أفلح من وجود خلاف دستوري، قاده خلف بن السمح، وطعن في إمامة أفلح، لكن أسباب الطعن لم تحدد المصادرات الإباضية التي رجعت إليها، ولعلها قبلية إقليمية بنواحي طرابلس، وحاول أفلح معالجة الأمر باللين، وحاول أبو عبيدة إسماعيل عامله على طرابلس تحجيم الخلاف واللجوء إلى حل سلمي، وصل حتى إلى الاعتراف بالتأثير خلف بن السمح في حيزه الذي يسيطر عليه، اتقاء للقتال بين الإباضيين، واستخدم عبد الحميد سلاح الجدل قبل السيف والرمح، فتناظر الفريقان، واحتج خلف ببعد مواطن أفلح عن إقليمه في طرابلس، مما يعطيه - من وجهة نظره حق أن يوجد إمام ثان. لكن هذا الرأي انهزم بتذكير عبد الحميد لخلف، بتبعية السمح والده لوالد أفلح: الإمام عبد الوهاب، والمسافة في الحالتين واحدة.

ولما لم تتجح المناظرة في إقرار أمر، لم يكن بد من القتال، فكان النصر إلى جانب عبد الحميد عامل أفلح.

٢٩- ابن الصغير: نفسه

٣٠- انظر طبقات الدرجيني ومختصر تاريخ الإباضية، والأرمار الرياضية وانظر دراسة الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في تاريخ المغرب ج ٣ ص ٣٤٢-٣٥٢.

وقد أفرز هذا الخلاف - كما أفرز خلاف يزيد بن فنديل وعبد الوهاب من قبل - ظهور فرقة إباحية معارضة جديدة هي فرقة الخافرة، نسبة إلى خلف ابن السمع هذا.

ب - وشهد عهد أفلح خلافاً دستورياً آخر، تعانق فيه الخلاف السياسي والمذهبي معاً، فقد أخذ فرج بن نصر النفوسي - أحد تلامذة أفلح، ثم أحد علماء الإباضية المشهورين الذي زاد علمه برحلة قام بها إلى المشرق - أخذ على أفلح عدة أمور أهمها طول العمامة، واستطالته في الحية، وخروجه للصيد،^(٣١) وهي أمور فقهية، نعم، لكن هذا المسائل الفقهية لها تأثيرها في المجتمع الإباضي، بحيث ينسحب أثرها ليصل إلى الناحية السياسية الدستورية.

وقد اضطر علماء الإباضية المؤيدين لأفلح أن يردوا على هذه الاجتهادات الفقهية (ذات التأثيرات السياسية والإدارية)، بل شارك فيها أفلح نفسه. وكان فرج قد طمع ابتداءً أن يكون عاملاً على قنطرة، فلما اختار أفلح غيره ثار وغضب، على الرغم من كفاءة الوالي المعين.

ونتج عن هذا الخلاف المذهبي والسياسي، ظهور فرقة إباحية جديدة، أطلق عليها الإباضيون المنافسون اسم (النفائية)، لوصف علماء الإباضية هذا التأثير فرجاً بأنه كان حاسداً استخف به الشره وسوء الخلق وحب الرئاسة، وأنه أضمر في قلبه الغش والعداوة.^(٣٢)

صرخة دستورية في عهد أبي بكر بن أفلح:

٣١ - النظر الدرجيني ص ٧٩

٣٢ - النظر الحديث عن فرج وهذه الفرقة : د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ

المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٨ - ٣٥٣

مات أفلح، وبات معروفاً أن الإمامة (أو قل الملك) لن يفوت بيت آل رستم، ونظر الناس، فوجدوا أنه لم يبق من أولاد أفلح يصلح للإمامة - أو للملك - غير أبي بكر، وكان له أخ أصليح منه اسمه أبو اليقظان، لكنه كان خرج للحج، فحبسه العباسيون، فقال الناس، أو ولاية التعيين من نفوسة، إلى أبي بكر.

ومرة أخرى تظهر معارضته دستورية، لكنها لم تكن معارضة عامة، بل معارضة فردية، قام بها أحد علماء الإباضية، ويلحظ اختلاف هذه المحاولة أيضاً في انعدام رد فعلها، بعكس المعارضات الدستورية السابقة، التي ظهر لها رد فعل سياسى ومذهبى.

وقد أشار ابن الصغير إلى صرخة هذا العالم، واسمه عبد العزيز بن الأوز، وتمثلت صرخته فى قوله: "الله سائلكم معاشر نفوسة، إذا مات واحد، جعلتم مكانه آخر، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم، فتختاروا من هو أتقى وأرضى"، (٣٣) فعبد العزيز بن الأوز هنا ينعى على المسئولين عن اختيار الإمام أمرين :

١- أولهما عدم اتباع نظام الشورى.

٢- وثانيهما عدم الحرص على اختيار الأصلح (من هو أتقى وأرضى)

وقد علق ابن الصغير على هذا الاعتراض الدستورى ببيان انعدام ردود الفعل بقوله: "فلا يلتفتون إلى كلامه، ولا يشتغلون بمقالته"، فلم يأبه به الناس،

٣٣- قارن بذلك بالصرخة الدستورية التى أطلقت فى المشرق ضد الأمويين، فى مؤلف سياسى قريب من مشابهة: ما الخير أردتم، ولكنكم أردتموها هرقلية كلما مات هرقل جاء هرقل.

ولم يحرصوا على أن ينشغلوا بما قال، مما يدل على ابتعاد الشكل الدستوري للحكم عن (الإمامة) وعن وسيلتها (الشورى)، وعلى أن الناس ألفوا مسألة (التعيين) أو (الملك)، فلم يعد مستغرباً عندهم أن يلى ابن أفلح: أبو بكر، أو ابنه الآخر أبو اليقظان بعد أخيه، ثم يلى أبو حاتم بعد أبيه أبى اليقظان، ثم اليقظان بعد أخيه أبى حاتم .

ويهمنى هنا أن أبرز رأياً آخر لهذه القضية، يعرضه الدكتور الحريري، مشيراً إلى عدم اتباع الشورى بقوله:

"ويعتبر خروج الإباضية في الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام، أو الشورى، نوعاً من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون، حفاظاً على كيان الدولة من التفتت والانقسام، من جراء الفتن والقلقل التي كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التي تجرى عليها سائر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب، وهي احترام مبدأ الوراثة"^(٣٤).

وفي رأيي، أننا هنا لسنا بإزاء مناقشة "مبدأ الوراثة" ومدى احترام الخوارج له، إنما إزاء قضية أخرى مهمة للغاية، وهي مدى حرص الخوارج على تطبيق أحد أهم المبادئ التي خرجوا من أجل الدفاع عنها وهو مبدأ الشورى. إن التفسير السابق يعتمد - في رأيي - على إقرار الأمر الواقع، واعتباره (مبدأ) و(أساساً تشريعياً) و (نوعاً من حرية التشريع)، وفي رأيي أن هذا التصرف "تجوز"، وخروج عن القاعدة الإسلامية (الشورى) التي طبقتها الدولة بدقة تامة عند اختيار إمامها الأول، وبنجاح عند اختيار حاكمها الثاني، إن هذا الخروج أمر يجب أن يستغربه الدراس من الخوارج خاصة، لأنهم

٣٤ - مقدمات البناء السياسي للمغرب العربية: الدولة الرستمية، ص ١٤٢.

اغمدوا الثوري مبداً هاماً من مبادئهم، فهذا الأمر من إياضية تاهرت ليس
(حرية تشريع) بقدر ما هو خروج عن أصل دستوري من أهم الأصول
سياسية للخوارج، ولو أن (حرية التشريع) طبق على الخوارج إيمان نشأتهم،
لما كان هناك ضرورة لنشأة هذه الفرقة من بادئ الأمر.

لكن الجديد في اختيار أبي بكر بن أفلح - دستورياً - أن جماعات التعيين
من نفوسة لم يكن دورها بارزاً في هذا الاختيار، بل انبنى هذا الاختيار على
أكتاف العامة، ونحن نهتم بهذا الأمر، لقلة ما تورد المصادر من أخبار العامة
عامة، ومن دورها المؤثر في الأحداث خاصة، فيكون اختيار أبي بكر حدثاً
مميزاً، لقيامه على أكتاف عامة الناس وأصحاب الحرف.

وقد كان أبو حاتم أرسله أبوه أبو اليقظان في جند ليحموا قافلة كانت
قادمة إلى تاهرت، فلم يكن في المدينة ولا أخوه اليقظان وقت وفاة والده، يقول
ابن الصغير مفسراً اختيار أبي بكر:

وذلك أن أباه لما مات اجتمعت العوام والفرسان، دون القبائل، فنادوا لا
طاعة لأحد إلا لأبي حاتم^(٣٥).

ويقول من موضع آخر:

إنه لما مات أبو اليقظان، قامت العوام، وأهل الحرف، ومن لف لفهم
قتلوا ابنه أبا حاتم، بلا مشورة أحد من الناس، لا من القبائل ولا من غيرهم،
وكان أبو حاتم هذا فتى شاباً، وكان يجمع الفتيان إلى نفسه، فيطعم ويسقى^(٣٦)

٣٥- ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين ص ١٠٤

٣٦- نفسه ص ١٠٢-١٠٣.

وكانت العامة قد سبق لها القيام مع أبي حاتم بهذا الدور نفسه، فإنها لما لم تر أبا اليقظان لم يحضر صلاة أحد الأعياد، ظنوه ميتاً أو قريباً من الموت، فانتهزوا هذه الفرصة فحملوا أبا حاتم على سبيل الجد، (أو ربما على سبيل الهزل الذي يعتاده مثل هؤلاء العوام) وكان تعليق أبي اليقظان بن أفلح على هذا التصرف من ابنه أبي حاتم وأصحابه قوله: قد أصبح اليوم ابنك باغياً^(٣٧)، وربما دل ذلك على استهتار أبي حاتم، وميله لطيش الشباب.

وما إن تولى أبو حاتم بهذه الصورة، حتى قام بعض أهل تاهرت معارضين، فاتصلوا ببيعقوب عم أبي حاتم، ليولوه الحكم، فيستمر في الحكم أربع سنوات، استمر النزاع العسكري بين أبي حاتم وعمه خلالها، ثم آل الأمر إلى عقد هدنة غريبة، نصت على أن يعزل كل من الحاكم ومناقبه مدة أربعة أشهر، على أن يتول الأمر إلى الناس ليختاروا من يريدونه حاكماً (ولعل هذا يعيد جزئياً الذهن إلى الصراع الذي دار بين علي ومعاوية، وأدى إلى التحكيم، وأدى أيضاً إلى ظهور الخوارج أنفسهم).

إن قبول أبي حاتم لفكرة العزل في الواقع يعد اعترافاً منه بعدم دستورية اختياره، أكثر منها حقناً للدماء، وهو منعطف دستوري، فلو كان الإباضيون قد أخذوا على أبي حاتم ما يجرح في حاكميته لوجب عندهم عزله، واختيار غيره، حسب بعض مبادئهم، ولو لم يكن، لعد عمه يعقوب باغياً، فلم يقبل أبو حاتم الدنية؟ ولم يخلع سربالاً تسربل به دستورياً، إن كان تعيينه صحيحاً؟

ومع هذا، فقد تمخض عن هذا الخلاف عمليات انتخابية، ودعايات نجح فيها أبو حاتم في استقطاب الشباب خاصة، وأهل تاهرت عامة، وأعاد شباب

تاهرت ما قاموا به، قبل، مع أبي حاتم، فاختروه حاكماً، وارجعوه إلى المدينة، ولعل هذا هو الخلاف السياسى، والممارسات الشورية الأخيرة فى الدولة الرستمىة، قبل أن ينول أمرها إلى النهاية والزوال.

أثر الخلافات القبلية فى الناحية السياسية:

لم تكن النواحي الدستورية هى السبب الوحيد للخلافات داخل الدولة الإباضية فى تاهرت، بل ظهرت عدة أسباب للخلافات أثرت فى الناحية السياسية، مثل الخلافات القبلية والعصبية الجنسية، والخلافات المذهبية (أو أحياناً خليط بين بعض هذه العوامل أو بينها جميعاً)، بالإضافة إلى النمو الاقتصادى، وما أدى إليه من بطر، ورفاهية، أدت إلى أحداث عدة مشاكل.

أفاما الخلافات القبلية: فقد كان لها تأثير كبير على مجريات الأحداث، وقد أخذت هذه الخلافات بين القبائل وأهل الحضر، أو بين القبائل بعضها البعض، تظهر وتختفى، وإلى هذا يشير ابن الصغير بقوله: "إلا أن الضغائن بين القبائل وأهل الحواضر فى الصدور... وبين القبائل حروب تهيج ثم تسكن" (٣٨)

ومن أهم المؤثرات القبلية فى التكوين السياسى لإباضية تاهرت، مساعدة قبيلة زناتة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أول الأمر، مما ساعد على زيادة قوة عبد الوهاب، كما مر، لكن زناتة سحبت مساندتها له عندما بدأوا يدخلون تحت طاعة الأدارسة، فوقفوا ضد عبد الوهاب (٣٩)

٣٨- أخبار الأئمة الرستميين ص ٧٢

٣٩- انظر البارونى: الأزهار الرياضية ص ٩٠-٩٢

وقد يمتزج العامل القبلي مع الخلافات المذهبية، فتكون عامل خطورة، على بعض الأئمة الرستميين، مثل اتفاق سدارته، ومزاتة، على ما ظنوه خطأ لهم، فطالبوا بتغيير الإمام الرستمي عبد الوهاب لبعض عماله، وقد أحس مستشارو الإمام الرستمي بخطورة هذا الاتجاه، فعالجوا الموقف معالجة فقهية حيث لم يظهروا عدم استراحتهم للتدخل القبلي، بل ردوا عليه موضحين عدم إقالة القاضي أو العامل، إلا بجرحة (جرم أو خطأ) يرتكبه" (٤٠)

وبدأ أئمة الدولة الرستمية يشعرون بخطورة هذه الأمور القبلية، منذ الإمام الثاني (عبد الوهاب بن عبد الرحمن)، حيث حرص على عدم السماح بانتلاف قبلي يكون فيه خطورة على الدولة، فعندما علم بأن أحد مشايخ هواره سيتزوج من ابنة أحد مشايخ لواتة، أسرع هو بالزواج من هذه اللواتية، مما أغضب الهواري، وغضبت لغضبه قبيلته، فتركت تاهرت إلى مضارب تبعد عنها. (٤١) وترتب على هذا العمل نتيجتان: أولهما: كسب عبد الوهاب لود وقرابة لواته، في حين حرم منها - وهذا هو المكسب الثاني - هواره، فلم تنو بلواتة. (٤٢)

٤٠- ابن الصغير ص ٤٧-٥٠.

٤١- وقد سجل ابن الصغير اعتراض الهواري بقوله مشيراً إلى عبد الوهاب: لقد عمل على في جارية خطبتها، ورضي إلى بتزويجها، فانتزعها منى بسلطانه، لا سكت بارض هو بها" (تاريخ الأئمة الرستميين ص ٥٢)، ويجدر بنا هنا أن نذكر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن عدم جواز خطبة الرجل على خطبة أخيه: (لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه).

٤٢- وضع مستشارو عبد الوهاب له خطورة المصاهرة الهوارية اللواتية بقولهم: "فإن زوجه إياها وقعت المصاهرة، وإذا وقعت المصاهرة صارت نسبة، وإذا انضمت قبيلة إلى قبيلة ناوأك في البلد" (انظر في شأن هذا الزواج السياسي المرجع السابق نفسه ص ٥٣-٥٤ وأيضاً الأزهار الرياضية ص ١١٦، ١١٨، ١٢٥)

واستمرت هذه السياسة في الدولة الرستمية، وظهرت مرة أخرى في عهد أفلح بن عبد الوهاب، عندما تغيرت الأحوال الاجتماعية لسكان تاهرت، وكثر العمران وارتفع مستوى المعيشة، وظهرت الرفاهية، استوى في هذا اهل المدينة والقبائل، فحرص أفلح على ألا تتآمر عليه قبائل أو جماعات متحالفة فحرص بين الجماعات التي يخشى أن تتآمر عليه، فأرش ما بين كل قبيلة على عدم إغضاب أفلح وحرصها على كسب مودته، وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفاً من أن يعين صاحبيتها عليها". (٤٣)

أما أثر هذا على أفلح نفسه، فإنه كما يصور ابن الصغير "استلقى على ظهره آمناً، ومد يديه ورجليه مطمئناً"، ومن هنا يمكن أن نلمح انحرافاً سياسياً عن المذهب السياسي للخوارج، الذين أملوا، أو ظنوا أنهم بخروجهم هذا يتبنون سياسة مثالية.

لكن يجدر بنا أن نشير ونحن بصدد الحديث عن العامل القبلي أنه لم يكن في كل الأحوال عامل نزاع وصراع، بل كان أحياناً عامل تجميع، حيث تجمعت قبائل عدة، مكونة للمجتمع التاهرتي، قبل نشأة الدولة الإباضية أثناء خوف هذه الجماعات من الضغط العباسي عليها، في مواطن إقامتها الأولى في المغرب الأدنى، فاضطر بعضها للابتعاد غرباً إلى المغرب الأقصى بجوار إخوانهم وبنى عموماتهم (٤٤).

ويرتبط بالخلافات القبلية ذات التأثير السياسي قضية وجود خلافات عرقية أدت إلى إحداث عدة فتن، مثل العجم الذين استغلوا فرصة انشغال القبائل بفتنة مقتل ابن عرفة، ولما حمل رأس أحد العجم إلى المتقاتلين أوقفوا

٤٣- ابن الصغير ص ٦٣.

٤٤- انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٢٩١.

القتال، ومالوا إلى العجم فقتلوا منهم عدداً كبيراً، واستغل أحد موالى الأغلب واسمه خلف الخادم، الموقف، فأرث هذا الخلاف العرقي بأموال عظيمة كانت معه، دفعها لإحداث مزيد من الفتن داخل جسم الدولة الإباضية وكان هذا الصراع أول أمره ثنائياً بين العرب والعجم، ثم دخلت فيه نفوسة البربرية التي كانت محايدة من قبل، فوقفت إلى جانب العجم، لما أحرق العرب حارة كان معظمها للعجم، وفيها بعض بربر نفوسة. (٤٥)

الخلافاً المذهبية وتأثيراتها السياسية:

ومن أسباب الخلاف في الدولة الإباضية الرستمية بـتاهرت، الاختلافات المذهبية، وقد كان مجتمع تاهرت يعج بعدة اتجاهات مذهبية. فبالإضافة إلى غالبية المجتمع الإباضي، نجد جماعات أخرى من الخوارج الصفريّة، ومن الشيعة، ومن المعتزلة، ومن أهل السنة، بالإضافة إلى انقسام الإباضية أنفسهم إلى عدة جماعات مثل النكارية (٤٦) والوهابية والنفائية وغيرهم، كما مر، وكان لهذه الجماعات المذهبية تأثيرات سياسية وصل بعضها إلى حد الخطورة وقد أشار الباروني إلى خروج جماعة الشيعة والمعتزلة والصفريّة لأبي عبد الله الشيعي داعي الفاطميين تدله على عورة تاهرت، وتطلب إليه دخول المدينة والقضاء على إمام الإباضية فيها: أبي اليقظان. (٤٧)

٤٥- انظر ابن الصغير ص ٨٠-٨٢.

٤٦- وقد انقسمت بعض هذه الفرق انقسامات أخرى داخلية، فالنكارية اختلفوا بدورهم إلى عدة شعب، مثل النجوية، والشعبية، والنفائية (انظر في افتراق النكارية إلى هذه الجماعات أو إلى هذه التسميات الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب ج ٣ ص ٣٢١)

٤٧- ابن الصغير: المرجع السابق ص ١٢٥

ويرتبط بقضية الخلافات المذهبية وتأثيراتها السياسية، ما كان للعلماء والفقهاء من تأثيرات مهمة في المجتمع الإباضي الرستمي، فكان لهم تأثيراتهم في تثبيت الأمور العقدية والقضايا المذهبية، وكان الناس يتقنون فيهم، ويرسلون إليهم أموالهم، سواء منهم من كان داخل الدولة الإباضية، أم من كانوا من إباضية المشرق، أموالاً لهم إلى بعض علماء تاهرت لتوزيعها، ولم يرسلوها للإمام مباشرة، ومن جانب آخر سعى الأعيان والفقهاء إلى تكوين طبقة - على حد تعبير جولييان - (١٨) "كان من شأنها أن تملأ على الأمير إرادتها أحياناً".

أهم الوظائف في الدولة الرستمية

١ - الحاكم

أركز في حديثي عن الحاكم على تطور شكل الحكم، فقد بدأ أولاً بلقب (الإمام)، الذي أطلق على الحاكم الأول للدولة، واستمر هذا اللقب ينطبق لفظه مع معناه في بعض الفترات، وينفصل المعنى عن اللفظ أحياناً لتتحول الإمامة إلى شكل أقرب ما يكون إلى (الاختيار الوراثي) إن صح هذا التعبير.

لكن لقباً آخر يظهر في أهم المؤلفات التي كتبت عن هذه الدولة الرستمية، فإنه لما مات عبد الوهاب استخدم ابن الصغير لفظ (الخليفة)، وهو بخبر عن بداية حكم أفلح، فقال: "قلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لأفلاح" (١٩).

٤٨ - تاريخ إفريقيا الشمالية ص ٤٧

٤٩ - أخبار الأئمة الرستميين ص ٥٦.

وواضح أن مصطلح الخلافة لم يكن هو مصطلح الحكم، ولكن استخدام ابن الصغير له يستحق أن نقدم له تفسيراً، وفي تصوري يمكن أن يكون أحد هذين الرأيين:

١- أن يكون ابن الصغير متأثر باتجاهه المذهبي إذ كان سنياً مالكيًا، فمال - على الأرجح - إلى استخدام المصطلحات التي تشيع في الدول السنية عامة.

٢- أن يكون قصد المعنى اللغوي للخلافة، لا المعنى الاصطلاحي، أي أنه أراد نقل خبر أن أفلح (خلف) أباه في الحكم، أي أنه خلفه في الإمامة (وكان قبلها قد أشار إلى قول عبد الوهاب عن ولده: "لقد استحق أفلح الإمامة") (٥٠)

٢- القاضي

حرص الأئمة الرستميون على حسن اختيار القاضي، بل كان عبد الرحمن بن رستم يقوم بالقضاء بنفسه، "وجلس في مسجده للأرملة والضعيف" (٥١) ولم يسم ابن الصغير قاضي عبد الرحمن، في حين أشار إشارة عابرة إلى (قضائه) (٥٢) وركز على وظيفة القاضي عند عبد الوهاب (٥٣). ويبدو أن أفلح أبقى قضاء أبيه، إذ يحكى ابن الصغير أنه لما مات أحد قضاة أبيه، أتى بعض الإباضية إلى أفلح يطلبون تعيين قاض بدله، فطلب إليهم الاختيار، فاختاروا محكماً الهواري الساكن بجبل أوراس،

٥٠- نفسه ص ٥٥

٥١- نفسه ص ٣٢

٥٢- نفسه ص ٤٠

٥٣- نفسه ص ٥٧، ٥٠، ٤٨، ٤٧.

لخاصتهم وعامتهم ودينهم ودنياهم ، فحذرهم أفلح من حدثه ، ثم وافق عليه لما رأى إصرارهم ، فكان محكم حازماً حاسماً عادلاً (٥١).

أما قضاة أبي اليقظان ، فقد أشار ابن الصغير إلى أحدهم وهو محمد بن عبد الله ، وأثنى على حسن سيرته بقوله : " فلم يزل قاضيهم محمد بن عبد الله بحسن السيرة فيهم ويأمر بأمر أبي اليقظان وينهى إلى نهيه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، (٥٥) وقد عين عبد الله بن محمد بن عبد الله قاضياً في عهد أبي حاتم (٥٦) .

ومن الأمور المقررة عند الرستميين أنه " لا يجب عزل قاض ولا صاحب بيت مال ، إلا بجرحة تظهر عليه ، ولا يجب عزل القضاة ببغي البغاة رضى السعاة (٥٧) .

واتسم قضاةهم بالشجاعة ، فقد أشار ابن الصغير إلى خلاف حدث بين أبي اليقظان وقاضيه ، أدى بالقاضى إلى أن يخذو إليه مستقيلاً . قرمى إليه خاتمه وقطره ، فقال : ول على قضائك من تريد ، " وذلك بسبب أمور أخذها لا على أبي اليقظان بل على بنيه : وقال له : خليتهم عالية على الناس ، فراجعه أبو اليقظان فأبى الاستقالة ، فعين بدله القاضى شعيب بن مрман (٥٨)

٥٤- أخبار الأئمة الرستميين ص ٦١، ٥٩

٥٥- نفسه ص ٨٩ .

٥٦- نفسه ص ١١٦ وقد وصف عبد الله بأنه " ما هو دون أبيه في الورع والعلم "

٥٧- نفسه ص ٥٠

٥٨- نفسه ص ٩٠ .

٣- وثيقة الخطابة

هي إحدى الوثائق المهمة، التي حرص بعض أنصار الرستميين على أن يختاروا بأنفسهم من يتولاها^(٥٩)، وأشار ابن الصغير إلى أنه حضر من خطباء الإباضية في الدولة الرستمية عدداً أولهم ابن أبي ادريس، وأحمد الآبي، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور. (٦٠)

وكان نظام الخطبة في الدولة الإباضية الرستمية أن يخطب الخطيب، في الخطبة الأولى، بخطبة من خطب على بن أبي طالب، أما الخطبة الثانية فكانت تسمى خطبة التحكيم، لأنه يذكر فيها نص الخوارج الشهير: (لا حكم إلا لله). وكانت الخطبة الأولى تقليداً راسخاً، حتى إذا خرج عن هذا التقليد أحد خطباء الدولة (أحمد بن منصور) قام إليه ابن الصغير معاتباً، لأن خطبته ليست من حظب أسلافه، وسأله عن سبب التغيير، فاعتذر الخطيب وقال: "حملني عليها عثمان بن أحمد بن يحيى"، وهو أحد المقدمين عند الإباضيين "لا يكادون يخالفونه فيما استحسّن لهم"، وقد أورد ابن الصغير هذه الخطبة لغرابة هذا الموقف. أما الخطبة الثانية فيجىء فيها - "لا حكم إلا لله اتباعاً لكلام الله، وسنة نبيه عليه السلام، وخلافاً لأهل البدع".

- "لا حكم إلا لله، خلعاً ونبذاً وفراقاً لجميع أعداء الله"

- "لا حكم إلا لله، ولو كره الجبارون، الحاكمون بغير ما أنزل الله"

٥٩- نفسه ص ٨٨ ، وذلك مثل أبي اليقطين، الذي قدم للخطابة في عهده من

ارتضاء بنفسه

٦٠- نفسه ص ١٢٠-١٢١.

-وأشهد أن من لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الكافرون،
الظالمون، والفاسقون (٦١).
٤- صاحب الشرطة:

ظهرت هذه الوظيفة منذ أول أئمة الدولة عبد الرحمن بن رستم، وكان صاحبها يحصل على أجره سنوياً من مورد الخراج والجزية (٦٢) وكان من أهم واجبات صاحب الشرطة ومعاونيه الحفاظ على أمن البلاد، وتنفذ أحوالها. وقد نجح أصحاب الشرطة في تحقيق واجباتهم وأمنت الساحات في معظم الأحيان، لكن حدثت بعض استثناءات حيث وجدت بعض الأمور أمام صاحب شرطة تمنعه من تمام قيامه بواجبات وظيفته، وخاصة جانب التفقد منها، فكان صاحب شرطة أفلح إذا تخلل بالمدينة لافتقادها (كذا) لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة، ولا يتخلله، هيبة (٦٣) وذلك لأنه كان مقدم جماعة العجم فكان بمثابة مركز قوة يهابه العاملون بالدولة.

وقد عرفت تاهرت في عهد أبي حاتم تولى صاحبى شرطة معاً، إذ انقسم المشيرون على أبي حاتم فريقين، رشح كل قسم منهما رجلاً لوظيفة صاحب الشرطة، وهما زكار، وإبراهيم بن مسكين، فعينهما أبو حاتم صاحبى شرطة للمدينة، وكانت الأحوال الأمنية قد تأثرت بالاختلافات، وبطر كثرة الأموال، فظهر بعض ألوان الفساد، "قلما ولى هذان الرجلان الشرطة، قطعاً ذلك فى أسرع من طرفه العين، وحملوا على الناس بالضرب والسجن والقيد، وكسرت الخوابى بكل دار، عظم قدرها أو صغر، وشردت الغلمان وإخوانهم

٦١- انظر ابن الصغير ص ٨٩، ١٢١-١٢٦

٦٢- نفسه ص ٤٠

٦٣- نفسه ص ٦٢-٦٣.

إلى رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحمل الناس على الواضحة، وأخاف
النطف، وأمن البرى" (٦٤) ويعطى هذا النص بعض إشارات إلى واجبات
إضافية لصاحب الشرطة تعطيه صلاحية الضرب والسجن والقيء.

٥- صاحب الحرس:

ويرتبط بوظيفة الشرطة - من بعض جوانبها - وظيفة فرعية أخرى،
تقوم على حفظ أمن خاص، وهو أمن الأئمة، وهى وظيفة صاحب الحرس.
ظهرت فى عهد أبى اليقظان ولم ترد هذه الوظيفة من قبل، فهل كان التطور
الذى أصاب الدولة وكثرة الأموال، وكثرة المشاكل، مدعاة لظهور صاحب
الحرس، حماية للأئمة، وكبار رجال الدولة، ولم يكن لها داع قبل هذا حيث
فطرية الدولة، وضبط نظامها، وبساطة شكل الحكم، وبساطة العاملين
والقائمين عليها (٦٥)؟

وقد أشار ابن الصغير إلى صاحب حرس أبى اليقظان، واسمه
المحروق، فى معرض وساطة أحد الفقهاء الإباضية، ليطلق أبو اليقظان ولد
جارية من جيران هذا الفقيه، ويفهم من هذه الوساطة أن صاحب الحرس كان
من صلاحيته الحبس، قال: "إن جارية لى خرج ولدها البارحة فى طلب معاش
له ولها، فأخذه المحروق صاحب حرسك، وحبسه" (٦٦).

٦- المحتسب (٦٧)

٦٤- ابن الصغير ص ١١٦-١١٧.

٦٥- انظر مثلاً قيام عبد الرحمن بن رستم إمام الدولة الأول بأعمال ترميم منزله

بنفسه (نفسه ص ٣٣)

٦٦- نفسه ص ٩٥-٩٦.

٦٧- نفسه ص ٨٨، ٦٣، ٤٠.

عرفت المجتمعات الإسلامية نظام الاحتساب الذي يقوم أساسه على
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعصوم هذا الأمر وهذا النهي، وكان
الخوارج حريصين على هذه المهمة، فظهر الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر، منذ أوائل الدولة، وأساس عملهم إنكار المنكر في الأسواق،
والاحتساب على الفساد، وكانت قسلة نفوسه تلي تقديم هذه الوظيفة، وقد
أشبههم أبو الرقطان، وتعرف من ابن الصغور بعض واجبات أصحاب هذه
الوظيفة، ويظهر هذا من النقل التالي:

فإن راوا قصاباً ينفخ في شاة عاقبوه، وإن راوا دابة حمل عليها فوق
طاقها أنزلوا حملها، وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن راوا قذراً في
الطريق أمروا من حول الموضع أن يكتسه.....

سقوط الدولة الرستمية

على الرغم من أن الأساس الذي قامت عليه الدولة الرستمية كان أساس
الشورى واختيار الحاكم ، إلا أن التطور السياسى للدولة ، شهد انحرافاً
بدرجات متفاوتة عن هذه المبادئ .

ذلك أن خلافات قبلية بدأت تطل براسها بين الحين والحين، بسبب
عدم النضج السياسى من جهة، أو بسبب تدخل الدول المنافسة بالدس والإيقاع
بين القبائل لتتال من دولة الرستميين، وكانت هذه الاضطرابات القبلية قد
ظهرت مبكرة، إلا أن قوة الإمام كانت تقضى عليها أو تقلل من تأثيرها، وقد
أفلح فى ذلك الإمام أفلح، والإمام عبد الوهاب، من قبل، لكن تكرر هذه
الخلافات أمام أئمة أقل قوة، وأظهر ضعفاً كان له أثره على كيان الدولة،
عندما تحركت قبائل هواره ولواتة، وغيرها، أيام أبى بكر بن أفلح (٢٤٠-
٢٤١)، ثم خروج الطيب بن خلف فى الجناح الشرقى للدولة أيام أبى حاتم
(الذى تولى سنة ٢٨١-٢٩٤هـ)،

وأما الناحية الدستورية الرئيسية التى قامت الدولة عليها كذلك، وهى
مسألة الشورى، والاختيار الحر للحاكم ، فقد ظهر لها كذلك عدة مخالفات،

ووصلت بالدولة إلى حالة وراثية تقريباً ، من الناحية العمالية ، وقد شكوا بعض
النقهاء من ذلك ، كما رأينا من قبل ، في صرخة عبد العزيز بن الإوز .

ومما يؤكد هذه المخالفة ، اختيار أبي بكر بن أفلح للإمامة بعد أبيه
أفلح ، لا لشيء إلا لأنه لم يوجد من بين بنى أفلح وقتها داخل الدولة غيره ،
وربما كان هذا مؤشراً واضحاً لتقصير البربر الخوارج في الدولة الرستمية ،
في ذلك الوقت ، في تطبيق مبدأ من أهم مبادئهم .

يضاف إلى هذه المخالفات الدستورية ، ظهور الخلاف داخل الأسرة
الرستمية ، يظهر هذا الخلاف في القضاء على محمد بن عرفة ، زوج أخت
أبي بكر بن أفلح ، بسبب تزايد نفوذه داخل الدولة (٦٨) ، وكذلك في المؤامرة
التي دبرها أبناء أخى الإمام أبي حاتم ، حيث تطلعوا إلى الوثوب إلى الحكم
فقتلوه سنة ٢٩٤ هـ . (٦٩)

٦٨- سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ص ٣١ وذلك لأنه لما انشغل أبو بكر
باللهو عن القيام بواجبات الحكم ، قام محمد بن عرفة بكثير منها ، فزاد نفوذه ، وبعودة أبي
اليفظان أخى أبي بكر إلى تيهرت ، لم يجد بداً من قتل محمد بن عرفة ، فثار أنصاره
وطلبوا بالنار ، وانضم إلى أنصاره جند كانوا فروا من القيروان ولجئوا إلى تيهرت ، وربما
زاد تعصب هؤلاء الآخرين بسبب أن محمد بن عرفة أصله عربى من القيروان ، ويعتبر
هذا الصراع - من زاوية أخرى - كاشفاً عن تعصبات جنسية وقبلية مختلفة أطلت برأسها .

٦٩- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧

وبدا الوهن يضرب بعنف في جنبات الدولة، وتجرا الأغلبية فقاموا بعدة عمليات عسكرية ضد الدولة الرستمية حققوا فيها النصر، وهكذا آل الامر إلى الضعف بعد القوة، وهكذا لم يجد دعاة الشيعة القادمون إلى المغرب صعوبة تذكر في القضاء على الدولة الرستمية، ذلك ان أبا عبد الله الداعية الشيعي قدم إلى تيهرت بجموع كبيرة، سنة ٢٩٦هـ، حيث اقتحمها وقام جنده بنهبها، لتسقط بذلك دولة الرستميين الاباضيين في المغرب. (٧٠)

الفصل الرابع

الأدارة

الفصل الرابع الأدارة

ما زالت قضية من يستحق الخلافة، تشغل الساحة السياسية الإسلامية، منذ الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، بل ربما قبل ذلك بقليل أيضاً، وظل الطالبيون يحاولون الوصول إلى الأمر، أيام الدولة الأموية، ثم ظن بعضهم أن الدعوة التي قامت على شعار "الرضا من آل محمد" كانت تدعو لهم، في حين كانت هذه الدعوة لبني العباس، لا لبني أبي طالب، ولذا فإن ثورات الطالبين لم تنته بظهور دولة العباسيين، بل يمكن ملاحظة أنها زادت عدداً، وحدة.^(١)

وتكررت مرات خروج الطالبين أيام العباسيين، وتكررت مرات مقاومة الدولة العباسية لهم، ومن أهم مرات خروج العلويين، المرة التي خرج فيها الحسين بن علي بن الحسن (المثلث) بن الحسن (المثني) بن الحسن (السبط) بن علي بن أبي طالب، مع جماعة من أهل بيته (منهم إدريس، ويحيى، وسليمان، أبناء الحسن المثني). وقد قاموا بثورتهم في المدينة سنة ١٦٩هـ، وامتدت أحداثها إلى قريب من مكة بثلاثة أميال، في موضع يقال له فخ، وكان الطالبيون في

١- مثل ثورة زيد بن علي بن الحسن، في الكوفة سنة ١٢٢هـ، وثورة ابنه يحيى بخراسان، وثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة سنة ١٢٧هـ، وقد انتهى مصير هؤلاء الثوار إلى القتل. (انظر ابن الأثير الكامل ج٤ ص ٤٥٢-٤٥٦، ج٥ ص ٥، وانظر النويري نهاية الأرب في فنون الأدب ج٤ ص ٢٤٠-٤١٩).

المدينة قد تمكنوا من هزيمة عاملها من قبل العباسيين عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله، والى الهادي العباسي، ثم تمكن العباسيون من هزيمة الشوار في فخ، يوم التروية (٨ من ذي الحجة) مما أعطى فرصة للمهزومين أن يختلطوا بالحجيج، ثم فروا إلى جهات متعددة. (٢)

وقد كان ممن فر بعد هذه الموقعة عدد من العلويين، منهم إدريس بن عبد الله بن الحسن (المتى) وأخوه يحيى، فأما الثاني فقد اتجه ناحية الشرق، فوصل إلى بلاد الديلم، حيث واصل نشاطه المعارض، وقوى أمره، وامتد هنالك فترة (٣)، وأما إدريس فقد أخذ طريقه إلى مصر، ليواصل مسيرته بعد إلى المغرب، إلى أقصاه، حيث وصل إلى طنجة، يصحبه مولاة المخلص له، ثم لولده بعده، راشد، ثم يميل بعد ذلك إلى قبيلة أوربة في ويلي قاعدة جبل زرهون (٤)، ليكون بذلك في مكان قصى بعيد عن قبضة العباسيين، محتمياً بالقبائل البربرية المستعدة للمناوأة والخروج على العباسيين هنالك.

وفي المغرب الأقصى، صادف إدريس بن عبد الله جواً صالحاً للخروج على العباسيين، والثورة ضدهم فالمكان قصى، وبربره حانقون على السلطة المركزية في المشرق، وكانت قرابة إدريس في بيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وثورة إدريس على العباسيين من قبل في المشرق، أموراً رجحت جانب

٢- انظر السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٣٧

٣- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٣٦

٤- انظر ابن أبي زرع: الأئيس المطرب بروض القرطاس ص ١٩

إدريس، فأنضوى بعض بربر المنطقة تحت مظلة ثورته، بغرض تحقيق أملمهم فى أن يحكموا أنفسهم، أو يختاروا الحاكم الذى يريدونونه، لا الحاكم الذى يفرض عليهم، وهم بهذا يقيمون مع حاكمهم، ولا يحكمون بحاكم أو بسلطة تنفيذية، بعيدة عنهم لا يعاينونها، ولا يرضون عنها.

واستقر إدريس ومولاه راشد فى ولى بالمغرب الأقصى، وهى قاعدة جبل زرهون، وذلك فى غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ، فأقام فيها إلى شهر رمضان، وخلال هذه الفترة عرف الناس وصوله، وساعده إسحق بن محمد بن عبد الحيد، شيخ قبيلة أوربة، وبايعوه إماماً لهم، ثم بايعته قبيلة مغيلة، وقبيلة صدينة، ودة الت عليه بيعات زواغة، وزواوة، وسدراتة، وغياثة، ومكناسة، وغمارة، وسائر قبائل زناتة^(٥). وهكذا بدأ أمر إدريس، وقوى نفوذه، ونشأت دولته.

توسع الدولة

تمكن إدريس من تجميع عدة قوى بربرية وكون منها جيشاً كبيراً، بدأ به التوسع فى المغرب الأقصى، وشهدت أولى سنوات حكمه توسع دولته إلى بلاد تامسنا، وبلاد تادلا، وكان لغزوه نتائج إيجابية فى مجال الدعوة إلى الإسلام، فقد أسلم عدد ممن لم يكن على دين الإسلام فى هذه المناطق التى أخذها إدريس، وذلك من بيعته، أوائل رمضان سنة ١٧٢هـ، إلى رجوعه من هذه الغزوة إلى عاصمته ولىلى، أواخر أيام هذه السنة نفسها^(٦).

٥- المرجع السابق ص ٢٠

٦- انظر السلاوى: الاستقصا ج ١ ص ١٤١

ثم لم يسترح إدريس أكثر من شهر، الغزو والجهاد، في جهات فندلاوة، ومديونة، وبهلولة، وغياثة، وفازاز، في غزوة واحدة. (٧)

وفي النصف الثاني من سنة ١٧٣هـ، بدأ إدريس يتجه إلى ميدان جديد، يوسع به حدود دولته إلى المغرب الأوسط، واتجه إلى تلمسان، مدينة هذا الإقليم وقاعدته الرئيسة، حيث دخلها سلباً، إذ بايعه صاحبها صولات المغراوي، وقد ذكر ابن أبي زرع أن إدريس بنى مسجد تلمسان، وصنع له منبراً، نقش فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة" (٨)

ثم قام إدريس بن إدريس، بالمزيد من التوسعات، بعد وفاة أبيه، فجال في بلاد المصامدة وأخذ نفيس، وأغمات، وغيرهما، وكان له دور في مناهضة الخوارج الصفريّة (٩)، وهكذا صار نفوذ إدريس ممتداً في المغربين الأقصى والأوسط، من السوس الأقصى إلى وادي شلف.

وقد شهد أواخر عهد إدريس الأول، وأوائل عهد إدريس الثاني إنشاء عاصمة للدولة الجديدة، وهي مدينة فاس، بدأها إدريس، وأكملها ابنه إدريس

٧- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٢-١٣

٨- الأتيس المطرب بروض القرطاس ص ٢١، ويشير ابن خلدون في المرجع السابق ص ١٣ إلى استمرار وجود هذا النقش حتى عهده.

٩- انظر في توسعات إدريس الثاني: السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٥٣-١٥٤.

الثاني (١٠)، فما زالت قاعدة من أهم قواعد المغرب، ومفارة إسماعيل حضاري، منذ إنشائها في القرن الثاني الهجري.

وقد حاولت الدولة العباسية القضاء على هذه الدولة، فأخفقت، وأخفقت معها دولة الأغالبة، التي كانت بمثابة درع واقية العباسيين في هذه المنطقة.

وأما ما نجحت فيه هذه القوى المضادة لإدريس، فلم يزد على دس السم للحاكمين الأولين لهذه الدولة الجديدة، وهما إدريس بن عبد الله، سنة ١٧٩هـ، ثم ولده إدريس (الثاني) سنة ٢١٤هـ (١١).

وقامت، في جزء من المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط، دولة جديدة، هي دولة الأدراسة، مناهضة للدعوة العباسية، وقد وسمها بعض الدارسين بسمة شيعية (١٢)، ولكن أميل إلى أنها دولة علوية الأصل، سنية مالكية المذهب، لم

١٠- اختلف في بناء مدينة فاس: تاريخاً ومنشئاً، لكن الوجه أن إدريس الأول بدا في إنشائها أواخر عهده، وأكملها من بعده إدريس الثاني وصارت قاعدة ملك الأدراسة (راجع الآراء المختلفة في د. السيد عبد العزيز سالم تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٠١-٤١٨، وانظر حديثي عن دار ضرب فاس في عهد الأدراسة، في كتابي: النقود المغربية إلى قيام الدولة الفاطمية، تحت الطبع).

١١- ناقشت في كتابي (تحت الطبع): النقود المغربية إلى قيام الدولة الفاطمية، في الفصل الخاص بنقود الأدراسة تواريخ الوفاة هذه، من خلال الوثائق النمية، ومقارنتها بالنصوص التاريخية.

١٢- يربط الدكتور محمود إسماعيل قيام دولة الأدراسة بالمغرب، بالتشيع الزيدي، فكرة ودعوة وثورة، وأن هذه الدعوة اندمجت مع الفكر الاعتزالي بالمغرب، وانتهى إلى

ير من الأشعرية الشيعية فيها علامات حاسمة، تجعل الباحث يطمئن إلى تصنيفها تحت الدول الشيعية، وأما وسم حكامها باسم (الإمام) فهو لقب اشترك فيه حكام دول سنية، وشيعية، وخارجية، فهو لقب يشير إلى عموم الحاكمين، وأما ذكر اسم (على) في بعض نقودها، فذلك لغرض تذكير الناس، بأصل الإدارة، وانتمايتهم لآل البيت، وهو أمر مهم، فقد كان أحد أهم الأسباب المهمة لتجميع البربر حول لواء هذا التأثير، العلوي القادم من الشرق.

وقد مرت الدولة بعهدين، عهد القوة الذي شمل عهد الحاكمين الأولين وجزءاً من عهد الحاكم الثالث محمد بن إدريس (الثاني)، ثم آلت الدولة إلى عهد الضعف التدريجي في نهاية عهد هذا الحاكم الثالث، وربما كان من أهم أسباب ضعف هذه الدولة:

١- ميل قبيلة أوربة، في بعض فترات الدولة عن الإدارة، وميل رئيسها إسحق بن محمد بن عبد الحميد للأغلبية، مما اضطر دولة الإدارة إلى التخلص منه أواخر سنة ١٩٢هـ (١٣)، عقاباً، وتخويفاً.

خلاصة هي: "أن تأسيس دولة بني إدريس لم يكن حدثاً عفوياً، بل كان بتتويجاً لنضال الشيعة الزيدية في الشرق، ودعوتهم التي احتوت دعوة المعتزلة في المغرب وإذا كانت الإيدلوجية الزيدية - الاعتزالية قد اضطلعت بأمور الدعوة، فإن قبيلة أوربة شكلت العصبية التي اتخذت طموحاتها مع أهداف الدعوة في إقامة دولة الإدارة" (انظر الإدارة ص ٢١، ٤٧، ٤٩، ٦٤)، وواضح في هذا الرأي تحميله الأمر أكثر مما يستحقه، فدولة من حيث المنظور السياسي تجمع سياسي بربري، حول تأثير علوي، ومن حيث المنظور المذهبي دولة سنية مالكية.

١٣- انظر: البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ص ١٢٣.

٢- الميل إلى اللامركزية، حيث قسمت الدولة في عهد حاكمها الثالث، محمد بن إدريس بن إدريس، عدة أقسام - بمشورة جدته كنزة - حكم محمد منها قسماً ضم مدينه فاس وما حولها، وحكم أكبر ثمانية من إخوته، ثمانية الأقسام الأخرى، حسب التقسيم التالي:

أ- طنجة، وسبتة، وقلعة حجر النسر، وتطوان، وبلاد مسمودة، وما يليها من البلاد والقبائل، للقاسم.

ب- بلاد هواره، وتسول، ومكناسة، وجبال غياثة، وتازة، لداود.

ج- شالة، وسلا، وأزمور، وتامسنا، وما يليها من القبائل، لعيسى.

د- البصرة، وأصيلا، والعرائش، إلى بلاد ورغة، ليحيى.

هـ- تيكساس، وترغة، وبلاد صنهاجة، وغمارة، وما والاها، لعمر.

و- مكناسة، وتادلة، وبلاد فازاز، لأحمد.

ز- أغمات، وبلاد نفيس والمضامدة والسوس، لعبد الله.

ح- تلمسان وأعمالها، لحمزة. (١٤)

٣- الصراع الداخلي في الأسرة الإدريسية منذ عهد حاكمها الثالث: محمد ابن إدريس (الثاني) (١٥)

١٤- اخترت ماقدمه ابن أبي زرع في الأئيس المطرب بروض القرطاس ص ٥١

١٥- ومن أهم أحداث هذا الخلاف الداخلي، ذلك الخلاف الذي نشب بين محمد بن إدريس وأخيه عيسى صاحب شالة وتامسنا، وعندما أمر محمد أخاه القاسم بإنهاء خلاف هذا

٤- مجابهة الدولة لعدة قوى في المغرب والأندلس (١٦).

٥- الصراع بين عناصر سكان الدولة، البربر، والعرب، والأندلسيين (١٧).

٦- ثم كان قيام الدعوة الشيعية في المغرب، أحد أسباب القضاء على دولة الأدارسة العلويين، في نهايات القرن الثالث الهجري.

وقد حكم دولة الأدارسة عدد من الحكام، هم:

١- إدريس بن عبد الله ١٧٢هـ

٢- إدريس بن إدريس ١٧٩هـ

التائر عيسى، رفض القاسم، فأمر محمد بن إدريس أخاً آخر له وهو عمر، ليضرب كلاً من التائر والرافض معاً، فهزمهما عمر، وآلت أملاك الأخوين المهزومين إلى أخيهما المنتصر عمر، فصار ملكه يشمل شالة، وسلا، وأزمور، وتامسنا، وطنجة، وسبتة، وقلعة حجر النسر، وتطوان، وبلاد مصمودة، وهي منطقة واسعة جداً، أعطت لعمر نفوذاً سياسياً أوسع من إخوته الباقين، وقربه هذا إلى الإمام محمد بن إدريس.

وقد مات عمر في حياة أخيه محمد، وعمر هو والد الإمام السابع، وجد الإمام التاسع للأدارسة يحيى بن إدريس (٢٩٢-٣٠٧هـ)، والحموديون بالأندلس حفدة عمر أيضاً.

١٦- مثل الأغالبة الممثلين للعباسيين في المغرب، ومثل الخوارج الصفرية بالمغرب الأقصى، ومثل الدولة الأموية بالأندلس.

١٧- كانت وفود العرب قد أقبلت على إدريس الثاني من شتى بلاد المغرب والأندلس، منذ سنة ١٨٩هـ، منهم ٥٠٠ فارس من قيس والأزد، ومذحج، ويحصب، وصدف وغيرهم، فاعتزلهم إدريس الثاني، وزادت وفود العرب بعد ذلك، حتى ضاقت بهم وليلى، فوجههم إدريس إلى فاس. (انظر السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ١٤٨-١٤٩)

- ٣- محمد بن إدريس ٢١٤
- ٤- علي بن محمد ٢٢١
- ٥- يحيى بن محمد ٢٣٤
- ٦- يحيى بن يحيى ؟
- ٧- يحيى بن عمر بن إدريس ؟
- ٨- يحيى بن القاسم بن إدريس ؟
- ٩- يحيى بن إدريس بن عمر ٢٩٢هـ
- ١٠- الحسن بن محمد بن القاسم ٣٠٧هـ

ويلحظ أن هذا الترتيب خاص بحكام أدارسة فاس وما حولها، كما يلحظ غياب تواريخ تولى ثلاثة حكام، هم يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، وعلي بن عمر ابن إدريس، ويحيى بن القاسم بن إدريس، وكل ما تمدنا به المصادر، هو أن يحيى بن يحيى كان موجوداً حتى سنة ٢٤٥، جاء ذلك في معرض الحديث عن بناء مسجد القرويين. (١٨)

وغياب هذه التواريخ من مصادر مغربية لها قيمتها مثل كتاب ابن أبي زرع، وكتاب ابن خلدون، وكتاب ابن عذاري، يدل على غموض تاريخ هذه الدولة عامة، ويدل على نقص في مادتها التاريخية.

بنو سليمان بن عبد الله

١٨- النظر السلاوي: الاستقصا ج١ ص ٩٥.

شهد المغرب وجوداً علوياً آخر، عرفته منطقة تلمسان، حيث وجد فيه بنو سليمان، وسليمان أخ آخر لإدريس، وفد إلى المنطقة واستقر بنوه فيها، وتمكن بعضهم من إقامة عدة تجمعات سياسية، من أهم مدنها سوق إبراهيم، ومذكورة (١٩).

وهكذا خطا المغرب - من منظور التطور السياسى - خطوة مهمة فى سبيل تحقيق ذاته، والبعد عن السلطة المركزية فى المشرق، وتجميع عدة قوى قبلية ومجموعات بشرية فى تجمع سياسى واحد، حرص على الالتفاف حول الإدارة، ويظهر شدة هذا الحرص والتمسك، عندما نجحت القوى المناوئة فى التخلص من إدريس (الأول)، فقد زاد التفاف البربر حول راشد مولى إدريس، وحول جنيين زوجة إدريس المرتقب، وكفى للتدليل على صحة هذه المقولة، أن نشير إلى نقل ابن خلدون الذى يظهر منه أن البربر بايعوا إدريس الثانى أربع مرات جنيماً، ووليداً، وفصيلاً (مفطوماً) وصيباً بالغاً (٢٠).

١٩- انظر اليعقوبى: البلدان ص ٣٥٢، ٣٥٣، و د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٥٠٤.

٢٠- قال: " فبايعوه حملاً، ثم رضيعاً، ثم فصيلاً، إلى أن شب، واستتم، فبايعوه...." العبر ج ٤ ص ١٣.

الفصل الخامس

الأغلبية

الفصل الخامس

الأغالبة

تنسب دولة الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقيل بن خفاجة التميمي، تولى الزاب، ومن شهادة هرثمة بن أعين، بعد وصوله للرشيد مستعفياً من ولاية إفريقية، يفهم أن عهده شهد ارتفاع نجم إبراهيم، وكان لإبراهيم اليد العليا في هزيمة تمام بن تميم، الثائر ضد العكي وإلى إفريقية بعد هرثمة، فبلغ خبره الرشيد فعين إبراهيم بن الأغلب والياً على إفريقية بدلاً من العكي^(١)، وقد تكفل إبراهيم بترك ما كانت تأخذه إفريقية معونة من خزانة مصر (مائة ألف دينار) وزاد بأن وعد بتقديم أربعين ألف

١- انظر النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٤ ص ٩٩-١٠٢، وكان العكي قد تمكن من تزوير رسالة من الرشيد، بعزل إبراهيم بعد وصول رسالة التعيين إليه، فمال إبراهيم إلى الزاب، فلما عرف الرشيد الأمر، أرسل لإبراهيم سجلاً آخر بالتعيين والياً على إفريقية، فكانت ولايته هذه المرة من ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٨٤هـ.

دينار أيضاً إلى بيت مال العباسيين^(٢)، وبعد الرشيد أكد الأمين سنة ١٩٣
رضاه عن إبراهيم بتبنيته في ولاية إفريقية^(٣).

واتخذ إبراهيم من القيروان، أول أمره، قاعدة للإقليم، ومستقراً له، ثم
أخذ يعد العدة للانتقال إلى موضع قريب منها، سماه "العباسية"، جعله مستقراً
له، ولجنده، ولبعض المؤسسات الإفريقية^(٤).

وكان واضحاً أن الخلافة العباسية أرادت في شخص إبراهيم والياً قوياً،
يحكم أمور إفريقية، ويقف ذراعاً ضد حركات الاستقلال التي فشت في
المغربين الأقصى والأوسط. وأمضى إبراهيم من حكمه حوالي سنة، تمكن
بعدها من فرض سلطانه على إفريقية، مما اضطر الثائرين إلى الابتعاد
عنها^(٥).

ويصف النويري إبراهيم بن الأغلب بقوله: "وكان فقيهاً، عالماً، خطيباً، شاعراً، ذا رأي وبأس، وحزم، وعلم
بالحروب ومكائدها، جرىء الجنان، طويل اللسان، حسن السيرة"، كما ينقل

٢- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٩٦

٣- انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٩٤

٤- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٠٢ وابن أبي دينار المونس في
أخبار إفريقية وتونس ص ٤٩.

٥- أهم هؤلاء الثوار عمران بن مخلد، وكان أحد رجال إبراهيم، نقم بعض
الأمور، منها أمور شخصية، انظر ابن الأثير، الكامل ج ٥، ص ١١٣-٣١٤.

عن الرقيق قوله: "لم يل إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة، ولا أحسن سياسة، ولا أرفق برعيته، ولا أضبط الأمر، وكان كثير الطلب للعلم"^(٦).

وتوفي ابن الأغلب سنة ١٩٦هـ، بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة من ولايته الناجحة^(٧). وتولى أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب: سنة ١٩٦هـ وحكم خمس سنوات وشهراً ونصف شهر تقريباً.^(٨)

ومن منظور التطور السياسي للمنطقة، أركز على أن أبا العباس كان بطرابلس لما مات أبوه، قام أخوه زيادة الله بأخذ البيعة له، وأبلغه بها في مستقره بطرابلس^(٩)، هكذا دون انتظار سجل تعيين من خليفة، ودون أخذ رأى الخلافة العباسية، مما يدل على أن بنى الأغلب كانوا يحسون باستقلال لهم بالمنطقة منذ أيامهم الأولى، فلما مات أغلبي تولى أغلبي.

ثم آل الأمر إلى أبي محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في ذي الحجة سنة ٢٠١هـ^(١٠)، وجاءه سجل تعيينه من المأمون^(١١). واتخذ زيادة الله

٦- نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٠٥

٧- انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٩٥

٨- انظر النويري: المرجع السابق ج ٢٤ ص ١٠٥-١٠٧.

٩- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٩٧

١٠- انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٩٥.

١١- انظر ابن خلدون: المرجع السابق.

سياسة العنف والتشدد، لما رأى كثرة الخروج، لكن العنف يولد عنفاً، فخرج على زيادة الله أحد أهم ثوار هذه الفترة، وهو منصور بن نصر الطنبذي، وأثر الجند الذي أرسله زيادة الله إليه، ليقضى على الفتنة في مهداها، أن يفر منهزماً، خشية تهديد زيادة الله لهم إن انهزموا، فتفرق كل شخص منهم في جهة، "واضطربت إفريقية، فصارت ناراً تتقد" (١٢).

وكثر القتال، وطال الصراع، وتناوب الفريقان المتصارعان النصر، لكن جانب منصور كان أرجح، فقوى أمره، واستولى على معظم إفريقية، إلى أن تمكن بعض رجال زيادة الله من تجميع عدد كبير من زناتة وغيرهم، وبهم تمكن الأغلبية من استعادة الكثير من البلاد في حدود سنة ٢١٨هـ، ثم حدث خلاف داخلي في معسكر منصور بن نصر الطنبذي، بين الجند بعضهم البعض، من جهة، وبين منصور وأحد قادته (عامر بن نافع) من جهة أخرى، أدت إلى مقتل هذا الثائر طويل النفس، وأراد عامر بن نافع أن يواصل الثورة، لكن القوات حنقت عليه ما عمله بمنصور، فانتقضوا عليه - وخاصة المضرية منهم - فانهزم عامر، وانتقض الجمع، وانتهت بذلك هذه الثورة طويلة الأمد، "واستقامت إفريقية، وصفت، بعد أن دامت الفتنة ثلاث عشرة سنة" (١٣).

ومن أهم منجزات عهد زيادة الله، هو توجه نظره إلى صقلية، باعتبارها قاعدة هجوم خطيرة ضد إفريقية، فعمل على أخذها، ووجه إليها

١٢- النويري: المرجع السابق ص ١١١

١٣- انظر ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٤٨٤-٤٨٥

جندة ابتداء من سنة ٢١٢هـ، ونجح في أخذها، واستعمل عليها محمداً ابن
أخيه عبد الله. (١١)

ومن أهم ما يلحظ في عهده - من منظور التطور السياسي كذلك - أنفة
زيادة الله من أن يدعو لعبد الله بن طاهر، أي أن يكون تابعاً له، لا للحليفة
مباشرة. وقد رد على المأمون رداً عملياً، لا يخلو من تهديد، فقد أرسل له
نقوداً من سكة الأدارسة^(١٥)، فلهذا بهذا يشير إلى أنه يقف خط دفاع ضد تقدم
الأدارسة تجاه الشرق، أو يلوح بالاتجاه هذه الناحية، أو يلوح أن يكون مثل
الأدارسة، فيخلق الطاعة الصورية، وأياً ما كان الأمر فقد تراجع المأمون عن
هذا الأمر، واستمر الأغلبية على ما هم عليه.

وتولى أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب (وهو ثالث المتولين من
أبناء إبراهيم مؤسس الدولة)، بعد وفاة أخيه زيادة الله، منتصف رجب سنة
٢٢٣هـ، ومال عهده إلى السلم، وكف أيدي العمال عن الناس، وأجرى لعماله
أجوراً عالية، ليمنعهم من ظلم الناس، وتوفي أبو عقال في ربيع الآخر سنة
٢٢٦هـ (١٦).

-
- ١٤- انظر ابن أبي دينار: المونس ص ٤٩.
١٥- انظر ابن الأبار: الحلة السراء ج ١ ص ١٦٦ و د. سعد زغلول عبد الحميد
تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٥٤-٥٥
١٦- انظر ابن عذاري: البيان ج ١ ص ١٠٧

وتولى بعد الأغلب ولده أبو العباس محمد، وهو أول متول من أحفاد إبراهيم، وذلك أواخر ربيع الآخر، ويوصف بأنه كان من أجهل الناس، لكنه أعطى في إمارته ظفراً على من ناوأه^(١٧)

ومما يشار إليه في عهد الأغلب، أنه كان يميل إلى الانشغال باللهو، والاتهامك على الملاذ، وأنه ولى أموره أبا عبد الله وأبا حميد (ابنى على بن حميد)، فغضب لذلك أبو جعفر أحمد محمد بن الأغلب، وتآمر ضده، ودار قتال انتهى إلى مقتل أبى عبد الله، وتسليم محمد لأبى حميد، فارتفع قدر أبو جعفر أحمد، واشتد سلطانه، "وجعل الدواوين إلى نفسه، وصار الأمر كله له، ولم يبق لمحمد من الإمارة إلا مجرد الاسم"^(١٨).

لكن محمداً يتدارك الأمر، فيعمل بتدبير محكم لإزالة الحجر عنه، حتى يتمكن من القضاء على رجال أخيه الملازمين لقصره، وبقية أتباعه خارج القصر واستتصر قادة محمد بأهل القىروان فنصروهم، منادين بطاعة محمد، ثم نفى محمد أخاه أبا جعفر فمات فى العراق.^(١٩)

ومما يلحظ فى عهد محمد - غير الخلاف الداخلى فى الأسرة الأغلبية - احتكاك الأغالبة بالدولة الرستمية، إذ أمر محمد ببناء مدينة على حدود الدولة الرستمية، بالقرب من تاهرت، وسماها العباسية وذلك فى سنة ٢٣٩هـ،

١٧- النويرى: نهاية الأرب ج٤ ص ١١٨

١٨- المرجع السابق ص ١١٨-١١٩

١٩- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ١٠٨-١٠٩

ويظهر مدى التحرش ببناء المدينة فأعد هجوم بالقرب من عاصمة الدولة الرستمية نفسها، كما يظهر من اسم المدينة (العباسية) الغرض الرئيس من إقامتها، والتلويح بقوة الدولة العباسية ومناقضتها لانفصال الدولة الرستمية. وقد عمل الرستميون على التخلص من هذه المدينة، فحرقوها، وأرسلوا إلى أموي الأندلس بهذا الخبر، يتقوون بهم، كما تقوى الأغالبة بالعباسيين فسعد الأمويون بذلك، لأن هذا العمل سيبعد العباسيين، أو الأغالبة أنصارهم، عن السيطرة على المغرب الأوسط (٢٠).

وبموت محمد أوائل سنة ٢٤٢هـ، تولى ولده أحمد بن محمد الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، واتسم عهده بالهدوء عامة (٢١) فأعطاه هذا الهدوء فرصة للعمارة، ولمواصلة تحقيق بعض الانتصارات في ميدان صقلية (٢٢).

وتوفي أحمد بن محمد بن الأغلب حوالي منتصف ذي القعدة سنة ٢٤٩هـ (٢٣)، فتولى بعده أخوه زيادة الله بن محمد بن الأغلب، لكن عهده كان

٢٠- وإلى بناء محمد هذه المدينة يشير ابن الأثير بقوله:

"وابتلى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية في سنة تسع وثلاثين ومائتين، فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الإباضي وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك، فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم جزاء له على فعله" الكامل ج ٦ ص ٦٦

٢١- انظر ابن الأثير، المرجع السابق

٢٢- انظر جهاد أحمد في صقلية في ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١١٢-

١١٣.

٢٣- انظر ابن أبي دينار: المونس ص ٥١.

قصيراً، ومن إيجاز أخباره في المصادر، ثم من الصفات الحسنة التي وصف بها^(٢٤)، يمكن الاستدلال على أن عهده كان عهد أمن وسلام.

وتولى بعد زيادة الله (الثاني) ابن أخيه أبو الغرائيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، الذي شغف بالصيد والذي كثر مرضه أواخر عهده، حتى لقب بالميت، من كثرة الإرجاف بإشاعة موته، وعلى الرغم من وجود بعض المشاكل الداخلية، وتعدد الحروب، إلا أن أبا الغرائيق نجح في أخذ جزيرة مالطة، بجند قاده أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب^(٢٥).

ومن الأمور الجديرة بالإشارة في عهد أبي الغرائيق كذلك، حرصه على تولية ولده أبي العقال عهده، وبإيعاز له، واستحلف أبو الغرائيق أخاه إبراهيم بإيمان وثيقة مغلظة، ألا ينازع ولي العهد^(٢٦). وفي تولية العهد هذه إشارة إلى مدى استقلال الدولة الأغلبية من وجهة نظر التطور السياسي للمنطقة. ولكن ما إن مات أبو الغرائيق، حتى يظهر الرأي العام قوة غالبية، ويتدخل الناس في رفض ولاية ولي العهد، ويختارون إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٦١هـ، فتمت بيعته، وسار في الناس سيرة حسنة^(٢٧).

٢٤- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٢٥

٢٥- انظر المرجع السابق ص ١٢٦-١٢٧، وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠١.

٢٦- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٢٧

٢٧- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١١٦.

ومن أهم الأحداث التي ترصد في عهد إبراهيم بعض الأحداث الداخلية والخارجية، فمن الأحداث الداخلية بناء مدينة رقادة، وانتقال إبراهيم إليها سنة ٢٦٣هـ^(٢٨)، وثورة الموالي على إبراهيم سنة ٢٦٤هـ لقتله رجل منهم، ومرة أخرى يتدخل أهل القيروان، للدفاع عن إبراهيم ليتخلص إبراهيم من الثائرين، بعد ذلك يشتري بدلاً منهم عبيداً للحرب^(٢٩)

ومن الأحداث الداخلية كذلك بناء إبراهيم لقصور ومساكن بتونس، وانتقاله إليها، مقراً للأغلبة، سنة ٢٨١هـ^(٣٠) ومن الأحداث الداخلية كذلك عصيان بعض القبائل، مثل قبيلة وزداجة، وهوارة، ولواتة، على فترات منفصلة، كما ثار أهل تونس، والجزيرة، وصطفورة، وباجة، وقمودة والأربس، ولم يبق بيد إبراهيم من إفريقية في حدود سنة ٢٧٨هـ إلا الساحل الشرقي، ولكن إبراهيم تمكن من القضاء على هذه الثورات، واستعاد سلطانه على الإقليم.

ومن أهم الأمور الداخلية قتل إبراهيم لعدد من رجاله من قبيلة بلزمة، فقوى بذلك أمر قبيلة كتامة-وكان تعاني من سيطرة بلزمة عليها- فساعدت

٢٨- انظر ابن أبي دينار: المونس ص ٥٢

٢٩- انظر التويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٢٨-١٢٩.

٣٠- انظر ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٢٠٣.

أبا عبد الله الشيعي على إقامة دولة الفاطميين، فكانت فعل إبراهيم هذا أحد الأسباب المبكرة التي ساعدت على سقوط دولة الأغالبة^(٣١)

ومن أهم الأحداث الخارجية، تصدى دولة الأغالبة الحملة المصرية، التي اندفع للقيام بها العباس بن أحمد بن طولون، مستغلاً فرصة خروج أبيه للشام، فأخذ أموال بيت المال، واقترض من التجار مبلغاً ضخماً بضمان صاحب الخراج، وخرج إلى إفريقية، وحقق بعض الانتصارات، لكن إبراهيم، تمكن أخيراً من إلحاق الهزيمة به، فنكص العباس تجاه مصر، حيث قبض عليه أبوه. (٣٢)

لكن أهل جبل نفوسة (الإباضية) يعترضونه، فيعطلونه بحرب، قتل فيها من الفريقين عدد كبير، فتوجه إبراهيم إلى طرابلس، حيث تخلص من عاملها محمد ابن زيادة الله (الثاني)، وواصل سيره تجاه الشرق لكن جيشه يتسرب منه، فعاد إلى تونس. (٣٣)

٣١- انظر النويري: نهاية الأرب ج٤ ص ٢٤٢-١٣٣

٣٢- انظر المرجع السابق ص ١٢٩-١٣٠ وكذلك ج٨ ص ١٤-١٦

٣٣- انظر ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٢٠٣، وابن عذاري البيان المغرب ج١

ص ١٢٩-١٣٠.

ومن الأحداث الخارجية كذلك، توجيه الأغلبية جيشاً إلى صقلية في جمادى الآخرة سنة ٢٨٤هـ لمواصلة تثبيت أقدامهم هناك، وتحقيق مزيد من الفتوحات. (٣٤)

ومن الأحداث الخارجية المهمة، ظهور حركة الدعوة الشيعية، الممهدة لتكوين الدولة الفاطمية بعد ذلك، في المغرب، في عهد إبراهيم. (٣٥)

أما نهاية إبراهيم، فشيء جديد بالنسبة للعلاقات العباسية الأغلبية، ذلك أن عدداً من أهل تونس الحائقين على إبراهيم، توجهوا إلى الخليفة العباسي المعتضد.

فوجه إليهم رسولاً، قدم إلى تونس سنة ٢٨٩هـ، يلومه على ما فعله، فأثر إبراهيم الاعتزال لولده أبي العباس، وشغل نفسه بالجهاد في صقلية خارجاً من سوسة إليها حوالي منتصف ربيع الآخر سنة ٢٨٩، ليموت هنالك بعد تحقيقه عدة انتصارات مهمة، وذلك حوالي منتصف ذي القعدة سنة ٢٨٩هـ. (٣٦)

ويلحظ في هذا الأمر، مدى قوة الرأي العام، الذي سبق أن ساند إبراهيم في القيروان، ثم ها هو ذا يساعد على اعتزاله. كما يلحظ أن الوجود العباسي

٣٤- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٣٤.

٣٥- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١٢٤.

٣٦- انظر النويري: نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٣٥-١٣٨.

قد ظهر في المنطقة، فبعد أن كان ظهر ضعفه أيام أبي الفرائق محمد الذي
ولى ولده عهده، دليلاً على استقلال الأغلبية، يعود النفوذ العباسي في عهد
إبراهيم، فيستجيب للضغط العباسي، ويؤثر الاعتزال لولده، كما رأينا.

وتولى أبو العباس عبد الله بن إبراهيم في حياة أبيه، سنة ٢٨٩هـ،
ولكن لم تطل أيامه إلى أكثر من تسعة أشهر ونصف، فقد اغتاله بعض خدم
أبيه، وهو نائم، وقطعوا رأسه، وأخرجوها لولده زيادة الله وهو في حبس
أبيه. (٣٧)

وبدأ أبو مضر زيادة الله بن عبد الله (ثالث من تسمى من الأغلبية
باسم زيادة الله ، وآخر حكام الدولة) عهده بالدماء، فقتل الخدم الذين قتلوا
أباه، وتخلص من عدد من إخوته وبنى عمه (٣٨)، ثم قتل عمه وأهم قادته
الملقب بالأحول (٣٩)، فقد بذلك ركناً ركيناً، وقائداً ماهراً، فتأثرت بذلك حركة
مقاومة الدولة لحركة الشيعة، التي يقودها أبو عبد الله الشيعي، داعية
الفاطميين.

٣٧- ذكر النويري في المصدر السابق (ص ١٤٥) أنهم ثلاثة، وجعلهم ابن
الخطيب اثنين، انظر أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٣٨.

٣٨- أوصلهم النويري إلى تسعة وعشرين رجلاً، ولعل في هذا بعض مبالغة
(المرجع السابق)

٣٩- لم يكن أحول، وإنما لقب بهذا اللقب لأنه إذا أطال النظر ربما كسر جفنه،
انظر ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١١٤-١١٥، ٤٤٤.

ومن أهم الأمور التي واجهت عهد زيادة الله (الثالث) زيادة قوة أبي عبد الله الشيعي، وظهور خور آخر حكام الأغلبية وضعفه، وتخاذله، ففر من تونس إلى رقادة، وبدأت الهزائم تتوالى على الأغلبية، فاعد العدة لهربه، وجمع الأموال والذخائر، ليهرب من إفريقية، تجاه مصر. (٤٠)

ويلحظ هنا أن موقف العامة لم يكن مدافعا عن الأغلبية، إذ نهبوا قصورهم، ولم يساعدوا إبراهيم بن أبي الأغلب، الذي أمل أن يجتمع إليه الناس بعد فرار زيادة الله، ليدفع الحركة الشيعية. (٤١)

كما يلحظ أن موقف الخلافة العباسية كان موقفاً سلبياً مع زيادة الله، أول الأمر باكتفائها بإرسال خطاب يحث أهل إفريقية على مساعدة زيادة الله في مقاومته للحركة الشيعية، وكان موقفهم سلبياً أيضاً مع زيادة الله عندما فر تجاه العراق على أمل أن يعينوه بقوة، فلم يسمحوا له أن يصل إلى مركز الخلافة، مما اضطر زيادة إلى العودة إلى مصر، ثم انتهى أمره بالتوجه إلى بيت المقدس ليموت هناك. (٤٢)

وكان هروب زيادة الله، ثم دخول أبي عبد الله الشيعي رقادة سنة ٢٩٦هـ بمثابة إعلان لنهاية دولة الأغلبية، ونهاية أية سلطة حقيقية للخلافة الإسلامية السنية، في المشرق، على المغرب حيث تمكن الفاطميون من بسط سلطانهم على بلاد المغرب.

٤٠- انظر النويري : نهاية الأرب ج٤ ص ٢٤٦-١٤٨

٤١- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج١ ص ١٤٨

٤٢- انظر ابن خلدون: العبر ج٤ ص ٢٠٥-٢٠٦

وكان الأغالبة قد بدءوا سنة ١٨٤ هـ ولاية للعباسيين، وعلى الرغم من قيامهم بخدمة أهداف الدول العباسية أول أمرهم بصورة مرضية، إلا أن اختيار عبد الله ابن إبراهيم سنة ١٩٦ بعد وفاة أبيه، كان بمثابة إعلان عملي للاستقلال إذ جاء اختيار بنى الأغلب للحاكم أولاً، ثم تلاه سجل تعيين الخلافة العباسية، كما يلحظ مدى الاستقلال أيضاً في خطوة إضافية خطاها أبو الغرائق بتولية ولده ولياً لعهد، وأخذ البيعة له، وأخذ ضمانات أسرته أيضاً.

ومع هذا فلم يخل تاريخ دولة الأغالبة من قيامهم بدور معين للعباسيين، ووقوفهم ضد الحركات الخارجية وضد الإدارة، كما قاموا بدور سياسى مهم فى الحوض الجنوبى الغربى للبحر المتوسط، حيث بسطت نفوذها على جانب منه، بافتتاح صقلية، الذى بدأ منذ سنة ٢١٢ هـ، وتمثل جزيرة صقلية حصن أمان للمغرب، وبوقوعها فى يد المسلمين، تحرم الحملات المضادة الأوربية من قاعدة هجوم، أو محطة تجميع للقوى من قبل البيزنطيين، أو من قبل أوربا المتوثبة.

الباب الثالث

الدول البربرية الكبرى

الفصل الأول

الفاطميون وبنو زيري

الفصل الأول

الدولة الفاطمية بالمغرب وبنو زيري

الدولة الفاطمية دولة شيعية، نشأت أول أمرها بالمغرب، ثم انطلقت تجاه قلب العالم الإسلامي، مصر والشام، على أمل مد سلطانها إلى أقصى مدى. وقبل أن نتكلم عن نشأتها وأحوالها في المغرب، نقدم بمقدمة موجزة عن الشيعة.

والشيعة هي الفرق التي ناصرت علياً وبعض أبنائه، من بعده ؛ ويرجع بعض الدراسين نشأتها إلى بداية دولة الرشدين، والصحيح أن نشأة هذا الاتجاه من الناحية الاصطلاحية لا يمكن تصور قيامها قبل الصراع الذي دار بين علي بعد خلافته، ومعاوية رضى الله عنهما وقد تأصل هذا الاتجاه، واشتد، بعد مقتل الحسين رضى الله عنه.

وصار للاتجاه الشيعي أصول مذهبية: فقهية: وسياسية خاصة به، ويتميز مذهب الشيعة السياسي بأنهم يعتبرون أن الإمامة ركن الدين، وأنها واجبة، ومن ثم لا دخل للعامة فيها، والمدار فيها على التعيين لا على الشورى، ويتصورون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عين علياً وصياً وإماماً، وأن علياً بدوره - عين الإمام من بعده، وهكذا، فالإمامة إذن حق لعلى وأبنائه من بعده، ومعظم فرق الشيعة ترى أن الإمام معصوم، كما تعتقد معظمها بوجود "المهدي" الذي يعودته ستمتلى الدنيا - في زعمهم - عدلاً، بعد أن ملئت جوراً.

من أهم فرق الشيعة:

١ - الزيدية : وهى فرقة أقرب ما تكون إلى الفكر السننى وهم لا ينكرون خلافة الشيخين، ولا يقولون بالمهدية، ولا يحلون زواج المتعة، وإن كانوا يرون أن الخلافة لا تكون إلا فى على وبنيه من فاطمة، وهم مع هذا لا يقولون بعصمته.

٢ - الكيسانية، وأهم ما يميزها، إطلاقهم الإمام فى أبناء على عامة (من فاطمة أو من غيرها)، وإمامهم بعد الحسن والحسين هو محمد بن الحنفية، كما يرون عصمة الإمام.

٣ - الرافضة، وكانوا أتباعاً لزيد بن على (الزيدية) ثم تخلوا عنه، ومالوا إلى جعفر بن محمد بن الحنفية، فسماهم زيد بالرافضة.

٤ - الإمامية (اثنا عشرية وإسماعيلية) وهاتان الفرقتان الأخيرتان تعتبران أن علياً هو وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمامهم الأول، يتلوه من أبنائه إمامان هما الحسن والحسين، والإمام الرابع هو على زين العابدين، والخامس ابنه الباقر، والسادس جعفر الصادق، وبعده تتفرع الإمامية لفرقتين: الإثنا عشرية والإسماعيلية، ويهمنما التركيز على الفرقة الثانية، ذلك انهم اعتبروا أن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع، ثم يظل الأئمة مستورين من بعده إلى ظهور الإمام عبيد الله المهدي صاحب الدعوة للدولة الفاطمية.(١)

١ - وقد اختص الاثنا عشرية باسم الامامية ، فالإمام السابع عندهم هو موسى الكاظم ، والثامن ابنه على الرضا ، ثم ابنه محمد التقي، ثم ابنه على الهادى (أو الجواد) ثم ابنه الحسن العسكرى ، ثم مات الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ وترك حملاً محمداً ابنه

نشأة الدولة:

لقد ركز دعاة الفاطميين على الأطراف : اليمن والمغرب ويهمننا هنا أمر المغرب، فقد أرسل كل من الحلواني وأبو سفيان إلى المغرب، فنزلا بأرض كتامة "فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف" وقاما بالتجهيزات الأولية للدعوة والإعداد النفسي للمرحلة التي تليها، وكانت الأوامر الصادرة إليهما واضحة لهما : إن المغرب أرض بور، فاذهبوا، فاحرثوا، حتى يجيء صاحب البذر" (٢)

وبعد موتهما، صدرت الأوامر إلى داع جديد، كان له الفضل الأكبر في قيام الدولة، هو أبو عبد الله الشيعي، إذ صدر له الأمر التالي : "إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر، فإنها موطأ لك".

وتحيل أبو عبد الله في الدخول إلى هذه البلاد، ولم يتوجه إليها مباشرة، بل أثر الالتقاء في مكة المكرمة بحجاج من كتامة، وحدثهم بما لم يعلموه، وأظهر لهم العبادة والزهد، والجاهم إلى أن طلبوا إليه أن يصحبهم إلى بلادهم، بدل الإقامة في مصر كما أظهر لهم.

وأخبر أبو عبد الله الشيعي كتامة أن للمهدي هجرة تنبؤ عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل هذا الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان " ومازال الصراع في المغرب دائراً بين أنصار الدعوة والغالبية بين انتصار

فاعتقل " ويقال دخل مع أمه في السرداب بدار أبيه " فلقبه أنصاره بالمهدي وظلوا ينتظرون خروجه (انظر ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٩-٣٠)

٢- انظر المرجع السابق

وهزيمة إلى أن تولى أبو مضر زيادة الله الأغلبى إفريقية، فبعان أبو عبد الله الشيعى^(٣) أن المهدي يخرج في هذه الأيام، ويملك الأرض، فيا طلبى لمن هاجر إلى وأطاعنى " وأرسل للمهدي في العراق بهذا، وعلم العباسيون أيام المكتفى بهذا الأمر فطلبوه، فهرب هو ولده أبو القاسم نزار مع خاصته يريدون المغرب عن طريق مصر، وتمكن من الوصول إلى المغرب بعد جهد، ووصل إلى سجلماسة وصاحبها وقتذاك اليسع بن مدرار، وتقرّب إليه، إلا أن ابن مدرار حبسه لما جاءه الأمر من زيادة الله الأغلبى، فلم يزل محبوساً حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعى " .

وكان دخول رجال الفاطميين إلى رقادة يوم السبت مستهل رجب سنة ٢٩٦ بمثابة إعلان عن بدء الدولة، وإن لم يأخذ الشكل الرسمى الكامل، وبإخراج المهدي من محبسه - كما أشرنا - ملك المهدي مناطق واسعة هي ملك الأغالبة، وبنى رستم، وبنى مدرار، وذكر اسم المهدي في الخطبة يوم الجمعة في العشر الاخير من ربيع الاخر سنة ٢٩٧هـ.

وقد ساعدت الظروف السياسية التي مربها المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت على ظهور هذه الدولة، فقد كان المشرق الإسلامى فى حالة من الاضطراب والخلفاء العباسيون فى حالة من الضعف من الوقوع تحت سيطرة الأتراك، وكان خطر القرامطة قد ظهر فى العراق والشام، واستعادت القوى البيزنطية نشاطها وأضرت بالثغور الإسلامية، وحققت عدة مكاسب لها فى

٣ - ويصفه المقرئى فى اتعاظ الحلفا ج ١ ص ٩٧ بقوله : " من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، أحد رجالات العلم القائمين بنقض الدول ، وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال " .

ميادين اخرى، ولم يكن المغرب والأندلس في حالة أفضل من حالة المشرق، إذ كان يمر بحالة من الضعف واضحة.

وأياماً ما كان الامر، فقد ظهرت هذه الدولة وأعلنت نظامها السياسي نظاماً خلافاً، فاتحة بذلك باب التعدد في اتخاذ لقب الخليفة، وكان من قبلهم حكراً على العباسيين المسيطرين على معظم العالم الإسلامي، والذين يشملون برعايتهم وحمايتهم الحرمين الشريفين.

وبدأت الدولة الفاطمية في المغرب نشاطاً واسعاً للدعوة الشيعية واتخذوا في ذلك أساليب قاسية للغاية، وإن كانت قد اضطرت لإيقاف هذا النشاط أو للتقليل منه - مؤقتاً - بسبب نشوب بعض الاعتراضات والفتن، ثم تعود الدعوة بعد ذلك ربما أشد وأقوى.

ونظم الفاطميون أمور دولتهم، فدونوا الدواوين وعينوا العمال وسكوا النقود، وجمعوا الأموال، ونظموا الجيش والأسطول.

الدعوة الشيعية في المغرب:

حرصت الدولة الفاطمية (العبيدية) أول نشأتها على محاولة محو الآثار السابقة سواء أكانت معمارية أم مذهبية، فتتبعوا الأغلبية وأثارهم تدميراً، واضطروا بقية الإدارة إلى الانكماش في مكان قصي.

وحرص الفاطميون كذلك على نشر مذهبهم، وقام دعائهم بجهود بالغة الضخامة لمحاولة تحويل البربر إلى المذهب الشيعي بدل المذهب المالكي الذي كان شائعاً، ومع هذه الجهود لم يحققوا نجاحاً مؤثراً وإذا تذكرنا أن المغاربة مالوا إلى مذهب الإمام مالك تأكيداً لذاتيتهم وصورة من صور استئلالهم، عرفنا صعوبة تحولهم بعد عدة قرون إلى المذهب الشيعي، على

الرغم من جهود الفاطميين ودعاتهم فى الدعوة والمساظرة والترغيب والترهيب، والتكيل والبطش .

وقد ابتدع الفاطميون فى المغرب عدة أمور، يذكر بعضها ابن حماد بقوله: " وكان مما أحدث عبيد الله أن قطع صلاة التراويح، فى شهر رمضان، وأمر بضيام يومين قبل، وقتت فى صلاة الجمعة قبل الركوع، وأسقط من أذان صلاة الصبح : " الصلاة خير من النوم " وزاد: حتى على خير العمل، محمد وعلى خير البشر " (٤).

بنو زيرى ولاة ومستقلين

حرص الفاطميون قبل أن ينقلوا مقر خلافتهم إلى مصر، على اختيار ولاة أكفاء فى المغرب، ففكروا فى قبيلة كتامة، ثم فى جعفر بن حمدون، الذى خشى منهم، وهرب، ومال بطاعته إلى أموى الأندلس، ثم استقر رأى المعز لدين الله الفاطمى على بلكين بن زيرى، أحد رجال صنهاجة الشمال، فقبل الولاية (٥)، وهكذا بدأ بلكين ولايته من سنة ٣٦٢هـ، بادئاً عهداً لأسرته سيطول أكثر من قرنين من الزمان، تحكم فيه هذه الأسرة عمالاً أولاً، ثم حكماً لهم درجة من الاستقلالية، تختلف درجتها حسب المنطقة، وحسب الظروف.

٤ - أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٥٠

٥ - انظر ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٥٤، ١٥٥

وكان على بلكين أن يواجه عدة مشاكل مهمة، منها مشاكل قبيلة زناتة المنافسة لقبيلة صنهاجة، ومنها مجابهة الأخطار القادمة من المغرب الأقصى والتي حركتها بين الحين والحين قوى الأمويين بالأندلس وتمكن بلكين من تحقيق عدة انتصارات مهمة في هذه الميادين، مما جعل الفاطميين، في عهد العزيز، يكافئونه بضم عدة مناطق إلى ولايته لم يكونوا أعطوه إياها من قبل، وبسط بلكين نفوذه على أجزاء واسعة من المغرب^(٦).

وبموت بلكين أواخر الحجة سنة ٣٧٣هـ، يتولى ولده المنصور أوائل سنة ٣٧٤هـ، ثم يأتيه سجل تعيين الفاطميين له، وفي هذا إشارة إلى ثبات أقدام بني زيري في المنطقة، وإلى أن ولايتها صارت من حقهم، فقد أوصى بلكين أن يكون الحكم لولده المنصور من بعده^(٧) وقد عبر المنصور عن أكثر من هذا، بقوله لمن جاءوه يهنئونه بالولاية:

"إن أبي وجدى أخذنا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب، ويعزل بكتاب، لأنى ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم: حمير"^(٨)

٦- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٠، ٢٢١.

٧- انظر ابن أبي دينار: المونس ص ٧٧

٨- ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٠، والإشارة إلى حمير هنا، إشارة إلى أن بعض البربر كان يرجع أصله إلى أصول سامية من حمير، التي قيل إن بعضها هاجر إلى المنطقة في هجرات تمت قبل الإسلام

وفى هذا العبارة إشارة مهمة إلى أن تطلع بنى زيرى إلى الاستقلال
كان مبكراً جداً، وأن قبول بلكين للولاية كان خطوة إلى تمكين الأمر لأولاده،
وأمرته من بعده.

ومن التطورات المهمة فى عهد المنصور، تمكنه من استتلاف فريق
من زناتة^(٩)، ومن الأحداث المهمة حرصه بعد هزيمة جنده أمام فاس، على
عدم التعرض لهذه المنطقة طيلة عهده، ومن إنجازاته أيضاً قضاؤه على
بعض الثورات، مثل ثورة أبى الفهم. كما حرص المنصور بن بلكين على
اتخاذ مظاهر الفخامة والأبهة^(١٠).

ويتولى باديس بن المنصور ولاية إفريقية بعد وفاة والده سنة ٣٨٦هـ،
وكان صغير السن فأرسل إليه العزيز الفاطمى بسجل التعيين^(١١).

ومن الأحداث السياسية فى عهد باديس، تفكير بعض صنهاجة فى
الخلاف، لصغر سن باديس، وتعيين باديس عمه حماد بن بلكين على أشير،
واتساع نفوذ حماد فى المنطقة، وتقوى زيرى بن عطية الزناتى، وظهور
زناتة على صنهاجة، وظهور خلافت داخلية فى الأسرة الزيرية، حيث
الفصل حماد عن باديس بعد أن تولى المغرب الأوسط، وتقوى ببعض زناتة،
وتكررت مرات الصراع بين حماد وباديس، ثم بين حماد والمعز بن باديس،
دون أن يحقق طرف نصراً حاسماً^(١٢)، وهكذا عجز ولاية المغرب من القضاء

٩- المرجع السابق ص ٢٤١، ٢٤٤

١٠- انظر ابن أبى دينار: المونس ص ٧٧، ٧٨، ٧٩

١١- انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧، ٢٤٨

١٢- المرجع السابق ص ٢٤٨-٢٤٩، ٢٦١-٢٦٢.

على انفصال داخلي قاده حماد في المغرب الأوسط، واضطر المعز بن باديس إلى إبرام صلح سنة ٤٠٨ هـ، كان بمناسبة إعلان اعتزاف عملي به ذا الانفصال، وأشار ابن خلدون إلى نتيجة بقوله: "واقسموا المظلة، والتحصوا بالإصهار، وافترق ملك صنهاجة إلى دواتير: دولة إلى المنصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة إلى حماد بن بلكين أصحاب القلعة"^(١٣) وإن حاول المعز بن باديس أن يستعيد ما كان لأبيه، بمحاصرة قلعة بني حماد سنة ٤٣٢ هـ لمدة سنتين، دون طائل^(١٤)، فكان هذا الصراع هو آخر صراع عسكري بين الدولتين الباديسية والحمادية.

ومن أهم الأحداث السياسية في عهد المعز بن باديس، الخلاف الذي نشب بينه والخلافة الفاطمية، بدأ أول أمره يأخذ شكلاً مذهبياً، حيث أظهرت دولة بني باديس الميل إلى الفكر السني وحيث قوت جانب أهل السنة ضد المشاركة (الشيعية) في المغرب^(١٥) ثم خطت الدولة الباديسية خطوة أخرى للوصول إلى مرماهم، وغرضهم الرئيس، وهو الانفصال عن الفاطميين.

وتختلف المصادر في تحديد السنة التي اتصل فيها الباديسيون بالعباسيين، فابن عذاري يحددها بسنة ٤٣٣ هـ في عبارة شديدة الاختصار إذ يقول إن في هذه السنة "أظهر المعز الدولة العباسية، وورد عليه عهد القائم بأمر الله"^(١٦)، في حين يحددها ابن أبي دينار بسنة ٤٣٥ هـ^(١٧)، وابن الأثير،

١٣- العبر ج ٦ ص ١٥٨

١٤- المرجع السابق

١٥- انظر ابن عذاري: البيان المعز ج ١ ص ٢٧٥

١٦- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٥-٢٧٦

١٧- المونس ص ٨٣

قبلهما، جعلها في سنة ٤٣٥ هـ، ويزيد فيشير إلى الكتاب الذي أرسله إليهم
العباسي للمعز بن باديس، وأوله: "من عبد الله ووليه الملك الأوحى، ثقة
الإسلام، وشرف الإمام، وعمدة الأنعام، وناصر دين الله، قاهر أعداء الله،
ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبي تميم المعز بن باديس بن
المنصور، ولي أمير المؤمنين، بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير
المؤمنين..."، ويشير إلى قطع الخطبة للفاطميين منذ ذلك الوقت، وإجراق
أعلامهم. (١٨) وأما ابن خلدون فيحدد هذه الخطوة بسنة ٣٤٧ هـ. (١٩)

ثم تتفق المصادر، بعد هذا الاختلاف على أن سنة ٤٤٠ هـ هي التي
شهدت قمة هذا الخلاف، من قطع الخطبة، وحرق البنود، ولعن الفاطميين.
والواقع أن هذا التاريخ الأخير، هو التاريخ العملي للقطع، حيث أتبعه قطع
السكة كذلك. وأما ما كان قبل ذلك من تواريخ (سنة ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧) فلعلها
تواريخ خلافات، أو تهديدات، لم تصل إلى درجة القطع، أو لعل الدولة
الفاطمية تداركت الأمر، وعاد بعدها الباديسيون إلى الطاعة.

ومن جانب آخر، أرسل الفاطميون، بعد أن ساءت علاقتهم بالباديسيين،
عرب بني هلال وبني سليم من مصر، لاجتياح بلاد إفريقية، ثم لم تشر
المصادر إلى أن هذه العلاقة، بعد هذا الخلاف العنيف، عادت إلى بعض
الهدوء مرة أخرى، وعاد الباديسيون، بصورة أو بأخرى، إلى طاعة
الفاطميين، وعاد اسم الخليفة الفاطمي إلى الظهور مرة أخرى على النقود

الباديسية، وهذه النقطة وضحتّها الوثائق النّمية، وأغفلتها النصوص التاريخية^(٢٠)

والحقيقة أن عهد المعز بن باديس شهد ارتفاع الدولة في بعض فتراتها، ثم كان خلافه مع الفاطميين بداية النهاية لدولته أيضاً، وما ترتب على ذلك من إرسال الغزوة الهلالية إلى الإقليم، مما أدى إلى خسائر اقتصادية مؤثرة (وإن لم تخل هذه الغزوة من نتائج لغوية واجتماعية ودينية مهمة).

وتولى تميم بن المعز أمر إفريقية. وكان أبوه ضعف آخر حياته قبل أن يموت سنة ٤٥٣ هـ وقد أثرت وفاة المعز بن باديس في الوضع السياسي، فطمع بعض الأطراف في الانفصال، مثل حمو بن مليل في صفاقس، وبنى جامع الهلاليين في فاس وغيرهما^(٢١)، وبهذا يدخل الباديسيون مرحلة الضعف، وتتوزع إفريقية جهات متعددة منفصلة، بدل التّوحد والقوة.

ولا يبقى من عهد بنى باديس، سوى ثلاثة حكام، هم يحيى بن تميم (٥٠١-٥٠٩ هـ). وعلي بن يحيى (٥٠٩-٥١٥)، والحسن بن علي آخر حكام بنى باديس.

وأهم ما يلحظ في هذه الفترة هو ازدياد ضعف الدولة، وظهور قوة جديدة في المنطقة، هي قوة النورمان أصحاب صقلية الجدد، فامتدت أيديهم إلى عدة مناطق في إفريقية، مثل المهدية، وصفاقس، وسوسة، وطرابلس،

٢٠- ناقشت هذه القضية بالتفصيل في كتابي "تقود دولة المغرب من سنة ٤٤١-٩٨٢ هـ، دراسة في التاريخ والحضارة"، ولطبيعة دراسة التطور السياسي للمغرب، وإيجازها، فالتقاريء أرجو أن يعود إلى الكتاب المشار إليه أنفاً ففيه مزيد من التوضيح.

٢١- انظر ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٣٥٤-٣٥٥.

"واستولى رجار صاحب صقلية على بلاد الساحل كلها، وضع على أهلها الجزية"، ولم تكن في المنطقة قوة تتمكن من صد هذا الخنزير الجديد، إلى أن ظهرت قوة الموحدين. (٢٢)

والجدير بالذكر في نهاية هذا الحديث الموجز عن بنى زيرى، أنهم مثلوا خطوة مهمة في التطور السياسى فى المنطقة، فهم - بربر صنهاجة - بدأوا ولاية للشيعة الفاطميين، إلى أن انضوى بعض البربر تحت مظلة دولتهم الشيعية، ثم أظهر بنو زيرى مظاهر القوة وبعض مظاهر الاستقلال منذ أوائل عهد ولايتهم، إلى أن أعلنوا فى عهد المعز بن باديس استقلالهم عن الفاطميين، ليحكموا بذلك منطقة واسعة، شملت المغرب الأوسط (تحت سلطان بنى حماد منهم) وإفريقية (تحت سلطان بنى باديس منهم)، وبهذا يحكم البربر أنفسهم بأنفسهم، فى منطقة واسعة من المغرب، (ثم يلحق بهم صنهاجة الجنوب، فيفرضون سلطانهم على بقية المغرب، ليحكم المغرب حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى بثلاث قوى صنهاجية ويمهد الأمر لظهور قوة سياسة بربرية جديدة بعد ذلك لتحكم المغرب كله وذلك فى عهد دولة الموحدين، كما سنرى فى الفصلين التالين).

الفصل الثاني

المرايطون

الفصل الثانى

المرابطون

١ - قبائل الملتمين:

ذكرنا من قبل أن البربر قسموا قسمين: بتر، وبرانس ويهمننا فى حديثنا عن نشأة المرابطين القسم الثانى منهما، وهم البرانس وسبق أن أشرنا أيضاً إلى انقسام البرانس إلى عدة قبائل، وإن من بين أهم هذه القبائل قبيلة صنهاجة. وقد تكاثرت صنهاجة حتى تولدت عنها عدة قبائل عاشت فى المغرب كله تقريباً، إذ انتشر بعضها فى المغرب الأدنى، وكونوا دولة لهم هى دولة بنى باديس، وانتشر آخرون فى المغرب الاوسط، وكونوا دولة بنى حماد، أما فى المغرب الأقصى فقد انتشر عدد ضخم منهم.

وطبيعى لمجموعة من البشر عاشت على هذه الرقعة الواسعة بما فيها من بيئات مختلفة: ساحلية وجبلية وصحراوية، أن تتنوع أشكال حياتها، من شكل مدنى حضرى، إلى شكل بدوى.

وسنركز هنا على صنهاجة المغرب الأقصى أصحاب الدولة المرابطية، فنذكر أنهم انتشروا فى هذا المغرب، وإن مالت جماعات ضخمة منهم تجاه الجنوب، فكانوا يعيشون على ساحل المحيط منحدرين تجاه الجنوب، حتى وصلوا منحنى نهر النيجر، كما وصلوا شرقاً إلى منطقة فزان، وهى مساحة بالغة السعة، وسنلاحظ أن هذه المساحة هى نفسها المساحة التى سيطر عليها المرابطون مقيمى عليها دولتهم فى المغرب.

وقد تكاثرت صنهاجة تكاثراً واضحاً، حتى اعتبرها البعض ثلث البربر،
ونتج عنها عدة فروع، عدها بعض الدارسين سبعين بطناً، ومن أهم هذه
الأقسام لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة.

وقد أطلق على هذه القبائل اسم قبائل المثلثين (١)، وقد عاشت - رغم
وفرة مالها - حياة البداوة - فرضتها عليها طبيعة الحياة في القفار، وإن لم يمنع
هذا من وجود بعض أسباب الحياة الهائلة للرؤساء، وإطلاعهم على وسائل
الحياة في الحضر، حيث إخوانهم المقيمون بالقرب من السهل الساحلي للبحر.
وكانت القبيلتان الأوليان (لمتونة وكدالة) تتنافسان على الرئاسة، لكن
لمتونة فازت بها، وسيدفعنا هنا للحديث عن أشهر قبائل المثلثين، ومواطنهم،
ودورهم في القيادة.

١- أطلق عليها هذه الاسم لحرص رجالها، دون النساء، على اللثام يخفون به
جزءاً كبيراً من وجوههم، ويتمسكون به حتى أثناء تناول طعامهم ويعتبرونه شعاراً لهم
وفخراً، وقد قيل في سبب تمسكهم بهذا اللثام عدة أقوال:

أ- إنهم استعملوا اللثام في حرب استعانوا فيها بنسائهم ليكثر عددهم في نظر
عدوهم، فاتخذ الجميع اللثام لإخفاء هذا الأمر عن العدو، أو حتى يلقوا في روع الأعداء
أن هذا الجمع المثلث ليس من الرجال، وهذا التفسير الأخير بعيد عن فروسية هذه القبائل
وأخلاقيتها.

ب- إنهم اتخذوه، شأن بعض القبائل البدوية، لاتقاء لفحات الحر وسواقي الرمل،
بيد أنهم حرصوا عليه، وتمسكوا به، فصار لهم عادة.
وقد قيل غير هذا من الأكوال أيضاً.

فأما مسوفة فعاشت بين سجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً، وساعدها هذا على السيطرة على الطريق التجارى المار بين هذين الحدين، فنالت بعض الثروة.

وعاشت قبيلة لمتونة في منطقة واسعة، يحدها وادى نون، ورأس بوجادور على المحيط، وتشرف لمتونة على الطريق التجارى الساحلى على المحيط، ومدت نفوذها إلى الطريق التجارى الذى يقع بين غانة وسجلماسة، لقربه من مواطنها، وأدى ذلك إلى زيادة ثروة هذه القبيلة، التى حصلت من خفارة التجارات، أو المشاركة فيها.

أما قبيلة جدالة فكانت أكثر هذه القبائل الملتمة تطرفاً إلى الجنوب، وتاخمت مواطنها الصحراء لتصل إلى المحيط، وهذه القبيلة قريبة من عدة مراكز تجارية فى بلاد السودان الغربى ، ومسيطرة كذلك على بعض الطرق التجارية، مما أتاح لها ثراء مشابهاً لثراء لمتونة.

وتعتبر لمتونة أقوى هذه القبائل الملتمة، وكان لها دور فى قيادة الملتمين ورئاستهم، وتمكن بعض رؤساء هذه القبيلة من توحيد الملتمين فى بعض الفترات، وكانت آخر فترات هذا التوحيد قبل قيام الدولة المرابطية، تحت رئاسة لمتونى اسمه ابو عبيد الله بن تيفاوت، وكان رجلاً صالحاً، فاجتمع عليه الملتمون وأحبوه، ولما مات قام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم وكان من قبيلة كدالة، وذلك سنة ٤٢٩ هـ (٢).

٢- كانت هناك منافسة بين لمتونة وجدالة على زعامة الملتمين، وكانت جدالة أهل من لمتونة عدداً وثروة ، كما مر ، ولكن الظروف ساعدت على أن تتول الرئاسة إلى جدالة ، ذلك أن الزعيم اللمتونى عبيد الله بن تيفاوت استشهد فى معركة ضد أهل غانة ،

وكانت قبائل الملتمين هذه قد دخلت الإسلام^(٢)، لكن إسلامهم كان يحتاج إلى كثير من التوضيح، ومع هذا قام هؤلاء الملتزمون المسلمون الجدد بدور ضخم في نشر هذا الدين في مواقع بعيدة، إذ ساعدتهم موطنهم الذي عاشوا فيه، بين المغرب والسودان الغربي، على نشر الإسلام في هذه المواقع السودانية، وضربوا الجزية على من لم يدخله من القبائل المسالمة هنالك، وقد ظل الملتزمون يجاهدون في المنطقة السودانية هذه مدة طويلة بدأت قبل أن تنشأ دولة المرابطين واستمرت إبانها.

اتضح مما سبق جهاد الملتمين في سبيل نشر الإسلام كما اتضح في نفس الوقت عدم تفقهم في الدين، ولما تولى يحيى بن إبراهيم الكدالي أمر الملتمين، بدأ عهد جديد بالنسبة لهذه القبائل.

وانهزم جيشه أيضاً ، فأسرعت كدالة القرية من السودان الغربي إلى تلافى الأمر ، وتمكنت هذه القبيلة من راب الصدع ، وإعادة النصر للملتمين ، مما ساعد على تولى يحيى بن إبراهيم الكدالي الرئاسة ، بسبب قرابته من الزعيم اللمتوني السابق .

٣- اختلف حول التاريخ الذي دخلت فيه قبائل الملتمين الإسلام ، فهناك رواية تقول انهم أسلموا في ولاية عقبة عندما توغل في المغرب الأقصى بعد ان انتصر على بعض قبائل الملتمين ، وبنى مسجداً في ماسة ، وهناك رواية اخرى تؤرخ لإسلامهم بانتهاء فتوح المغرب أي زمن موسى بن نصير .

لكن يعزى إلى البرانس ، ومنهم الملتزمون ، بعض الارتداد ، وهناك إشارة إلى دور الأدارسة في تمام نشر الدين في مناطق الملتمين .

وأياً ما كان الامر ، فإنه يمكن التأريخ لدخول الملتمين الدين الجديد بأوائل القرن الثاني الهجري ، ثم استمرت الجهود لإدخال من لم يدخل منهم الإسلام وتعديل مسار من انحرف منهم عن العقيدة ، وذلك لمدة اخرى من الزمن .

خطوات تكون دولة المرابطين

مرت خطوات تكون دولة المرابطين بمرحلتين أساسيتين ضمت واحدة منهما عدداً آخر من الخطوات الجزئية، وهاتان الخطوتان هما الدعوة الدينية الإصلاحية، والطور السياسى وقيام الدولة.

١ - الدعوة الدينية:

وسنبداً الآن فى تفصيل الخطوة الاولى وهى الدعوة الدينية الإصلاحية وهى تشمل بدورها عدة خطوات جزئية، هى مرحلة ما قبل الرباط، ثم مرحلة الرباط.

أ - مرحلة ما قبل الرباط:

مالت نفس يحيى بن إبراهيم الكدالى، المشار إليه آنفاً، إلى التفقه بالقيروان، حيث الفقيه ذائع الصيت أبو عمران الفاسى^(٤)، فطلب إليه أن يمدّه بفتيه يفقههم فى أمور دينهم، لكن أحداً لم يتطوع لهذه المهمة، ربما بسبب

٤ - عالم مغربى وفقه مالكى شهير ، طلب العلم فأخلص له ، وتتلّمذ على يد الفقيه المالكى المغربى أبى الحسن القابسى ، ثم رحل فى طلب العلم فزار الأندلس ومصر والحجاز والعراق ، لتتوب به الرحلة بعد ذلك إلى المغرب الأدنى، حيث استوطن القيروان، وبها ذاع صيته، عالماً وفقهاً ومالكيًا ، وكان إلى جانب علمه زاهداً متقشفاً لا تأخذه فى الحق لومة لائم، وقد خرج عدة تلاميذ ، كانوا مصابيح للمذهب المالكى فى المغرب الكبير .

معرفتهم لصعوبة هذه المهمة، أو لغيره من الأسباب. وأياً ما كان الأمر، فقد أرسل أبو عمران الفاسي يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى فقيه السوس (٥)، وطلب إليه أن يمدّه برجل يقوم بهذه المهمة، فاختار له تلميذاً من تلاميذه يدعى عبد الله بن ياسين .

وقد اختلف في اسم القبيلة التي ينتمي إليها عبد الله بن ياسين، لكن الشائع أنه من صنهاجة، فإذا صح ذلك يكون تفسيراً جيداً لسبب اختيار فقيه السوس له، وسبب قبول عبد الله بن ياسين نفسه لهذه المهمة التي سبق أن رفضها تلاميذ أبي عمران الفاسي في القيروان.

وعن علم عبد الله بن ياسين يمكن ذكر أنه تتلمذ حوالي سبع سنوات في قرطبة، ثم عاد إلى المغرب الأقصى حيث تتلمذ على يد فقيه السوس وهذا قدر من العلم كاف للإرشاد والتدريس بغض النظر عن الكلام الذي قاله جوليان عن مستوى هذا العالم المجاهد (٦).

٥- هو الفقيه العابد الزاهد وجاج بن زلو اللطفي، وهو صنهاجي أيضاً، تتلمذ على يد أبي عمران الفاسي، وكان يقيم في رابطة خاصة به في شبه عزلة لا يرتاد رابطته إلا تلاميذه، وكانت الرسالة التي أرسلها أبو عمران الفاسي إليه مع يحيى بن إبراهيم الكدالي: ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته، ليعلمهم القرآن وشريعة الإسلام، ويفقههم في الدين .

٦- انظر هذا الكلام في تاريخ إفريقيا الشمالية منذ الفتح الإسلامي ص ١٠٥. ويمكن أن نذكر هنا بالرسالة التي أرسلها أبو عمران الفاسي مع يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى فقيه السوس يطلب إليه أن يرسل معه من يثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته، لأن هذه المهمة ليست بالهينة وتحتاج من الجهد العلمي والصبر، الكثير، وهذه شهادة طيبة وحقيقية تبين مستوى عبد الله بن ياسين انظر الحل الموشية ص ٩.

ويمكن التأريخ لاختيار عبد الله بن ياسين لهذه المهمة بحوالى سنة ٤٣٠هـ، ذلك أن أبا عمران الفاسى مات فى هذه السنة، فيكون التأريخ قريباً منها.

واصطحب يحيى بن إبراهيم الكدالى الفقيه عبد الله بن ياسين إلى مواطن قبائل الملتمين، وكان واضحاً أن يحيى سعيد بعمله هذا، الذى قصد به فى المقام الأول مرضاة الله، وهداية قومه. وكانت مواطن قبيلة يحيى (كدالة) فى أقصى مواطن الملتمين تجاه الجنوب، فكان لازماً على الكدالى والفاى أن يمرا أولاً بقبائل الملتمين الأخرى وهناك التف الملتزمون حول الفقيه، وتعلقوا به وحاولوا الإفادة من علمه.

ولكن هل اكتفى الفقيه بمجرد إلقاء الدروس؟ أنه سرعان ما حاول تطبيق دروسه هذه عملياً، وإصلاح الناس، فاتجه إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويبدو أنه اشتد فى ذلك، فلم يعجب هذا الأمر كثيراً من الناس ممن تعودوا على حياة خاصة منذ وقت ليس بالقريب، وثقلت عليهم التكاليف التى كان يأمرهم بها الفقيه، فانصرف بعض الناس عنه.

وهنا يسرع اليأس إلى نفس الفقيه، ويشعر أن من الأفضل له أن يمضى إلى بلاد السودان مجاهداً، ويترك هذه المهمة التى أقيت على كاهله. (٧)

ويبدو أن من أسباب هذا التحول في شعور الناس، إلى جانب ما قلناه من نقل التكليف، تبرم قيادات لمتونة من الموقف، وعدم ميلهم إلى الاستماع إلى من جلبه الرئيس الكدالي، ويمكن إضافة عامل اجتماعي أيضاً هو حرص السادة والزعماء على وأد جهود عبد الله بن ياسين في الإصلاح والعمل بالسنة، لأن ذلك كان يعنى أن يتساووا مع الطبقات الدنيا، وهو ما لم يرتضوه.

وأحسن يحيى بن إبراهيم الكدالي بسوء الموقف، فلمتونة رفضت الفقيه، والفقيه يريد العودة إلى دون أن يكمل مهمته، وعلم يحيى أنه عاجز عن الوقوف امام لمتونة، فاقنع الفقيه بالاتجاه إلى الجنوب حيث كدالة قبيلته: ووافق الفقيه على ذلك^(٨) قاصداً أن يعتزل ويعيش منفرداً كما كان يعيش أستاذه فقيه السوس في رابطة خاصة لا يلجأ إليه إلا المرید.

ب- مرحلة الرباط:

كان الالتجاء إلى الرباط هو الحل الذي ارتضاه عبد الله بن ياسين، وهو حل قريب إلى ذهنه، ذلك أن أستاذه فقيه السوس وغيره من الفقهاء الزاهدين في ذلك الوقت كانوا يميلون إلى السكنى بعيداً عن الناس، لا يختلط بهم إلا من يرغب في الذهاب إليهم من التلاميذ والمریدين.

وقبل أن أتحدث عن هذه المرحلة أود أن أنقدم بكلمة موجزة عن الرباط أو الرابطة ما هو؟ الرباط- ببساطة - موضع يربط فيه جماعة ومعهم خيلهم بغرض المراقبة على الجهاد، والمراقبة على انتظام الصلوات، إذ إن من معاني المراقبة لغوياً: ملازمة ثغر العدو وربط الخيل عندها، وقد اتخذ الرباط في المغرب أول عهد الإسلام شكل المحارس للدفاع عن أرض

٨- انظر ابن أبي زرع: الأئیس المطرب بروض القرطاس ص ١٢٤

الإسلام، ثم طور الفقهاء المالكية هذه الربط إلى شكل ديني، فكان الفقيه يعتزل في رباط بعيد عن العمران (لكن ليس في ثغر من الثغور) يتعبد فيه، وقد يأتيه طلبته ومريدوه، فيبث فيهم تعاليم مذهب الإمام مالك، لكن الرباط في المغرب الأقصى سيأخذ شكلاً جامعاً للشكلين السابقين فهو رباط ديني وعسكري، وغرضه العسكري يخدم في المقام الأول الغرض الديني^(٩).

اعتزل ابن ياسين الملتجئين، ودخل في إحدى الجزر الموجودة في نهر السنغال (على أرجح الروايات)^(١٠) وكان بهذا النهر عدة جزر، إذا فاض النهر وزاد، انقطعت عن البر، وانعزلت عن غيرها من الجزر، وإذا غاض الماء أمكن الوصول إليها من البر، كما أمكن الاتصال بين الجزر المختلفة.

وكان عدد من اصطحب الفقيه تسعة، اثنان منهم من أعيان لمتونة (هما يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر) وسبعة من أعيان كدالة، (وعلى رأس هؤلاء يحيى بن إبراهيم الذي اصطحب الفقيه من البداية).^(١١)

وكشأن المعتزلين بالرباط، كان هؤلاء الرجال يداومون على العبادة وقراءة القرآن، ولما كان ابن ياسين من الفقهاء المالكية فإنه يقرب إلى القبول

٩- انظر في معنى الرباط وتطوره: مادة رباط في دائرة المعارف الإسلامية، ود حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٢٨ وما بعده.

١٠- رجع مرسية أن تكون في نهر السنغال الأدنى. (انظر La Berberie

Musulmane et L'orient au Moyen Age, P. ٢٣٩)

وانظر كذلك جوليان، ويشير إلى أنها في جزيرة تيدرا في غالب ظنه (تاريخ إفريقيا الشمالية ص ١٠٦)

١١- انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٢٧

أن الجماعة تدارست موطأ مالك أيضاً، وكان جماع حياة هذه الجماعة العبادة والدراسة.

وكان طعامهم مما يصيدون من نهر السنغال، ومن البر إذا اتصلوا به ومن طير الجو، كما أكلوا الثمار، وشربوا الألبان، وهذا معظم طعامهم، (١٢) مع زهد واضح وحرص على التقشف.

ويبدو أن عبد الله بن ياسين اغتتم فرصة عزله هذه، وفكر في كيفية مواجهة أمر الملتئمين، فعاد وأمر من معه بالخروج إلى قبائل الملتئمين لبحث أفكاره التي قاومتها لمتونة من قبل، فتسامع الناس به، وأقبل عليه الموافقون على نهجه، يريدون الالتحاق برباطه، لكنهم كانوا يقابلون باختيار عسير، بقصد التأكد من نواياهم، والتأكد من تطهرهم من أدران الماضي، وزاد عدد المريدين يوماً بعد يوم.

وقد أخذ ابن ياسين الملازمين الجدد لرباطه، بنفس المعاملة الشديدة لقبيلة لمتونة قبل الرباط، استطاع ابن ياسين أن ينجح في رباطه فيما فشل فيه مع قبائل الملتئمين وخاصة لمتونة، وتمكن من أن يربى مجموعة من المريدين تربية دينية، وأن يجعلهم مطيعين له ولأوامره.

ولكن هل اكتفى ابن ياسين بهذا؟ لقد طمح إلى ما هو أكبر من ذلك، إذ أراد أن يعود إلى الملتئمين الذين سبقوا أن رفضوا الإصلاح، فيأخذهم بالقوة إن عادوا فقاوموا.

١٢- يزيد جوليان القديد المطحون الهضاه إلى الدهن (انظر المرجع السابق ص

لقد بلغ اتباع ابن ياسين ألفاً، وألف لن تغلب من قلة، كما قال لهم (١٣)، فتبدأ مرحلة الجهاد العسكري إذاً.

وصادف هذا التفكير موت يحيى بن ابراهيم الكدالي فحرص عبد الله بن ياسين على اختيار رئيس المائمين من قبيلة لمتونة، ولعل ذلك يرجع إلى إحساسه أنه يحتاج إلى عصبية أكبر في مرحلته هذه، ولمتونة كانت صاحبة العصبية والرئاسة من قبل، ولعله أيضاً طمح إلى الاتجاه إلى المغرب الأقصى شمالاً وشرقاً، فاختار الرئيس اللمتوني ليسهل عليه اختراق مواطن لمتونة التي تلي مواطن كدالة شمالاً وشرقاً.

وبدأ الجهاد العسكري، وأثخن الفقيه في القتل، في مخالفته من كدالة، حتى أسلموا إسلاماً حسناً. (١٤)

٢- التطور السياسي وقيام الدولة:

تمكن عبد الله بن ياسين والأمير الجديد يحيى بن عمر اللمتوني من إعادة المائمين إلى سبيل الإصلاح، وإلى هذا الحد يكون الدور الذي اتفق أن ينفذه الفقيه قد تم، أعنى تفقيه الناس في أمور دينهم والدعوة إلى الإصلاح وإحياء السنة.

لكن هل توقف عبد الله بن ياسين عند هذا الحد؟

١٣- انظر ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٣

١٤- انظر ابن أبي زرع: الأئيس المطرب بدروس القرطاس ص ١٢٦

أ- الاتجاه السياسى:

إن الأحداث التاريخية تؤكد عدم توقف الفقيه عند حد إصلاح الملتزمين فقد اندفعت جيوش هذه الجماعة، التى سماها ابن ياسين بالمرابطين، تجاه سجلماسة ودرعة سنة ٤٤٧هـ (١٥) وبغض النظر عن سبب هذا الاندفاع ذلك، هل هو عن دعوة من أهل البلدين أو من فقيه السوس أو غير ذلك، فإن هذا الاندفاع يمثل خطوة جديدة تعدت منطقة الإصلاح التى دعى إليها الفقيه أول الأمر.

وقد وافق هذه الخطوة موت يحيى بن عمر وتولية عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه، وتقليده أمر الحرب والجهاد ويمكن اعتبار السنة المشار إليها أنفاً بداية للأعمال الدينية التى يمكن أن يلحظ فيها أيضاً الاتجاه السياسى.

وإذا كان اتجاه المرابطين إلى ذرعه وسجلماسة مبرراً بدعوة أهل البلدين، فإن اتجاه المرابطين إلى بلاد السوس كان دون دعوة بل إن الاتجاه إلى بلاد المصامدة يعتبر أكبر مظاهر الاتجاه السياسى وسيؤكد هذا الاتجاه فيما تلا ذلك من فتوح متتالية لبلاد المغرب.

وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الأسباب التى دفعت بالمرابطين إلى التوجه إلى شمالى منطقة المغرب الأقصى، وهى أسباب متعددة منها ما هو دينى، ومنها ما هو سياسى، فأما الجانب الدينى فأساسه أن المرابطين أرادوا إكمال دورهم الذى قاموا به فى الجنوب من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وإحياء

للمسنة بوجه عام ، وقد ساعدتهم في هذه الناحية دعوة بعض مدن المغرب الأقصى لهم مستغيثين .

لكن هذه الاستغاثة وهذا الجانب الديني لا يبرران وحدهما انطلاق المرابطين إلى بقية بلاد المغرب الأقصى ، إذ يمكن القول إن المرابطين كانوا سيتوجهون إلى هذه النواحي وإن لم تصلهم دعوة ، وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الاتجاه السياسي.

ذلك أن الدور السياسي وجهته النزعة القبلية التي لا تكاد تخلو فترة من فترات تاريخ المغرب منها، وقد ظهرت هذه النزعة القبلية في الخلاف الطويل بين فرعي البربر: البتر والبرانس، إذ كان زنانة البتر قد آذوا صنهاجة البرانس عبر عدة قرون وأذلوهم وضايقوا بعض صنهاجة في أرزاقهم التي عمادها التجارة، فانتهز المثلثون الصنهاجيون فرصة اتحاد قبائلهم وازدياد قوتهم فعملوا على رفع شأنهم وسيطروا على منطقة المغرب الأقصى.

ظهور دولة المرابطين

أ- أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين:

كان يحيى بن عمر رئيس المثلثين قد مات في أوائل رحلة الاتجاه السياسي، فعين ابن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر محله، وكان هذا الرئيس للمتوني الجديد يأمر القوم، وهو في الحقيقة يأتمر بأمر الفقيه في معظم الأمور وخاصة في أمور الدين. (١٦)

١٦- انظر ابن أبي زرع : المرجع السابق ص ١٢٧

وبوفاة عبد الله بن ياسين، آلت الرئاسة كلها إلى الأمير أبي بكر بن عمر، وكان صالحاً ورعاً محباً للجهاد،^(١٧) وكان يقيم في أغمات هو والمرابطون، فبلغه نشوب خلاف بين جدالة ولمتونة في مواطنها بالصحراء، وعلم أن هذه النزعة القبلية التي تمكن عبد الله بن ياسين ورؤساء الملتمين من التقليل منها إلى حد اقتراب من الإخفاء، لو ظهرت فإنها جديرة بأن تذهب كل الجهود التي بذلها الفقيه ورؤساء الملتمين من قبل.

وهنا يظهر يوسف بن تاشفين اللمتوني، فقد اختاره أمير المرابطين لينوب عنه في الفترة التي سيتغيب فيها في الصحراء ليحل الخلاف المشار إليه^(١٨).

تعتبر فترة إنابة يوسف بن تاشفين على المرابطين طوراً جديداً من أطوار تاريخ المرابطين، بل يمكن التأريخ بها لنشأة الدولة المرابطية، فقد شرع في بناء مدينة مراكش (حوالي سنة ٤٥٤ هـ)، لتكون قاعدة للجند بعد أن ضاقت بهم أغمات، ويلاحظ في المكان الذي حدد لبنائها اتجاه سياسي، ذلك أن المرابطين حرصوا على أن تكون قاعدتهم تلك مواجهة لبلاد المصامدة الذين خافوا منهم الثورة.^(١٩)

١٧- انظر الحل الموشية ص ١٢

١٨- كان واضحاً لأمير المرابطين أن مهمته هذه شاقة، وأن غيابه سوف يطول لمجاهدة السودان بعد إصلاح أحوال الملتمين، فطلق زوجته زينب النفزاوية، ورحل إلى الصحراء، وقد تزوج يوسف بن تاشفين زينب هذه بعد ذلك (انظر السلاوي الاستقصا < ٢ ص ١٩)

١٩- وعلى الرغم من ذلك ثار المصامدة وأسقطوا دولة المرابطين بعد مدة ليست بالطويلة.

وساعد شباب يوسف بن تاشفين وإخلاصه، على تفانيه في جهاده، وحقق عدداً كبيراً من الانتصارات، فزاد بذلك سلطانه والنفوذ السياسى للمرابطين، حيث يمكن أن نعتبر يوسف بن تاشفين الأمير الفعلى للمرابطين.

وقد تأكدت هذه الإمارة من الناحية العملية كذلك عندما فكر أبو بكر بن عمر الأمير المرابطى المجاهد فى الجنوب المغربى فى العودة إلى الشمال، وأخبر يوسف بن تاشفين بذلك، أكن يوسف- فيما يبدو- أراد الاحتفاظ لنفسه بالسلطة التى يمارسها، فخرج لاستقبال الأمير العائد بعيداً عن مراکش^(٢٠)، وخرج معه جنده فيما يشبه الاستعراض العسكرى، والتقىا فى موضع، سمى فيما بعد فحص البرنس، (نسبة إلى البرنس الذى جلس عليه الأميران)، وأحس أبو بكر بما وصل إليه يوسف من سلطات، فأثر أن يترك له قيادة المرابطين، ليعود هو من حيث قدم ليواصل الجهاد ضد السودان الغربى، وهذا يدل، ضمن ما يدل، على حب للجهاد وتفضيله على كل ماعداه، وقد سر يوسف هذا، وظل يرسل إليه المؤن فى الصحراء، وقد مات هذا المجاهد شهيداً فى إحدى معاركه فى الصحراء مجاهداً فى سبيل الله ورفع كلمته حوالى سنة ٤٨٠هـ^(٢١)، لينال يوسف بن تاشفين عند ذاك الإمارة من الناحية الدستورية، ويضرب النقود من ذلك التاريخ باسمه وعلى هذا يكون أول أمير للمرابطين فى ظل الدولة هو أبا بكر بن عمر اللمتونى، تولى سنة ٤٤٨هـ، ولسفره إلى

٢٠-يقال إن ذلك كان من تدبير زينب النفراوية، التى ساعدت زوجها يوسف كثيراً، والملاحظ أن نساء الملتمين كان لها دور ضخم فى مضاربهم فى الصحراء، وسنرى أن هذا الدور حاولت نساء المرابطين مواصلة ممارسته فى قصور الأمراء المرابطين بعد ذلك (انظر المرجع السابق ص ٢٠)

٢١- انظر ابن أبى زرع: الأئیس المطرب بروض القرطاس ص ١٣٥

الجنوب أناب عنه الأمير يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣هـ، وعاد أبو بكر إلى الشمال مرة أخرى سنة ٤٦٥هـ، على الأرجح، ليعود للجهاد مرة أخرى ويستشهد سنة ٤٨٠هـ، السنة الحقيقية لتولى يوسف الإمارة من وجهة النظر الدستورية، كما بينتها الوثائق النمية.

ومن هنا، يمكن أن نضع ثبناً لأمرء الدولة المرابطية، على ما يلي:

- ١- أبو بكر بن عمر (ظهرت أول نقود له سنة ٤٥٠هـ)
- ٢- يوسف بن تاشفين ٤٨٠هـ - ٥٠٠هـ (كان تولى الإمارة الفعلية ٤٥٣هـ لما أنابه الأمير الأول).
- ٣- علي بن يوسف ٥٠٠-٥٣٧هـ.
- ٤- تاشفين بن علي ٥٣٢-٥٣٩هـ.
- ٥- إبراهيم بن تاشفين ٥٣٩هـ (خلع).
- ٦- إسحق بن علي بن يوسف ٥٣٩-٥٤١هـ (قتله الموحدون).

ب- دور يوسف بن تاشفين في دولة المرابطين:

كان أبو بكر بن عمر - كما تقدم - أول من تولى أمور الرئاسة جميعاً، بعد استشهاد الفقيه عبد الله بن ياسين، الذي كان له الإشراف الديني، ونفوذ

ضخم فيما عداه، وواصل أبو بكر بن عمر سياسة ابن ياسين في الإصلاح وفرض سيطرة المرابطين على مناطق جديدة.

لكن دور يوسف بن تاشفين في سبيل الدولة كان أكبر وأوضح وقد ظهر دور يوسف قبل استشهاده بن ياسين واستمر وكثر بعد ذلك، وتمكن من الانتصار في عدد من المعارك، ويبدو أن أبا بكر بن عمر اكتفى بابن عمه يوسف قائداً، طوال فترة بقائه في الجهات الشمالية، وربما كان هذا سبباً من أسباب إنابته لما اضطر أبو بكر إلى العودة إلى الصحراء سنة ٤٥٣هـ، كما تقدم، وقد تقدم اعتبارنا فترة الإنابة هذه إمارة واقعية ليوسف بن تاشفين، وليست إمارة دستورية.

جهود ابن تاشفين في المغربين الأقصى والأوسط:

تمكن يوسف من أن يأخذ على عاتقه نشر النفوذ المرابطي في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى، بعد أن كان له دور كبير في مد هذا النفوذ من الجنوب خطوة خطوة، إلى أن وصلوا إلى الشمال. وظل يوسف بن تاشفين يكافح أكثر من اثنتي عشرة سنة فيما بين سنة الإنابة (٤٥٣هـ) وسنة عودة أبي بكر من الجنوب (٤٦٥هـ) وتمكن في هذه المدة من الانتصار على عدة قوى، وفرض سيطرته على عدة مدن. (٢٢)

وتمكن من أخذ مدينة فاس، منتصراً على العدد الكبير من قبائلها، زواغة، ولماية، ولواتة، وصدرينة، وسدارتة، ومغيلة، وبهلولة ومديونة وغيرها، وكانت هذه القبائل قد قابلت المرابطين خارج المدينة، فلما انهزمت

٢٢ - انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١٨٤-١٨٦

وابن عذاري البيان المغرب ج ٤ (تحقيق د. إحسان عباس) ص ٢٢

ارتدت إلى المدينة وتحصنت بها، فحاصرها يوسف بن تاشفين مرتين إلى أن سقطت المدينة سنة ٤٥٥هـ ثم انشغل يوسف بن تاشفين عن هذه المدينة بعمليات عسكرية في مدن أخرى مما مكن المنافسين من زناتة من استرداد المدينة، وقتلوا عاملها المرابطي.

وسكت يوسف عن فاس حتى سنة ٤٦٣هـ، وكان قد لجأ إلى الحركة الهادئة المنظمة، فأثر أن يأخذ مدن المغرب واحدة بعد واحدة، ليقلع أظفار منافسيه من البتر، حتى لم يبق من مدن المغرب سوى فاس وسبتة وطنجة، فالتفت إلى فاس وشدد الحصار عليها، وتمكن من الانتصار على أكبر منافسيه من مغراوة، وبنى يفرن، ومكناسة، وينسب إليه في هذه المعارك الشدة والمبالغة في القتل (٢٣).

وواصل الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين فرض سلطانه على المغرب الأقصى، لكنه حتى سنة ٤٧٠هـ، لم يكن قد أخذ سبتة وطنجة وقد تأخر أخذ هاتين المدينتين لحصانتها من جهة، ولانشغال المرابطين بميدان جديد هو ميدان المغرب الأوسط الذي وجه المرابطون قواتهم إليه سنة ٤٧٢هـ وإلى سنة ٤٧٥هـ، حيث تمكنوا من وانشربس، وأعمال شلف، ومتيجة، حتى الحدود الغربية لمدينة الجزائر (٢٤)، وهذا هو أقصى ماوصلت

٢٣- انظر ابن زرع: المرجع السابق ص ١٤١، وقد غير يوسف بن تاشفين بعد ذلك من تقسيم مدينة فاس فهدم السور الذي يفصل بين عدوتى المدينة: عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين (وكان الأدارسة قد قسموها هذين القسمين، سكن القسم الأول بعض أهل القيروان فسمى القسم بعدوة القرويين، وسكن القسم الثانى أهل المغرب والأندلس فسمى بعدوة الأندلسيين)

٢٤- نفسه ص ١٤٣

إليه الحدود المرابطية شرقاً، وقد تمكن المرابطون في هذه الحملة من القضاء على خطر زناتة المقيمين في المغرب الأوسط منافسي المرابطين الصنهاجيين، ولعل من أسباب توقف المرابطين عند الجزائر عدم رغبتهم في دخول صراع بعيد المدى مع أقاربهم بنى حماد الصنهاجيين، واكتفاء المرابطين بالقضاء على الخطر الزناتى (٢٥).

وبعد الانتهاء من الأعمال العسكرية في المغرب الأوسط، عاد المرابطون إلى الاهتمام بما تبقى من مدن المغرب الأقصى سبتة وطنجة، وتعود أهمية هاتين المدينتين إلى أنهما ساحليتان تؤثران على أمان المغرب الأقصى، وأنه يسيطر عليهما زناتيون من منافسي صنهاجة وأقارب الذين أثخن فيهم المرابطون من قبل، ومن غير المعقول إذاً أن يدعهم المرابطون في هذا الموقع العسكرى الهام.

واتجه المرابطون إلى طنجة أولاً، وأخذوها سنة ٤٧١هـ، لكن انتصارهم لم يكن حاسماً، فقد تمكن بعض منافسيهم من اللجوء إلى سبتة فارين، وتحصنوا فيها، فزادوا من قوة المدينة الثانية المراد فتحها.

وقد تأخر فتح سبتة إلى خمس سنوات بعد ذلك، لصعوبة أخذ هذه المدينة الحصينة، ولضرورة محاصرتها بحراً أيضاً، تقوية للحصار البرى وإكمالاً له، ولهذا اتجه المرابطون في خلال بعض هذه السنوات الخمس إلى

٢٥- وبهذا يكون الجزء الغربى من المغرب الأوسط امتداداً من الحد الغربى لمدينة الجزائر الى آخر المغرب الأوسط من أملاك المرابطين، تم فتحه سنة ٤٧٥هـ وظل تحت أيديهم إلى سنة ٥٣٩هـ عندما تمكن الموحدون من أخذ هذا الجزء منهم قبل تمام سقوط المرابطين أنفسهم بسنتين. انظر في أخذ المرابطين هذه المدن المرجع السابق.

المغرب الأوسط، حتى تكتمل لهم أدوات النصر، وتدبير الأسطول الكافي للحصار البحري، وهي مسألة فيها بعض الصعوبة لقوم صحراويين قريبي العهد بالبداءة.

ولما جهز المرابطون عدتهم حاصروا سبتة براً وبحراً، وبإحكام هذا الحصار تمكن المرابطون من أخذ سبتة، فسيطروا بذلك على المغرب الأقصى، كله، وأطلقوا على الأندلس. (٢٦)

وبانتهاء هذا العمل العسكري، يكون المرابطون قد أقاموا دولة ضخمة شملت في المغرب جزءاً كبيراً منه، وحققوا ما يريدون من سياسة رسمها لهم الفقيه عبد الله بن ياسين قبل حوالي خمس وثلاثين سنة، من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أديا إلى سيطرة هؤلاء الأمرين والناهين على رقعة مترامية الأطراف في المغرب الأقصى كله وجزء من المغرب الأوسط، أقاموا فيه دولة قدر لها أن تبطل المذاهب المنكرة، وتحمي الإسلام لا في المغرب فحسب، بل في الأندلس كذلك كما سنعرف.

ويلاحظ أن عهد الأمير يوسف بن تاشفين كان العهد القوي الزاهر للمرابطين، لكن هذا العهد لم يستمر طويلاً، وهذه القوة لم تعرفها عهود الأمراء التاليين، ذلك أنه على الرغم مما ينقله المؤرخون عن عهد علي بن يوسف من أنه "ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه لأنه صادف البلاد ساكنة والأموال وافرة، والرعايا آمنة، بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة" (٢٧) إلا أننا نلمح في عهدة بدايات النهاية. وقد ظهرت هذه الأمور بعد سنين قليلة من وفاة

٢٦- انظر ابن أبي زرع: المرجع السابق.

٢٧- انظر المرجع السابق ص ١٤٤

الأمير يوسف بن تاشفين. بل إن أول عهد علي بن يوسف شهد خلافاً حول البيعة له، لما حاول ابن أخيه يحيى بن أبي بكر أن يثور ضده في فاس، وبإيعه بعض الناس، هناك بضعة أشهر، (وإن كانت محاولته باءت بالإخفاق بعد ذلك). (٢٨)

ثم إن هذا العهد الموصوف بالهدوء والسكون شهد اخطر حركة وجهت ضد المرابطين، وهى حركة محمد بن تومرت (مهدى الموحدين بعد ذلك).

دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين

رأينا أن يوسف بن تاشفين كون مملكة واسعة الأرجاء في المغرب، وتعدته إلى الأندلس، والجزر الشرقية (جزر البليار: ميورقة ومنورقة ويايسة) وقد آل حكم هذه المملكة الواسعة، في آخر القرن الخامس الهجرى، إلى ولده على ولما يصل إلى الثالثة والعشرين من عمره.

وقد عرفت دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين عدة أمور جديدة من أهمها:

١- زيادة الثروة والترف في المجتمع عامة، وبين الأمراء الحاكمين خاصة، بعد البساطة والبداوة التي عاشها مؤسسو دولة المرابطين، وإذا أخذنا على بن يوسف مثالا لذلك رأينا أنه ولد بسببة على شاطئ البحر المتوسط لا داخل الصحراء كآبيه، وتقف بالثقافة الأندلسية، بما فيها من لين وترف حضارى، ويضاف إلى هذه الأمور ما أخذه عن أمه من أسباب الترف.

٢٨- انظر ابن أبي زرع: المرجع السابق ص ١٥٧

٢- غلبة الثقافة الأندلسية في المغرب بحيث صدق ما قيل في هذا العصر من أن الثقافة الأندلسية سادت مراكش. (٢٩)

٣- وربما يكون من إحدى نتائج الأمرين السابقين تغير حاشية القصر المرابطي ذلك أن أمراء المسلمين بعد يوسف بن تاشفين، وخاصة على ابنه، صرفوا همهم إلى استدعاء أعيان علماء الأندلس وأدبائه ورجاله، فاجتمع عدد منهم، لهم كلمة مسموعة عند أمير المسلمين.

لكن الأمر، مع هذا لم يخل من عناصر، بدت أول الأمر ضعيفة، ثم زادت بالتدريج مكونة عناصر الضعف والفناء للدولة المرابطية.

ومن عناصر الضعف هذه:

١- ظهور نفوذ الفقهاء منذ سنة ٥٣٤هـ وقد تدخل هؤلاء الفقهاء في أمور كثيرة من أمور الدولة وكان لهم بعض الآثار الطيبة، إلا أن من أهم ما أخذ عليهم أنهم ضيقوا نطاق الفكر باهتمامهم بكتب الفروع دون كتب الأصول، مما أدى إلى قلة البحث في مصادر التشريع الإسلامي الأصلية، وأهمل علما مثل علم أصول الفقه، وخاصم علماً آخر مثل علم الكلام.

وقد يعد دليلاً على مدى نفوذ الفقهاء، وعلى مدى ضيقهم بالفكر الحر، ما سعى إليه الفقهاء في حرق كتب الغزالي، وذلك بسبب هجومه في كتابه الإحياء على طبقة من الفقهاء تضر أكثر مما تنفع، ولم يكتف الفقهاء بحرق

٢٩-بروفنسال: الاسلام في المغرب والاندلس ، انظر المقالة الخاصة بالمرابطين.

نسخة من الإحياء في ميدان عام، بل عملوا على حرق مؤلفات الغزالي جميعها وتحرير قراءتها في المغرب.(٣٠)

٢- محاولة نساء القصر الإبقاء على دورهن المؤثر على الأزواج والأبناء، استمراراً لنفوذهن أول أيام حياتهن في الصحراء، وقد حرصت هؤلاء النسوة على ممارسة دورهن في البلاط الجديد.(٣١)

٣- كان الأمراء بعد يوسف بن تاشفين أضعف منه وأقل مهاراً في إدارة الدولة، وإذا أخذنا على بن يوسف مثلاً لهؤلاء الأمراء، وإذا أخذنا في الاعتبار أنه أقوى بكثير من أمراء جاعوا بعده، وجدنا أنه انشغل بالعلم والعلماء والعبادة دون أن يعطى إدارة الدولة الوقت الكافي، ووجدنا أيضاً أن أقاربه طمعوا فيه، وحاولوا الاستئثار بالسلطة دونه، كما أعلن بعضهم أنهم أحق بالإمارة من علي (٣٢).

٣٠- انظر المراكشي: المعجب ص ١٧١-١٧٣

٣١- انظر المرجع السابق، ويتفق الدكتور السيد عبد العزيز سالم هذه المقولة، ويصفها بأنها " مقالة ظالمة، وتخامل صريح، وتجاهل لحقيقة الأوضاع السياسية في الأندلس، يبرره تحيز المراكشي للمصامدة الموحدين، وميله إلى قضيتهم " (تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٦٥٦)

٣٢- يقول المراكشي في المعجب (ص ١٧٣) عن علي بن يوسف : " ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كما أبي القاسم بن الجد المعروف بابن القبطرنة ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال ، وأخيه أبي مروان ، وأبي محمد عبد المجيد ابن عبدون " .

٤- اضطرار المرابطين إلى القسوة في مجابهة التأثيرين بالمغرب وكان أمر البسائط سهلاً، أما ثورات الوعر والجبل خاصة فكانت مجابهتها أمراً عسيراً.

٥- تجمع عدة قوى نصرانية في الأندلس ضد المرابطين، واضطرار المرابطين إلى دخول عدة معارك عنيفة في جهات مختلفة في الأندلس أدت إلى استنزاف قواتهم، دون أن يعطى الأندلسيون مساعدات ذات بال في هذا الصدد (٣٣).

٦- ظهور الموحدين في المغرب كأقوى عامل - ساعدته العوامل السابقة - في إنهاء حكم المرابطين بالمغرب والاتدلس كذلك.

٣٣- يلخص المراكشي في المعجب اختلال أحوال المرابطين منذ أوائل القرن السادس الهجري بقوله: "واختل حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين، وأحق بالأمر منه... وأمير المسلمين في ذلك كله يتزهد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من خراج، وعكف على العبادة والتبتل... وأهمل الرعية غاية الإهمال". ص ١٧٧

خاتمة

وضح من حديثنا عن دولة المرابطين أن السمة الدينية كانت واضحة في نشأتها، وذلك بفضل جهود الفقيه عبد الله بن ياسين لكن هذه السمة الدينية لم تستمر سمة وحيدة لحركة الملتزمين، إذ سرعان ما ظهر إلى جانبها سمة أخرى هي السمة السياسية، فتوحدت قبائل الملتزمين، أو اجتمعت، واطلقت إلى بلاد أخرى غير بلاد الملتزمين، بدعوة منها، أو بغير دعوة، (فذلك من الوجهة العملية سيان)، وقد نجح رؤساء الملتزمين بعد عبد الله بن ياسين في تكملة الدور الذي بدأه الفقيه، ربما بصورة أفضل مما كانت عليه الأمور السياسية في حياته، فنتج عن هذه الجهود، الدينية والسياسية، دولة مترامية الأطراف شملت المغرب الأوسط، وربما حال دون أن يفرض المرابطون سلطانهم على هذا الجزء الآخر من المغرب: تعدد وجهات نشاطاتهم العسكرية، وعدم رغبتهم في معاداة بنى حماد (أقاربهم الصنهاجيين) المسيطرين على أجزاء كبيرة من المغرب الأوسط، ثم بنى باديس (أقاربهم الصنهاجيين أيضاً) في المغرب الأدنى.

لكن يلاحظ على دولة المرابطين قصر عمرها، إذ لم يكد يصل عمرها إلى قرن كامل من الزمان، وعدم استمرار القوة التي شوهدت في عصر يوسف بن تاشفين (الذي يعتبر من الوجهة العملية مؤسس قوة المرابطين) والذي غطى عهده نصف عمر الدولة على وجه التقريب.

إذ لم يكد يظهر القرن السادس الهجرى حتى تعاورت على الدولة عوامل ضعف متعددة (سبق أن أوضحناها) ولم يعط الاهتمام لإدارة الدولة وملاحظة شئون الرعية، وربما كان هذا سبباً من أسباب سلبية الأهلين أمام الأخطار التى جبهت دولة المرابطين.

ويلاحظ أن المرابطين قدّموا عدة إنجازات ناجحة فى نواحى متعددة منها من منظور التطور السياسى :

أ- تقليل العامل القبلى، وتهينة الجو السياسى لظهور حكومة بربرية تفرض سلطانها لا على جزء محدود من المغرب، بل على مساحات شاسعة داخله، وعلى مناطق أخرى خارجه، سواء فى الأندلس، أو فى جزر البليار.

ويلاحظ أن المرابطين لم يفيدوا إفادة طويلة من هذه النتيجة وأن هذه الثمرة إنما نعم بجنائها الموحدون أكثر من المرابطين أنفسهم، إذ جاءوا فوجدوا المغرب قد تهيأ لأن يحكم بدولة واحدة، أو بسلطة مركزية^(٣٤)، (لكن

٣٤- كان الأندلسيون يعارضون الضرائب الجديدة ، حتى لو كانت لمجابهة القوى النصرانية ، وقد ظهر هذا الاتجاه منذ عهد يوسف بن تاشفين ، لما رفض قاضى المربة جمع ضريبة جديدة تخصص لجهاد النصارى واشترط القاضى على أمير المسلمين ضرورة استنفاد أموال بيت المال أولاً قبل فرض أية ضرائب جديدة .

يجب أن يؤخذ هذا الأمر بشيء من الحذر ، لأن العامل القبلي لم ينته في المغرب، بل ظل له سلطان واضح على شئون المغرب السياسية أيضاً).

ب- تحقيق وحدة مذهبية دينية للبلاد، عن طريق إكمال نشر مذهب الإمام مالك، وعن طريق إزالة البدع الدينية، والقضاء على عدة نحل بعدت عن جوهر الدين الصحيح، ومن أهمها النحل التي اعتنقتها عدة قبائل جمعها اسم برغواطية وكانت هذه القبائل قد اتبعت بعض المنحرفين الذين ادعوا نزول كتاب عليهم بلغتهم البربرية، واستتوا عدة قواعد دينية جديدة، وعلى الرغم من مقاومة عدة جماعات مغربية قبل المرابطين لهذه النحل الغريبة إلا أنه لم يكمل القضاء على هذه النحل الغريبة إلا على يد المرابطين .

ج- قدموا ألواناً من الإنجازات الحضارية الأخرى لعل من أهمها نشر الحضارة الأندلسية في المغرب، وذلك عن طريق استقدام رجال الأندلس المبرزين في فنون عدة مثل السياسة والأدب، والعمارة.

ولكن يلاحظ في الحضارة التي أنتجها المرابطون عدم بروز الجانب الفكري بالشكل الذي يتفق مع تشجيع بعض أمراء المرابطين للعلم والعلماء، ولعل هذا راجع إلى قصر المدة التي عاشتها بعد فترة التأسيس، وإلى أن المرابطين مالوا إلى استيراد الفكر الأندلسي، وإلى ضغوط الفقهاء الذين ضيقوا مجالات الإبداع الفكري، وقصروا النظر على كتب الفروع دون كتب الأصول كما تقدم.

وقد يكون الجانب المعماري، رغم تتبع الموحدين لأثار المرابطين بالتهديم والإخفاء، هو أوضح الإنجازات الحضارية، وإن لم يخل هو الآخر من التأثير بالطراز الأندلسي، وخاصة بناء القصور والمساجد.

الفصل الثالث

الموحدون

الفصل الثالث

الموحدون

قدمنا أن الملتمين أحسوا منذ أوائل دولتهم أن خطراً يمكن أن يصيبهم من المصامدة الجبليين^(١)، ولذا حرصوا على مراقبتهم، فبنوا قاعدتهم مراكز بحيث تطل على جبل المصامدة، وزاد فبنوا عدة قلاع جبلية، الغرض منها رصد تحركات السكان داخل الجبل.

وحدث ما خافه الملتزمون، إذ بدأ المصامدة في العمل ضد الدولة المرابطية، وذلك منذ عهد أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، وقاد ذلك العمل رجل اسمه محمد بن تومرت، ودعاه أنصاره بالمهدى.

١- المصامدة: علم يطلق على عدة قبائل يوصلها النسابة إلى رجل من أبناء بربر يدعى مصمودة، ومن أشهرها قبائل برغواطة، وقبائل غمارة، وقبائل جبال درن، وهذه القبائل الأخيرة خاصة هي التي شاركت في قيام دولة الموحدين، ومن أهمها قبيلة مرغة، وقبائل تينمل، وقبيلة هنتاة، ودكالة، ووريكة وغيرها.

ابن تومرت:

هو محمد بن تومرت، من قبيلة هرغة المصمودية، وقد أرجع بعض المؤرخين والدارسين نسبه إلى أصل عربي، في حين مال مؤرخون ودارسون آخرون إلى رفض هذا النسب العربي، ويعتبر الرجل بربرياً أصيلاً: *تتباين في تلك جهة النسب*

واعتمد القائلون بنسبه العربي على أنه من نسل الأدارسة الذين اتصلوا بالمصامدة، فابن تومرت على هذا الزعم - طالبي ينتهي نسبه عند القائلين بهذا القول إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (٢).

واعتمد الذين قالوا ببربرية ابن تومرت، على أن أسماء أبائه بربرية واضحة، وقد اعتبر بروفنسال أن نسبة هذا الرجل لم تكن إلا لأمه، إذ اعتبر (تومرت) علماً واضح التأنيث، فيكون الرجل قد انتسب إلى أمه أو (إحدى جداته) جرياً على عادة قديمة كانت تنسب الأبناء إلى أسماء الأمهات، ثم زاد بروفنسال على ذلك فاعتبر أن الأسماء العربية في نسب ابن تومرت إن هي

إلا تسميات جديدة كان أصلها بربرياً، وسحب هذا الحكم على الأسماء العربية التي تسمى بها إخوة محمد بن تومرت. (٢)

وأيّ ما كان الأمر فإن المهم هنا أن محمداً ولد في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري، وأنه نشأ نشأة جبلية، في أسرة لها مكانتها الاجتماعية، ولوالد كان ذا وظيفة مهمة في القرية، وأنه درس دراسته الأولية، شأنه شأن الفتيان بالمغرب الأقصى، فحفظ القرآن الكريم، ودرس ما يتصل به من أمور رسمه وقراءته، وكان محمد ذكياً محباً للعلم (٣) فحرص على مواصلة الدراسة، فدرس في شبابه العلوم الدينية المختلفة والعلوم اللغوية، وغيرها، (وقد أكمل ابن تومرت ثقافته بقيامه برحلة علمية إلى الأندلس ومصر والعراق، أكمل فيها تكوينه الثقافي (٤)، وكان إلى جانب ما حصل عليه من ثقافته ذكياً وصفه بروفنسال بقوله: "ومجمل القول أنه كان شعلة ذكاء بربرية، إذا جاز لنا ذلك، هذا مع صفاء في النفس، لا يخلو من الرقة الحضرية، والريبة فيمن حوله، وتقدير العواقب، والخشونة والقسوة، ولكنه كان في مقابل ذلك لين العريكة في الوقت المناسب. (٥)

٣- انظر الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٦٥

٤- وفي ذلك يقول ابن خلدون: "وشب محمد هذا قارئاً محباً للعلم، وكان يسمى أسافو ومعناه الضياء، لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها" (نفسه).

٥- انظر المراكش: المعجب ص ١٧٨

٦- انظر بروفنسال: المرجع السابق

وبعد عودة محمد بن تومرت من رحلته العلمية في المشرق، أو قل في طريق عودته إلى المغرب حوالي سنة ٥١٤هـ، بدأ نشاطاً يمكن وصفه بأنه نشاط ديني إصلاحي، قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قوبل نشاطه هذا في معظم الأحيان بالصد، وخاصة من قبل القائمين بالسلطة في البلاد التي مر بها، وتعرض ابن تومرت للأخطار بعضها هين، وبعضها وصل إلى درجة من الخطورة كادت تقضي عليه، لولا حماية بعض القبائل الصنهاجية له، ورفضها أن تسلمه لوالى بجاية (من قبل بني حماد). (٧)

واستمر ابن تومرت ينفذ سياسته هذه طول الطريق، وفي مراكش نفسها، وتعرض للعامة والخاصة بالنكير، وتعرض لغضب فقهاء الدولة، الذين حاولوا تحريض علي بن يوسف ضده، ولكن ورع أمير المسلمين منعه من البطش بابن تومرت، ودعى ابن تومرت لمناظرة فقهاء الدولة المرابطية، فتغلب عليهم ببراعته في الجدل وعلم الكلام والأصول، فزاد ذلك من غضب الفقهاء وتحريضهم عليه، واكتفى أمير المسلمين بالأمر بإخراج ابن تومرت بعيداً عن مراكش. (٨)

٧- انظر البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، ص ٥٢، والمراكشي: المرجع

السابق ص ١٨٠

٨- انظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٧٤-١٧٦

وتوجه ابن تومرت إلى قبيلته هرغة، يعيش بين أفرادها، يحتفى بها، وكان قد نجح في ضم عدد من الأنصار والتلاميذ إليه، من أهمهم عبد المؤمن^(٩) والبشير، وأبو حفص الهنتاتي.

واستمر ابن تومرت في قبيلته حوالي ثلاث سنوات، وخلالها وبعدها، كان يبيت في نفوس قبيلته ونفوس المصامدة الجبليين أن المرابطين قد اقتربوا من الكفر، لوقوعهم في التجسيم، بسبب عدم تأويلهم الآيات المتشابهة، وأنهم ارتكبوا عدداً من الأخطاء.^(١٠)

ويواصل ابن تومرت حملته الدعائية المضادة للمرابطين، ويبالغ فيها، وزاد فطلب إلى الناس خلع طاعة المرابطين ويمكن اعتبار دعوته الأخيرة هذه بداية لظهور الاتجاه السياسي في فكره.

٩- التقى ابن تومرت بتلميذه عبد المؤمن بن علي عندما كان الأخير يأخذ طريقه إلى المشرق لمواصلة تعليمه ، فاقنعه بملازمته ، ووعدته بتعليمه ما كان اخذه من المشرق ، وتوسم فيه خيراً انظر ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٧

١٠- (انظر ابن أبي زرع: الأئيس المطرب بعروض القرطاس ص ١٧٣) ومن الأمور المنكرة اتهام مسلم مسلماً بالكفر ، وأتصور أن اتهام ابن تومرت للمرابطين بذلك كان المحرك له عامل المنافسة والسياسة وإلا فالمرابطون مسلمون مالكيون لم يشب إسلامهم شائبة.

وفي إطار الاتجاه السياسي هذا، توجه ابن تومرت إلى مدينة تينمل (١١) الحصينة حيث بث أفكاره بين تلاميذه ومريديه وأنصاره (١٢) وبويع هناك على أنه المهدي الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً ونشر ابن تومرت مبادئه التي تعتمد على فكرة المهدي، ودون هذه المبادئ في كتب خاصة تداولها وانكب عليها تلاميذه ومريدوه وأنصاره وسمى أنصاره بالموحدين (تعريضاً بالمرايطين الذين اتهمهم بالتجسيم والكفر).

وقسم ابن تومرت أنصاره بحسب سرعة مبايعتهم له، فصنف أعلى الأنصار في طبقة سميت بالعشرة أو الجماعة (١٣)، وسميت الطبقة الثانية بالخمسين وسميت الطبقة الثالثة بالسبعين (١٤).

١١- تكتب هذه المنطقة بصورتين أخريين : تينمال ، وتينمل .

١٢- يقول المراكشي في المعجب إنه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم استمال رؤساء القبائل ، وأخذ يذكر المهدي ويشوق إليه، ويسوق الأحاديث فيه ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه ... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وصرح بدعوته العصمة لنفسه " (ص ١٩٠-١٩١)

١٣- من أهم رجال هذه الجماعة : عبد المؤمن بن علي ، وأبو محمد البشير (الذي قتل في معركة البحيرة) وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي (الذي كان له دور كبير في تأسيس الدولة ، وكان أبنائه أصحاب الدولة الحفصية بإفريقية فيما بعد) .

١٤- وقد انفرد بذكرها ابن القطان وحده، وقد رتبت عده جماعات ترتيباً طبقياً كذلك، مثل الطلبة، و الحفاظ، وأهل الدار، ورتبت القبائل بعد ذلك ترتيباً تنازلياً أيضاً فجاءت قبيلة ابن تومرت هرة أول القبائل ثم قبائل تينمل، ثم قبيلة جنيفة وهنتاتة فسائر الجند من القبائل المصمودية الأخرى.

انظر إليذق: أخبار المهدي بن تومرت ص ٣٣-٣٤، وانظر أبي زرع : الأئيس المطرب بروض القرطاس ص ١٦٧، (وانظر ابن القطان: نظم الجمان لوحة ٣٣ ب نقلاً عن عنان: عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول ص ١٧٤)

ويمكن اعتبار هذه الطبقات بمثابة الحكومة أو المجالس الاستشارية ويوضع ابن القطان في نظم الجمار مسنويات هذه الطبقات بقوله: "وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة، لا يحضر معهم غيرهم، فإذا جاء أمر أهون أحضروا الخمسين، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلاً، وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره - يعني ابن تومرت. (١٥)

ويلاحظ أن هذه الطبقات تكونت من رجال من قبائل متعددة فتكون حكومة ابن تومرت (أو رجاله المساعدون على نشأة الدولة) من قبائل شتى لا من قبيلة أو أكثر كما فعل يوسف بن تاشفين.

ومال ابن تومرت، بعد العنف الذي كان بدأ به، إلى سياسة اللين، والتشهير بالمرابطين باطلاق الدعايات المتعددة إلى أن تمكن من اقرار فكرة المهدى في نفوس أتباعه، ولما اطمأن إلى قوة هؤلاء الأتباع بدأ الخطوات العسكرية لإسقاط المرابطين توطئة لإقامة دولة الموحدين، فخرجت جيوش الموحدين تهاجم المرابطين تسع مرات في حياة ابن تومرت، واستغل هذا الرجل براعته الدعائية في نشر أخبار عن انتصارات ضد المرابطين في معارك لم تتشب (لأن المرابطين أثروا عدم القتال وكانوا يقصدون النصيح بالتزام الهدوء والطاعة) وكسب الموحدون عدة معارك حربية، وخسروا بعضاً آخر، ولعل أهم هزائمهم هزيمتهم في موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ (تلك الهزيمة التي أثرت في ابن تومرت وألزمته داره إلى أن توفي بعد بضعة شهور). (١٦)

١٥- ابن القطان لوحة ٤٣ب ثقلًا عن عنان ص ١٩٦ المرجعان السابقان.

١٦- انظر ابن أبي زرع: الأئیس المطرب بروض القرطاس ص ١٧٧-١٧٩

وركز ابن تومرت، بعد وفاة قائد جيوشه في المعركة السابقة على تلميذه عبد المؤمن بن علي. ويدعونا هذا إلى الحديث عن ثاني شخصية موحدية، ومؤسس الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس.

عبد المؤمن بن علي:

ولد عبد المؤمن في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري لأب اختلف في عمله، وإن مال كثير من الدارسين إلى أنه كان فلاحاً يعمل أيضاً في صناعة الفخار، وقد أظهر عبد المؤمن في صباه ذكاء حاداً وقدره فائقة على الفهم والاستيعاب، مما جعله يطمع في أخذ العلم من علماء المشرق، ولكن ابن تومرت يقابله ويقنعه بملازمته ويعلمه هو ما كان قد تعلمه في بلاد المشرق، فيصحبه عبد المؤمن ويتلمذ عليه. (١٧)

ويموت ابن تومرت بعد شهور قليلة من هزيمة البحيرة بعد أن نجح في بث أفكاره في نفوس عدد كبير من مصامدة الجبل، وبعد أن رسم طريق تكوين الدولة، وأظهر عدة تنظيمات سياسية، ولكنه لم يعاين الدولة الموحدية كياناً قائماً، ولم يشهد انتصارات ذات بال ضد المرابطين، وسيقوم عبد المؤمن ابن علي بالدور العملي في تكوين الدولة، وسيكون أول حكامها المتسمين بإمارة المؤمنين.

ذلك أن وفاة ابن تومرت كانت قد وضعت أمام العشرة مشكلة كبرى، هي اختيار من يخلفه، ولستنا ننظر باهتمام كبير إلى مذكرته بعض المصادر من أن ابن تومرت أوصى لعبد المؤمن تصريحاً أو تلميحاً، ذلك

١٧- انظر البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٦

لأن هذا الأمر - على افتراض صحته - لم يلق من العشرة أى اهتمام، فتناقصوا للفوز بهذا المنصب (١٨).

على أن المسألة ما كانت لتعدو أحد اثنين: عبد المؤمن أو عمر بن يحيى الهنتاتى شيخ بنى حفص، ولكل منهما مركزه عند ابن تومرت وميزاته، إلا أن عبد المؤمن - فيما يبدو - كان أكثر تحركاً، فاستطاع أن يمهد الأمر لنفسه، وتمكن من كسب أنصار من الباقين من العشرة، وربما زاد فى ترجيح أن قبيلته لم تكن قوية كقوة قبيلة هنتاتة، أو غيرها من القبائل 'قدمة فى الترتيب الطبقي عند الموحدين.

وقد بويع عبد المؤمن بيعتين أولاهما خاصة بعد وفاة ابن تومرت، والثانية عامة بعد مضى أكثر من سنتين بعد إعلان خبر وفاة ابن تومرت. (١٩)

دور عبد المؤمن فى تكوين الدولة:

كانت الشهور الأربعة التى تلت هزيمة الموحدين فى البحيرة، ثم السنتان أو ثلاث السنوات بعدها فترة ركود عسكرى، إذ الصحيح أن أول خطوة عسكرية لم يقم بها عبد المؤمن إلا بعد إعلان البيعة العامة، وكانت هذه الخطوة العسكرية وما تلاها من الصغر بحيث لم تسبب قزاعاً للمرابطين،

١٨ - ينقل ابن أبى زرع فى هذا الصدد أنه، تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة، وكانوا من قبائل شتى، وأحببت كل قبيلة أن يكون الخلافة منها، وألا يتولى عليها من هو من غيرها، فتناقصوا فى ذلك، وتحاسدوا (الأتيس المطرب بروض القرطاس ص ١٨٤)

١٩ - انظر ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٨

ويمكن المرابطون من إزاحة قوى الموحيدين ناحية المغرب الأرسط، وظنوا أنهم استراحوا من هذه القوات النائرة- لكن المرابطين أفادوا الموحيدين بهذا التصرف، فقد ساعدت القبائل الزناتية عبد المؤمن بن علي، وطالت خطوط إمداد القوات المرابطية وبدأ الأمر يختلف منذ سنة ٥٣٤هـ، عندما غيرت القوتان المتصارعتان خطط القتال، فأما المرابطون فقد عملوا على استئصال الموحيدين بقوات ضخمة، وأما الموحدون فقد وسعوا ميدان القتال، وشنوا معارك في سبع سنوات جمعها أنصار الموحيدين تحت اسم الغزوة الكبرى. (٢٠)

وفي خلال هذه الغزوة الكبرى جرت أحداث أفادت الموحيدين فقد توفي علي بن يوسف، واختلقة قبيلة مسوفة مع قبيلة لمتونة، مما جعل أمراء مسوفة يميلون إلى عبد المؤمن بن علي فيحدث صدع في قبائل الملتمين، ومات تاشفين بن علي أمير المرابطين إثر حصار تعرض له، فلما حاول الخروج من الحصار تردى بفرسه من حافة الجبل، ويضاف إلى ذلك كله أن أحوال المرابطين في الأندلس كانت سيئة وأن الهزائم كانت تتوالى عليهم هنالك. (٢١)

هذه العوامل الجديدة بالإضافة للنشاط العسكري المتزايد للموحيدين مكنهم من تحقيق المزيد من الانتصارات ضد المرابطين، وتمكنت القوة الناشئة من الوثوب إلى مراكز عاصمة المرابطين، وقبضت على آخر إمراء المرابطين وقتلته سنة ٥٤١هـ. (٢٢)

٢٠- انظر ابن أبي زرع: الأئیس المطرب بروض القرطاس ص ١٨٧-١٨٨

٢١- انظر الحل الموشية ص ٩٩-١٠٠

٢٢- انظر ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٢

ولم يكتف الموحدون بذلك، بل وسعوا ميادين تحركاتهم وعملوا على السيطرة على المغرب الكبير، فعبرت قوات إلى الأندلس، وانشغلت قوات أخرى بفرض سيطرة الموحدين على المغربيين الأدنى والأوسط وتأكيد هذه السيطرة على المغرب الأقصى.

وبجهود عبد المؤمن بن علي العسكرية يكمل تكوين الدولة الموحدية، وحرص عبد المؤمن على ألا يبتعد كثيراً عن النمط السياسي الذي حاول ابن تومرت أن يكونه، فأكرم أهل الطبقات المشار إليها من قبل وقلدهم الوظائف الكبرى في الدولة، فواصل بذلك سياسة تمييز هذه الطبقات عن بقية الرعية.

لكن لما استقرت الأمور لعبد المؤمن، نراه يحاول التخلص من نفوذ هذه الطبقات، فيلجأ إلى تعيين أحد أولاده ولياً للعهد دون أن يختار أحد الباقيين من العشرة، ثم يلجأ لتعيين أولاده ولاية على الأقاليم المختلفة في المغرب الكبير ليحكم بذلك قبضته على سائر جهات الدولة، ويلجأ عبد المؤمن كذلك إلى سحب الوظائف المهمة من شيوخ موحدين من أهل عشرة وأهل خمسين (وسبعين) ويسلمها إلى (الطلبة) حيث أعد لهم مدارس خاصة لتخريجهم بغرض تولى الوظائف العامة، وأخيراً وحتى تكتمل له السيطرة أحضر قبيلته (كومية) من منطقة تلمسان إلى حيث يقيم في عاصمة الموحدين واحتاط في خطوته الأخيرة تلك وأحاطها بالكتمان وزود القبيلة بالأموال

والأسلحة حتى تظهر بمظهر قوى خلاب، وفوجى الموحدون بقُدوم أربعين ألف مقاتل كومي إلى مراکش بكامل عدتهم وزينتهم(٢٣).

بهذه الخطوات حول عبد المؤمن الدولة الموحدية إلى ما يمكن أن يطلق عليه الدولة المؤمنية، إذ جعل نظام الحكم وراثياً، وإن حرص في الوقت نفسه على أن ينال ولي عهده تأييد شيوخ الموحدين.

وبدأت أفكار ابن تومرت، وخاصة فكرة المهدي المعصوم، في التقلص، وقد بدأ أوائل هذا التقلص في عهد عبد المؤمن نفسه ثم زاد في عهد المنصور، وزاد المأمون في ذلك فأعلن صراحة رفضه لفكرة المهدي المعصوم(٢٤)، وذلك في أواخر عهده، وتحقق ذلك عملياً في عهد ولده الرشيد، لكن الرشيد الموحدي لم يستطع أن يكمل هذا الأمر، إذ سرعان ما تحرك عليه شيوخ الموحدين، فأحس الرشيد بخطورة الأمر فاضطر إلى إعادة

٢٣- انظر السلاوي: الاستقصا ج٢ ص ١٢٧، وتعتبر هذه الخطوات نوعاً من الابتعاد عن تعاليم ابن تومرت، وقد فهمت بعض القبائل هذا المعنى، وثارَت ضد أفكار ابن تومرت، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لإظهار هذه المعارضة علانية، فأخذ عبد المؤمن بن علي هذه الثورات.

٢٤- أعلن المأمون ذلك صراحة وذم المهدي، وأمر بمحو اسم المهدي من السكة و الخطبة وأعلن النعي عليه للنداء، للصلاة بالبربرية وزيادة النداء لطلوع الفجر، وهو أصبح والله الحمد وأمر بتدوير الدراهم الذي اتخذها ابن تومرت مربعة، ومن عبارات المأمون ضد المهدي قوله: "لا تدعوه بالإمام المعصوم، بل ادعوه بالغوي المذموم ..."، ولم تظهر هذه الأعمال في السكة في عهد المأمون، وقد نفذ الرشيد بن المأمون دعوة أبيه بعد موته انظر ابن أبي زرع: الأئيس المطرب بروض القرطاس ص ٢٥١.

(رسوم المهدي) في الخطبة، والطراز، دليلاً على قوة الطبقات الموحدية
المشار إليها سابقاً. (٢٥)

ضعف الموحدين

قدّمنا أن عبد المؤمن أراد تحويل الدولة الموحدية إلى دولة مؤمنية
بتعيينه أحد أبنائه ولياً للعهد، لكن خلفه أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن لم
يستتب له الأمر من الناحية الدستورية، إلا بعد عدة سنوات مضت يحاول فيها
أتباعه وأنصاره الحصول على بيعة كبار شيوخ الموحدين.

وجاء المنصور بعد يوسف بن عبد المؤمن، فيمثل عهده العهد الذهبي
للموحدين في كل من المغرب والأندلس، بسبب سيطرته القوية على المغرب
الكبير، وانتظام الإدارة، وإصلاحاته المتعددة وانتصاراته الذائعة ضد أعداء
الدولة.

لكن الضعف بدأ يدب بوضوح في جسم الدولة الموحدية منذ عهد
الناصر بن المنصور (٥٩٥هـ - ٦١٠هـ) وشهدت الدولة الموحدية بداية
النهاية، فقد زادت الثورات عدداً وحدة عما كانت عليه من قبل، فأنهكت قوة
الموحدين، ومن أسباب الضعف أيضاً الهزائم العسكرية المتكررة في الأندلس
والتي بدأت بالهزيمة الساحقة في العقاب سنة ٦٠٩هـ، تلتها هزيمة أخرى في
غرب الأندلس، وهي هزيمة قصر أبي دانس سنة ٦١٣هـ. (٢٦)

٢٥- انظر ابن أبي زرع: المرجع السابق ص ٢٥٥

٢٦- انظر تفاصيل هاتين المعركتين في السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦-

ومن أسباب الهزيمة، ضعف مركز الخلافة وسيطرة أقارب الخليفة عليه، وتعيين خلفاء صغار السن، والتنازع الذي دار حول هذا المنصب، ذلك النزاع الذي أدى إلى حدوث انقسام في الأسرة الحاكمة وظهور أكثر من خليفة في وقت واحد، كما حدث في عهد المأمون وابنه الرشيد، عندما عاصر المعتصم بن الناصر عصر الأول، وجزءاً من عصر الثاني إلى أن مات المعتصم سنة ٦٣٣هـ، بما في هذا النزاع من صراع عسكري استنفذ جزءاً من طاقات الدولة قبيل أواخر عهدها.

ونتيجة لضعف الخلفاء والإدارة وكثرة الثورات، ظهر عامل ضعف جديد، وهو انفصال أجزاء من المغرب عن جسم دولة الموحدين، إذ شهد أواخر الثلث الأول من القرن السابع الهجري انفصال إفريقية تحت حكم بني حفص، وانفصال معظم المغرب الأوسط تحت حكم بني زيان، ثم ظهر خطر دولة ناشئة ثالثة في المغرب الأقصى هي دولة بني مرين، التي ظلت تنمو حتى تمكنت من القضاء على الموحدين وقتل الخليفة أبي دبوس سنة ٦٦٨هـ، وتسقط الدولة الموحدية سنة ٦٦٨هـ (٢٧) ويقوم على أنقاضها ثلاث دول، أولاها من ناحية الشرق الدولة الحفصية، وثاني هذه الدول القائمة على أنقاض الموحدين الدولة الزيانية أو دولة بني عبد الواد، في المغرب الأوسط، والدولة الثالثة في المغرب الأقصى وهي الدولة المرينية، التي تمكنت - كما تقدم - من هزيمة الموحدين، وقتل آخر خلفائها والقضاء عليها.

٢٧- قتل الواثق بالله أبو دبوس منسلخ ذي الحجة ٦٦٧هـ. ويدخل المرينيون

مراكش ٩ من المحرم سنة ٦٦٨ هـ (ابن أبي زرع المرجع السابق ص ٢٦١، ٢٧٧).

الفصل الرابع

الدول القائمة على أنقاض الموحدين

الدولة الحفصية، والدولة الزيانية، والدولة المرينية

الفصل الرابع

الدول القائمة على أنقاض الموحدين

كانت الدولة الموحدة هي آخر الدول الكبرى التي امتد سلطانها على المغرب كله، أو على جزء كبير منه، ولم تشهد المنطقة دولة كبرى مثلها حتى الآن .

وفي أوئل القرن السابع الهجري ، ومع بداية هرم الدولة الموحدية بدأ في الظهور في المنطقة ، ظاهرة قيام أسر حاكمة أو دويلات ، إما بموافقة الدولة الموحدية نفسها وإما نتيجة لعوامل التدهور والضعف ، وظهور تكتلات قبلية كبيرة.

والدول التي قامت في هذه الفترة أعنى من بدايات القرن السابع الهجري إلى منتصفه تقريباً، هي الدولة الحفصية في المغرب الأدنى، والدولة الزيانية (أو دولة بني عبد الواد) في المغرب الأوسط ، والدولة المرينية في المغرب الأقصى ، بدأ أصحاب الدولة الأولى منها كولاة للموحدين في إفريقيا، ثم سرعان ما أحسوا بقوتهم ، فأعلنوا انفصالهم في كيان سياسى مستقل ، وبدأت الدولتان الأخريان كتجمعات قبلية، كل في منطقته، لكن بني مرين كانوا أكثر تنظيماً وتوحداً وقوة ، فمثلوا كياناً سياسياً متحداً ، في حين لم تنجح الدولة الزيانية في الابتعاد التام عن الشكل القبلى وظلت الخلافات القبلية فيها ، بالإضافة إلى عوامل أخرى ، عائقاً لها عن ظهورها بمظهر

مماثل للقوتين المجاورتين لها لدولة الحفصية شرقيها، والمرينية غربيها وقد استمرت هذه الدول إلى القرن العاشر الهجري ووقعت خلالها إما تحت النفوذ العثماني ، وإما تحت الاحتلال الإسباني وفيما يلي كلمة موجزة عن الدولة الحفصية.

الدولة الحفصية في المغرب الأدنى^(١)

تتسب هذه الدولة إلى أبي حفص عمر بن يحيى الهنتائي ، أحد عشرة المهدي ابن تومرت الذين مر ذكرهم ، وكانت له مكانة كبرى عند ابن تومرت كما كانت له مكانة مماثلة في دولة عبد المؤمن بن علي، وظل لأبنائه مثل هذه المكانة في الدولة الموحدية بعد ذلك .

وعندما تولى الناصر الموحدى وجد أن منطقة المغرب الأدنى كثيرة المشاكل، لبعدها عن مركز الدولة في المغرب الأقصى ، فواصل إرسال الجيوش إليها لتمهيدها ، ثم اضطر للتوجه إليها بنفسه مع أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ولما هدأها ومهداها ، وأقام بها سنة ، رأى ضرورة إبقاء أحد رجال الدولة المهمين ، من ذوى الخبرة ، ومن أهل الثقة ، فى الوقت نفسه ، فلم يجد أحداً أقدر على ذلك من أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، فطلب إليه البقاء فى المغرب الأدنى لحفظه وحمايته ، فأبى وامتنع، لأنه بذلك سيبتعد عن مركز الدولة، وموقع الأهمية فيها، باعتباره أحد أهم مشيخة

١- من المصادر الرئيسة للدولة الحفصية : العبر لابن خلدون الجزء السادس ، والأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماخ ، والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن القنفذ ، وتاريخ الدولتين الموحدتين والحفصية للزركشى ، وغيرها .

الموحدين في ذلك الوقت ، فالج عليه الخليفة الناصر ، وأخيراً اضطر أبو محمد إلى الموافقة بعد شروط اشترطها على الناصر ، بادر الناصر إلى الموافقة عليها جميعاً^(٢) وهكذا تولى أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ولاية إفريقية ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٦٠٣ واستمر عبد الواحد في إفريقية حوالي خمسة عشر عاماً (رغم اشتراطه على الناصر ألا يمكث أكثر من ثلاثة أعوام) أظهر فيها مزيداً من المهارة والكفاية ، إلى أن توفي أول أيام سنة ٦١٨ هـ بتونس .

لقد أوجد عبد الواحد البذرة الحفصية في إفريقية ، ثم جاء بعده مؤسس الدولة الحفصية ، وهو ابنه أبو زكريا يحيى وذلك في رجب سنة ٦٢٥ هـ والياً على الإقليم من قبل الموحدین لكنه سرعان ما مال إلى الاستقلال ، واستغل فرصة الخلاف الداخلي في الأسرة المؤمنية في مراكش ، وتصارع فردين منها هما المأمون ، ويحيى بن الناصر ، فوجد خليفته في وقت واحد ، فأسرع أبو زكريا يحيى بإسقاط بيعة المأمون ، وبويع لأبي زكريا في تونس أميراً على إفريقية سنة ٦٢٧ ثم تكررت هذه البيعة مع تأكيد قوته وسيطرته على الإقليم.

٢- من أهم هذه الشروط ، التي اشترطها عبد الواحد بن أبي حفص على الناصر

الموحدي والتي يظهر فيها علو مكانة عبد الواحد ، أن يختار من رجال الموحدین من يجلس معه ويكون عوناً له في جميع ضرورياته ، وألا يتعقب عليه في أموره في تولية ولا عزل

ومد أبو زكريا سلطانه إلى بعض بلدان المغرب الأوسط فأخذ قسنطينة سنة ٦٢٨هـ، فأسرع أخوه والى بجاية بالاتضمام إليه ، واشتهرت الدولة الحفصية ، وجاءته البيعات من جهات متعددة ، واستغاثت به بلنسية الأندلسية سنة ٦٣٦هـ (٢) واستولى أبو زكريا على الجزائر في هذه السنة أيضاً ، وافتتح تلمسان سنة ٦٣٩هـ ، وعين عليها صاحبها يغمراسن بن زيان .

وقوى أمر أبي زكريا ، وشجعه بعض الشعراء على التلقب بأمير المؤمنين (لقب الخلافة) (٤) لكنه رفض مكتفياً بلقب (الأمير) تادباً مع خلفاء الدولة الموحدية الذين لم يفقدوا، وقتها، كامل قوتهم.

وهكذا أنشأ الأمير أبو زكريا يحيى للحفصيين دولة في المغرب الأدنى ، ضم إليها بعض مدن من المغرب الأوسط ، كما هيمن على بقية ممتلكات بني عبد الواد في المغرب الأوسط ، حيث دان بنو عبد الواد بالطاعة للحفصيين وخطبوا لهم ، وتوفي الأمير أبو زكريا أول أمراء الدولة في سنة ٦٤٧هـ فكانت مدة إمارته حوالي عشرين سنة (غير الفترة التي قضاها قبلها والياً على الإقليم من قبل الموحدين).

٣- وقد ابن الأبار إلى أبي زكريا مستغيثاً به من تطاول النصارى على بلنسية وأنشده قصيدة طويلة أولها

أبرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا

فاعد العدة للمعاونة، لكن النصارى سبقوه إلى احتلالها

٤- قال شاعره :

الأصل بالأمير المؤمنين فأتت بها أحق العالمينا

والجدير بالذكر هنا أن بعض مؤرخي الدولة الحفصية من المعاصرين لأوائل عهدها ، لم يظهر نشأة الدولة على أنه انفصال عن الدولة الموحدية، بل على أنه اقتسام لحق كان لبنى حفص من قديم، نالوه وقتها، فبينوا أن الكلمة الموحدية انقسمت منذ إمارة أبى زكريا قسامين: مؤمنية (فى أبناء عبد المؤمن بن على) وحفصية (فى اولاد أبى حفص عمر الهنتاتى)(٥).

ومن منظور التطور السياسى للمغرب، خطا محمد بن أبى زكريا خطوة أخرى فى سبيل توطيد الدولة وتوسيع حدودها ، وتطوير شكل رئاستها ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧هـ، ووصلته عدة بيعات فى المغرب الأقصى ، كما يشير مؤرخو الدولة إلى ورود بيعة أهل مكة ، وهنا يطور محمد بن أبى زكريا شكل الحكم من الإمارة إلى الخلافة وتلقب بالمستنصر : (وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين لذى الحجة من سنة خمسين وستمائة رأى المولى المستنصر الاقتصار على لفظ الأمير قصوراً فسمى بأمير المؤمنين ، وأمر ان يذكر ذلك فى الخطبة ويطبع فى الذهب وفى ذلك اليوم تلقب بالمستنصر)(٦). وتوفى المستنصر بعد أن تولى ثمانية وعشرين عاماً ونصفاً تقريباً ، ومنها حوالى ستة وعشرين عاماً تلقب فيها بلقب خليفة.

٥- انظر ابن القنفذ: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٨ .

٦- انظر الزركشى :تاريخ الدولتين ص ٢٩.

ومن الأحداث المهمة التي وقعت في عهد المستنصر الحفصي، مقدم حملة صليبية إلى تونس، يقودها الملك الفرنسي لويس التاسع، تلك الحملة التي اشتهرت باسم الحملة الصليبية الثامنة (مكملة سبع الحملات الكبرى التي وجهها الصليبيون ضد المشرق الاسلامي). وقد اختلف المؤرخون حول سبب هذه الحملة من بين قائل إن بعض التجار الفرنسيين زعم أن أحد رجال الدولة الحفصية اقترض منهم ثلاثمائة ألف دينار، فأبى المستنصر أن يصدقهم، وردهم، أو أن حديثاً جرى في حضرة المستنصر جاء ذكر الفرنسيين فيه، فقال "هم الذين أسر هؤلاء طاعيتهم ثم أطلقوه، يشير إلى الأتراك الذين بين يديه (٧)". هذا السبب أو ذاك إنما هو أسباب مباشرة واهية، والحقيقة التي يمكن استخلاصها من حوادث التاريخ، ومن شخصية لويس المتعصبة جداً دينياً، ومن الحشود الأوربية التي استنفرت وحشدت، ومن الإمكانيات المادية المقدمة، تؤكد أن هذه الحملة هي استمرار لشن حملات صليبية على المغرب، تستهدف مد النفوذ الأوربي إلى هذه المنطقة.

ويؤرخ لهذه الحملة بسنة ٦٦٨هـ، أي بعد حملة لويس التاسع على دمياط (٦٤٧هـ) بثنتين وعشرين سنة.

وقد تمكن الصليبيون من النزول على شواطئ تونس في ذي القعدة بالقرب من قرطاجنة القديمة، وتحصنوا بها، ووقف جند الحفصيين إزاءهم، ولم يتمكن الصليبيون من دخول تونس، كما لم يتمكن الحفصيون من القضاء عليهم، أو طردهم، ثم أصاب الصليبيين وباء الطاعون، ومات لويس التاسع في المحرم سنة ٦٦٩هـ، وجرت

٧- انظر ابن الشماخ: الأدلة البينة النورانية ص ٦٥.

المفاوضات للصلح وتم الاتفاق على جلاء الصليبيين في مقابل أن يأخذوا ١١١٠ كَنْطَار فضة خالصة ، وكان نزولهم على تونس سبباً في إتلاف الأموال التي تركها الأمير أبو زكريا.

ثم مرت الدولة الحفصية بعد المستنصر (٦٧٥هـ) بفترة ليست بالقصيرة تردادت فيها بين القوة والضعف ، فظهر النزاع والاضطراب داخل الأسرة الحاكمة ، وتعدى بعضهم على بعض بالقتل أو بالخلع، وظهر من ادعى أنه من الأسرة، واستولى على الحكم حوالى سنة ونصف (فسمى بالدعى) ، واختلفت الدولة بين الانقسام والعودة إلى الوحدة ، حيث انقسمت الدولة قسمين أولهما شرقى، ضم الممتلكات الإفريقية بالمغرب الأدنى، وثانيهما غربى، ضم ممتلكات الدولة في المغرب الأوسط، واستغل بنو مرين الداخلين في طاعة الحفصيين هذا الانقسام وهذا الضعف، فدخلوا تونس مسيطرين على الدولة الحفصية ، ودخلت الجيوش المرينية تونس بعد أن قبضوا على الأمير أبى حفص عمر وقتلوه في جمادى الأولى سنة ٧٤٨هـ^(٨)، ودخل أبو الحسن المرينى تونس فبايعه فى يوم واحد خمسون من الأسر الحاكمة الحفصية والزيرية وبعض الأمراء الأندلسيين. ثم اضطر أبو الحسن للعودة إلى مراكش بعد أن بلغه خبر استيلاء أبيه على السلطة هناك ، وترك أبو الحسن ولده الفضل فى تونس ، فانتهز الأمير الحفصى أبو العباس الفضل الفرصة ، وأخرج بنى مرين منها فى آخر ذى القعدة سنة ٧٥٠هـ، فكانت مدة السيطرة

٨- انظر الوزير: الحلل السندسية ج١ ق ٤ ص ١١٠٤-١١٠٧.

المرينية على ممتلكات الدولة الحفصية حوالى عامين ونصف، ثم مرت الدولة بفترة من القوة بدأت فى عهد أحمد بن المستنصر (٧٧٢-٧٩٦) ثم ولده أبى فارس عبد العزيز (٧٩٦-٨٣٣) ثم ولده أبى عبد الله محمد المنتصر (٨٣٣-٨٣٩) ثم ولده أبى عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣) وتمثل هذه الحقبة فترة القوة الثانية والأخيرة فى الدولة حيث آل أمر الدولة بعدها إلى الضعف فالسقوط. ويمثل عهد أبى فارس عبد العزيز وحفيده أبى عمرو عثمان واسطة عقد الدولة الحفصية فالأول: "واسطة بنى أبى حفص"، وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدون يظهروا فى خلافتهم النقص، والثانى هو "ختام الدولة الحفصية"، ونظام المحاسن الفاخرة فى البلاد الإفريقية"، واستمرت الدولة بعد هذا فترة قصيرة بقوة الدفع، إلى أن انتهى عهد الأمير أبى عبد الله محمد الحسن حفيد أبى عمرو عثمان سنة ٩٣٢هـ، ومع هذا فقد شهد عهده عدة متغيرات خطيرة، فقد بدأ عهده بداية حسنة، ثم حدث اضطراب سياسى، وظهرت قوة العثمانيين الأتراك، فأخذوا منه قسنطينة، وتمكن خير الدين من أخذ تونس، ففر منها الحسن، وفتح على مدينة تونس "الباب الذى أعجز سده"، وكان السبب للقضاء الذى لم يمكن لهم رده"، إذ لجأ الحسن -شأن فترات الضعف فى التاريخ الإسلامى- إلى النصارى فاستغاث بالأسبان المتهفنين والمتوثبين لأخذ الإقليم، فمكنهم من حصن حلق الواد، وغلظ أمر الأسبان حتى شاركوا الحسن فى إدارة الدولة، حيث شاركه فى ذلك خوان جاكمو قائد جيش النصارى، فاضطر أحمد بن الحسن إلى الثورة على أبيه، فعزله وسمل عينيه، وأخذ يحاول إصلاح ما خرج

عن حد الإصلاح ، "وأحمد هذا لو سلم من ترادف المحن ، لم يرض بما رضى به غيره ، ولما التفت لما يقوم به من مصالح البلاد وجد الخزائن خالية لما كان أثلّفها أبوه الحسن " فترادف على أحمد بن الحسن الوجود النصراني الأسباني في البلاد ، وقلّة الأموال ، وعيث الأعراب ، وصراع العثمانيين ولما وصل إليه العثمانيون سنة ٩٧٧هـ رأى أنه لا قبل له بهم ، فخرج من القصبّة بأمواله فأخذها منه الأعراب ، فلم يجد ملجأ إلا الحصن الذى بناه الأسبان فى حلق الوادى " ودق باب الحصار (الحصن) ليلاً ، فلما عرفوه رثوا له وقبلوه".

ووقع أحمد فيها وقع فيه أبوه وارتقى فى أحضان الأسبان وطلب منهم أسطولاً يحميه ، لكنهم اشترطوا على أحمد أن يوقع على اتفاق بمقاسمة البلاد مالاً وحكماً ، فوافق على مقاسمة الأموال فقط دون مقاسمة الحكم ، فرفض الأسبان فقال له القائد الأسباني : " فإن قبلت والإ عندى تحت يدى من يقبل الشروط وهو أخوك محمد " فأفاق أحمد ورفع يده عن الأسر ، واتجه إلى صقلية ، وبقي هنالك إلى أن مات ولما تولى محمد بن الحسن ، قسمت المدينة قسمين أحدهما للمسلمين والآخر للنصارى ، وارتكب الأسبان عدة فظائع ، ولكن أهل باب السويقة انحازوا إلى ناحية ، ومنعوا أنفسهم من الإهانة ، وأما أهل باب الجزيرة والمدينة كانوا تحت رمية المدافع ، فلم يجدوا بداً من المساعدة .

وقد تمكن الأسبان من طرد الأتراك وسكن قبطان النصارى بالقصبّة مع الأمير محمد يجلسان معاً فى السقيفة للحكم. وقوى أمر الأسبان فى تونس

وضاق الأمر بحيدر باشا التركي بالقيروان " وتحركت عند حيدر باشا
الحرارة الإيمانية ورأى الإقامة في حياة بلا جهاد ، مما لا يرتضي عند الله
ولا عند العباد ، فتحرك بمن معه لتونس ونزلوها "قوافهم على حصار تونس
بمدد بحري عثمانى قاده سنان باشا سر دار العسكر وقلج علي قبطان ،
فتمكنوا من تونس وطردوا الاسبان سنة ٩٨١ ، ولم يلبث في السنة التالية أن
أعلنت نهاية الدولة الحفصية التي عاشت مدة طويلة وصلت حوالى ثلاثة
قرون ونصف القرن.

دولة بنى عبد الواد (الدولة الزيانية)

ينسب بنو زيان أصحاب الدولة الزيانية إلى بنى عبد الواد، إحدى القبائل الزناتية التي كان لها انتشار واسع بالمغرب الأوسط، وهم إخوة بنى توجين وبنى مصاب، وهم من بنى يادين جميعاً، فهم زناتيون، وتفتري بنو عبد الواد إلى بطون كثيرة أظهرها ستة، وكانت رئاستهم فى بنى القاسم بسبب مدة شوكتهم، وتقويهم بزعمهم أنهم من أولاد القاسم بن إدريس، ويظهر من سياق حديث ابن خلدون عدم تقبله لهذا النسب، من قوله: "وربما قالوا فى هذا القاسم إنه ابن محمد بن إدريس، أو ابن محمد بن عبد الله، أو ابن محمد بن القاسم، وكلهم من أعقاب إدريس، زعماً لا مستند له، إلا اتفاق بنى القاسم عليه، مع أن البادية بعداء عن معرفة هذه الأنساب، والله أعلم بصحة ذلك"^(٩) ومن هنا فلا يعول كثيراً على من قال بنسبتهم إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد عاشت قبيلة بنى عبد الواد فى القرن السابع فى تقلبات سياسية حادة فى المنطقة، واختاروا أن يساندوا الموحدين ضد مناوئهم أول الأمر، ومن هنا كافأهم الموحدون بعدة إقطاعات واسعة بالمغرب الأوسط.

٩- انظر ابن خلدون: العبر ج ٧ ص ٧٢، وكذا ص ٧٧، ٥٨

وأحس بنو عبد الواد بما وصل إليه الموحدون من ضعف في النصف الأول من القرن السابع الهجري، والتفتوا كذلك إلى بداية ظهور بعض التكتلات في المغربين الأدنى والأقصى، حيث ظهر النفوذ الحفصي ولاية أول أمرهم، ثم مستقلين بالمغرب الأدنى.

كما التكتل المريني بالمغرب الأقصى ضد الموحدين فتطلع بنو عبد الواد أن يكون لهم حظ من استقلال.

وتحرك بنو عبد الواد محاولين لم قواهم وإيجاد نوع من التكتل القبلي، قالت رئاستهم إلى عدد من رجالهم، من أهمهم جابر بن يوسف بن محمد، ومالوا إلى تلمسان، غير أن نفوذهم السياسي ازداد وضوحاً بتولى يغمراسن ابن زيان^(١٠) رئاستهم سنة ٦٢٣هـ، فحرص على تجميع القوى، وزيادة تحالف قبيلته مع قبيلة زغبة العربية، ويعتبر يغمراسن من جانب آخر - مؤسساً لنظم الزيانيين ومؤسسات دولتهم الوليدة، فقد "فرض العطاء، واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث في الأعمال، ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي"،^(١١) وتعد ولاية يغمراسن ولاية استكفاء، إذ إنه عطل كل نفوذ موحدى في منطقته، دون أن يقطع الخطبة للخليفة الموحدى، "ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على المنابر من رسوم دولتهم وألقاب

١٠- مثل التتسى، صاحب الدر والعقيان في شرف بنى زيان (مخطوط) ورقة

رقم ٧.

١١- انظر ابن خلدون المرجع السابق ص ٦٢

ملكهم إلا الدعاء على المنابر للخليفة بمراكش، وتقلد العهد من يده، تانياً للكافة، ومرضاة للأكفاء من قومه" (١٢)

وكان يغمراسن يواجه عدة قوى، أوائل دولته، منها قوة الموحدين، والحفصيين، وتجمع بنى مرين، وتجمع بنى توجين ومغراوة وغيرهما من القبائل المنافسة له في المغرب الأوسط. (١٣) وكان على يغمراسن أن يوجد لنفسه ولقومه خلال هذا الزحام، مكاناً، ومكانة وبعد نجاح بنى حفص في دخول تلمسان، وفرض سيطرتهم عليها، يضطر يغمراسن إلى تحويل طعنه من الموحدين إلى الحفصيين يعرضه لغضب الموحدين، وإلى خروج السعيد الموحدى بنفسه لقتاله، غير أن السعيد يهزم ويقتل في هذه المعركة. (١٤) فتستمر طاعة بنى زيان للحفصيين إلى آخر القرن السابع الهجرى.

ويتأكد ظهور شكل دولة بنى زيان فى عهد أبى حمو موسى بن عثمان ابن يغمراسن، الذى تولى أواخر شوال سنة ٧٠٦ هـ، فهو - حسب تعبير ابن خلدون - "أول ملوك زناتة رتب مراسم الملك، وهذب قواعده، وقلب لهم مجن بآسه، حتى ذلوا لعز ملكه، وتادبوا بآداب السلطان، كما يؤكد ابن خلدون هذا القول بما سمعه من عريف بن يحيى، شيخ قبيلة سويد الزغبية الهلالية، قال: "هو معلم السياسة الملوكية لزنانة، وإنما كانوا رؤساء بادية، حتى قام فيهم موسى بن عثمان فحد حدودها، وهذب مراسمهما، ونقل عن ذلك أمثاله وأنظاره، فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه" (١٥)

١٢- المرجع السابق ص ٧٩.

١٣- انظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد ج ١ ص ١١٥.

١٤- انظر ابن أبى زرع: الأئیس المطرب بروض القرطاس ص ٢٥٧

١٥- العبر ج ٧ ص ٩٨، ٩٩.

وكان الصراع الدائم للدولة الزيانية ضد بني حفص في الشرق، وبني مرين في الغرب. وضد قبائل بني توجين ومغراوة في المغرب الأوسط وغلب على بني حفص مد سلطانهم على بني زيان، وإن لم يساموا من عدة غارات قام بها بنو زيان ضد ممتلكات الحفصيين الغربية في بجاية وقسنطينة، بل ضد تونس نفسها أحياناً، كما تمكن بنو مرين من سلطانهم على المغرب الأوسط أكثر من مرة وهم إن كانوا أخفقوا في أخذ تلمسان أوائل القرن الثامن بعد الحصار الطويل الصعب ضدها، إلا أنهم نجحوا في أخذها سنة ٧٣٧هـ إلى سنة ٧٤٩هـ (١٦)

أقبلت قوات إسبانيا أوائل القرن العاشر الميلادي تحتل موانئ المغرب الأوسط، فأخذت وهران سنة ٩١١هـ، وأخذت بجاية وتدلّس، وشرشال سنة ٩١٥هـ، وضعف الأمراء الزيانيون، ودفعوا أموالاً قررتها عليهم إسبانيا، ولما حاولت بعض القوى الزيانية الاتصال بالعثمانيين، نشب صراع في هذه المنطقة، بينهم وبين الأسبان، ولما لم يتمكن العثمانيون من تمام فرض سيطرتهم على المنطقة، أوسع هذا المجال لقوة سياسية جديدة هي قوة الأشراف السعديين، التي نجحت في أخذ تلمسان سنة ٩٥٧، لكن الأتراك يطردونهم، ثم ينهون الدولة الزيانية سنة ٩٦٢هـ بعد خلعهم آخر أمراء بني زيان: الحسن بن عبد الله (١٧) ثم في سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧٦٠هـ (١٨)

وهكذا عانت دولة بني زيان من عدة أمور أهمها طمع جيرانها فيها، والخلافات القبلية الظاهرة والمستمرة في المغرب الأوسط، وزاد على ذلك

١٦- انظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد ص ١٤١، ١٤٢

١٧- انظر الجيلاكي: تاريخ الجزائر العام ج١، ص ٢٢١-٢٢٩.

١٨- انظر ابن خلدون: العبر ج٧ ص ١٢٠-١٢٢

وجود عدة مشكلات داخل الأسرة الزيانية نفسها^(١٩)، ويبدو أن دولة بني زيان لم تنجح تماماً في القضاء على النزعة القبلية في المغرب الأوسط، مجال ملكهم، كما ظهر عامل آخر خطير آخر دولة بني زيان، ساعد - بالإضافة إلى العوامل السابقة - في القضاء على الدولة الزيانية، أعنى تطلع الإسبان إلى هذه المنطقة، فقد أقبلت قوات إسبانيا أوائل القرن العاشر الميلادي تحتل موانئ المغرب الأوسط، فأخذت وهران سنة ٩١١ هـ، وأخذت بجاية وتدلّس، وشرشال سنة ٩١٥ هـ، وضعف الأمراء الزيانيون، وجمعوا أموالاً قرّ بها عليهم إسبانيا، ولما حاولت بعض القوى الزيانية الاتصال بالعثمانيين، نشب صراع في هذه المنطقة بينهم وبين الإسبان، ولما لم يتمكن العثمانيون من تمام فرض سيطرتهم على المنطقة، أوسع هذا المجال لقوة سياسية جديدة هي قوة الأشراف السعديين، التي نجحت في أخذ تلمسان سنة ٩٥٧ هـ، لكن الأتراك يطردونهم، ثم ينهون الدولة الزيانية سنة ٩٦٢ هـ بعد خلعهم آخر أمراء بني زيان، الحسن بن عبد الله. (٢٠)

١٩- مثل صراع أبي تاشفين الأول ضد أبيه أبي حمو موسى (٧٠٧-٧١٨) وأبي تاشفين الثاني ضد أبيه أبي حمو موسى وأبي تاشفين الثاني ضد أبيه أبي حمو موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١)، وقتل يوسف بن موسى الثاني لأبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني، ليقتله بدوره أخوه أبو زيان.

٢٠- انظر الجيلاي: تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٢١-٢٢٩.

ثبت حكام الدولة الزيادية

- ١- يغمراسن بن زيان ٦٣٣هـ
- ٢- عثمان بن يغمراسن ٦٨١
- ٣- أبو زيان محمد (الأول) بن عثمان ٧٠٣
- ٤- أبو حمو موسى (الأول) بن عثمان ٧٠٧
- ٥- أبو تاشفين عبد الرحمن (الأول) بن موسى ٧١٨
- ٦- عثمان (الثاني) بن عبد الرحمن ٧٤٩-٧٥٣
- [فترة النفوذ المريني ٧٥٣-٧٦٠هـ]
- ٧- أبو حمو موسى (الثاني) بن يوسف ٧٦٠هـ
- ٨- أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني بن موسى (الثاني) ٧٩١
- ٩- يوسف (الأول) بن عبد الرحمن ٧٩٥
- ١٠- يوسف (الثاني) بن موسى ٧٩٥
- ١١- أبو زيان محمد (الثاني) بن موسى ٧٩٦
- ١٢- أبو محمد عبد الله (الأول) بن موسى ٨٠١
- ١٣- أبو عبد الله محمد (الثالث) بن موسى ٨٠٤
- ١٤- عبد الرحمن (الثالث) بن محمد (الثالث) ٨١٣
- ١٥- السعيد بن موسى الثاني ٨١٤
- ١٦- أبو مالك عبد الواحد بن موسى ٨١٤
- [ثم من ٨٣١-٨٣٣هـ]
- ١٧- محمد (الرابع) بن عبد الرحمن (الثاني) ٨٢٧-٨٣١هـ
- [ثم من ٨٣٣-٨٣٤هـ]

- ١٨- أبو العباس أحمد بن موسى الثاني ٨٣٤
- ١٩- محمد (الخامس) بن محمد ٨٦٦
- ٢٠- تاشفين بن محمد الخامس ٨٩٠
- ٢١- محمد (السادس) بن محمد الخامس ٨٩٠
- ٢٢- محمد (السابع) بن محمد (السادس) ٩٠٢
- ٢٣- أحمد (الثاني) بن محمد (السادس) ٩٠٩
- [ثم من ٩٢٣-٩٢٤]
- ٢٤- موسى (الثالث) بن محمد (الخامس) ٩٠٩
- [ثم من ٩٢٤-٩٣٤]
- ٢٥- عبد الله (الثاني) بن محمد الخامس ٩٣٤
- ٢٦- محمد (الثامن) ٩٤٧-٩٤٩
- [ثم ٩٥٠]
- ٢٧- أحمد (الثالث) ٩٤٩
- [ثم ٩٥٠-٩٥٧]
- ٢٨- الحسن بن عبد الله الثاني ٩٥٧

[وقوع الدولة بعضها تحت الاحتلال الأسباني، ثم سقوط الدولة
وفرض العثمانيين سيطرتهم على المغرب الأوسط سنة ٩٦٢هـ]

الدولة المرينية

بنو مرين، مثل بنى عبد الواد قبلهم، فخذ من زناتة، كثير العدد، قوى الشوكة، اتخذوا مما يلي تلمسان غرباً إلى المغرب الأقصى مواطن لهم (٢١)، وقد استغل بنو مرين بدورهم مرحلة الضعف التى مر بها الموحدون أواخر عهد الناصر الموحدي، فبدأوا يتكثرون، وبدأوا يطمعون أن يوجد لهم مكان على الخريطة السياسية.

ومع قرابة بنى مرين لبنى عبد الواد إلا أنه كثرت الاحتكاكات بين القبيلتين، وأوقع بنو عبد الواد سنة ٥٤٠هـ هزيمة شديدة ببنى مرين، واضطروهم إلى الدخول إلى الصحراء، وإن لم يمنعهم هذا من المشاركة فى غزوة الأراك لم نديهم الموحدون للجهاد فى الأندلس، وقادهم محيو إلى سنة ٥٩١هـ ثم عبد الحق بن محيو، واستمر النزاع فى عهده بين قبيله وقبيلة بنى عبد الواد، وتتافس القبيلان على سجلماسة، فكانت من نصيب بنى مرين أولاً وتمكنوا من تعيين عمالاً عليها (٢٢).

٢١- النظر بن خلدون: العبر ج٧ ص ١٦٧

٢٢- المرجع السابق.

ولما قوى أمر بني مرين في الصحراء، وضعف أمر الموحيدين، زحف بنو مرين إلى داخل البلاد، وأخذوا يفرضون نفوذهم على أجزاء من المغرب الأقصى، إلى أن تمكنوا من الانتصار على الموحيدين في عدة لقاءات عسكرية، وانتصروا على تجمع عربي بقيادة قبيلة رياح، حتى أذعنوا بالطاعة لبني مرين، وبدأت قبائل البربر تذعن لهم بطاعتهم قبيلة بعد أخرى، لكن لم ينج بنو مرين من بعض هزائم الحقها بهم الموحدون، أشهرها هزيمتهم سنة ٦٤٢هـ، والتي أدت إلى قتل رئيسهم محمد بن عبد الحق، فرأس بني مرين بعده أبو بكر بن عبد الحق، الذي تمكن من السيطرة على مدينة مكناة، ورباط تازة سنة ٦٤٣هـ، وفاس سنة ٥٤٦هـ (٢٣)، ثم استعاد بنو مرين فاس مرة أخرى سنة ٦٤٨هـ، بعد خروجها عن طاعتهم، ثم أخذوا سلا سنة ٦٤٩هـ، ثم سجلماسة ودرعة سنة ٦٥٥هـ (وإن كانت سجلماسة ستخرج عن الطاعة إلى أن يستعيدها المرينيون سنة ٦٧٣هـ) (٢٤)

وبدأ التجمع السياسي المريني يخطو خطوات واسعة تجاه شكل الدولة، وكان عهد يعقوب بن عبد الحق الذي بدأ من سنة ٦٥٦هـ هو البداية الحقيقية لظهور الدولة المرينية، وفي عهده ظهرت المؤسسات وعين العمال من حجاب وكتاب ووزراء وقضاة، واستكمل يعقوب فرض سلطانه على سائر بلاد المغرب الأقصى، إلى أن تمكن من دخول مراكش إلى سنة ٦٦٨هـ، وقتل آخر خلفاء الموحيدين، منهيًا بذلك الدولة الموحدية، وارثًا ملكها في المغرب الأقصى.

٢٣ - انظر ابن أبي زرع: الأتيس المطرب بروض القرطاس ص ٢٨٩-٢٩٣.

٢٤ - المرجع السابق ص ٢٩٥-٢٩٦.

وهكذا ظهر إلى الوجود السياسى دولة فتيّة، حاولت أن تترث ملك
الموحدين فى المغرب الأوسط، والمغرب الأدنى، وأن تقوم بدور الحامى
للأندلس، وإن لم تتجح فى ذلك نجاحاً واضحاً أو متواصلاً، وقد مر أن الدولة
المرينية تمكنت مرتين فى فرض سلطانها على المغرب كله، ولكن لفترة
قصيرة لبضع سنوات عاد الأمر بعدها إلى التفكك إلى الوحدات الثلاثة: بنى
حفص بالمغرب الأدنى، وبنى زيان بالمغرب الأوسط وبنى مرين فى المغرب
الأقصى. ولم يكتب للمغرب بعد ذلك أن يحكم بدولة واحدة، مثلما حكمته
دولة الموحدين من قبل، فال أمره إلى التفكك بعد الوحدة.

أهم المصادر والمراجع

أهم المصادر والمراجع

١- المصادر والمراجع العربية

١- ابن الأبار : الحلة السراء ج ١، ج ٢ حقه وعلق حواشيه د.حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٥.

٢- دكتور إبراهيم العدوي:

- الأمويون والبيزنطيون البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، ط ٢، القاهرة ١٩٦٣

- بلاد الجزائر.

- موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي، سلسلة أعلام العرب ١٩٦٧

٣- ابن أبي دينار: المونس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام المكتبة، العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٧.

٤- ابن أبي زرع: الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣.

٥- أبو العرب: طبقات علماء إفريقية.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٧ (والجزء الثالث من طبعة دار صادر).

٢٥ - الحموى (ياقوت): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧.

٢٦ - ابن الخطيب:

- أعمال الأعلام، القسم الثالث، نشر د. أحمد مختار العبادي،
ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، سنة ١٩٦٤.

- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب
والأندلس، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، الاسكندرية
١٩٥٨.

٢٧ - ابن خلدون: العبر، وديوان المبتدأ والخبر... ج١، ج٢، ج٤
(طبعة بولاق)، ج٦ (طبعة بولاق، وطبعة بيروت
أيضاً)، ج٧.

٢٨ - الدباغ وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،
تونس ١٣٢٠هـ.

٢٩ - ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد (جزءان) راجعه
وصححه عبد الحليم محمد عبد الحليم، وعبد الرحمن حسن
محمود. القاهرة (بدون تاريخ).

٣٠ - الزركشى: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية

٣١ - دكتور سعد زغلول عبد الحميد:

- تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية عصور الاستقلال
منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٩.

- تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبنى مندرار والأدارسة
حتى قيام الفاطميين (٢)، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٧٩.

- تاريخ الفاطميين وبنى زيري (٣)

٣١- السلاوي: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر
الناصرى، ومحمد الناصرى، دار الكتاب الدار البيضاء،
١٩٥٤ (وطبعة مصر أيضاً).

٣٢- دكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر
الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة.

٣٤- الشماخي: السير ، تحقيق أحمد بن سعود السياب، ج ٢ سلطنة
عمان.

٣٥- ابن الشماخ : الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة
الحفصية. تونس، لجنة الطلبة للنشر والتعريب.

٣٦- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم) ط ٢ دار المعارف.

٣٧ - ابن الصفيير: أخبار الأئمة الرستميين، ١٩٠٧.

٣٨- ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب،
ج ١، ٢، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، الطبعة الثالثة،
بيروت ١٩٨٣، وج ٤ تحقيق د. إحسان عباس ، وج ٤ طبعة
تطوان ١٩٥٦.

٣٩- ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية تقديم وتحقيق
محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية
للنشر ١٩٦٨.

٤٠- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة .

٤١- لوبون: حضارة العرب.

٤٢- المالكي: رياض النفوس ج ١، نشرة د. حسين مؤنس.

٤٣- دكتور محمد حلمي محمد أحمد:

- الخلافة والدولة في العصر الأموي.

- الخلافة والدولة في العصر العباسي

٤٤- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في
المغرب والأندلس (قسمان) ط ١ ١٩٦٤.

٤٥- محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ج ١ ، ٣ .

٤٦- دكتور محمد عيسى الحريري: مقدمات البناء السياسي للمغرب
العربي،

٤٧- دكتور محمود إسماعيل: الأدارسة، الطبعة الأولى ١٩٩١ .

٤٨- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد
سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، ط ١، القاهرة ١٩٤٩.

٤٩- مرسية: مادة رباط في دائرة المعارف الإسلامية.

٥٠- المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثالثة
(مكتبة مدبولى)

٥١- المقرئزى:

- اتعاط الحنفا ج ١، تحقيق د. جمال الشيال.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان).

٥٢- المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق
د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

٥٣- النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب،

- ج ٢٤، تحقيق د. حسين نصار

- ج ٢٨، تحقيق د. محمد أمين، ود. محمد حلمى محمد
أحمد.

٥٤- الوزير السراج: الحل السندسية فى الأخبار التونسية، ج ١ (٤
أقسام)، تحقيق محمد الحبيب هيلة، تونس ١٩٧٠.

٥٥- يحيى بن خلدون: بغيت الرواد فى أخبار الملوك من بنى عبد
الواد، ومجلدان، نشرة الفرد بل الجزائر ١٩٠٣، ١٩١٠.

٥٦- اليعقوبى: صفة المغرب (المأخوذ من كتاب البلدان)، لندن،
بدون تاريخ.

ب- المراجع الأجنبية

57- Brunchvig, R.

-La Berbrie Orientale Sous Les Hafsides, Des Origines A La Fin Du XV^e Siecle, Deux Tomes, Paris, 1947.

58- Fage: J.D. An Introduction to the History of West Africa. Cambridge 1965.

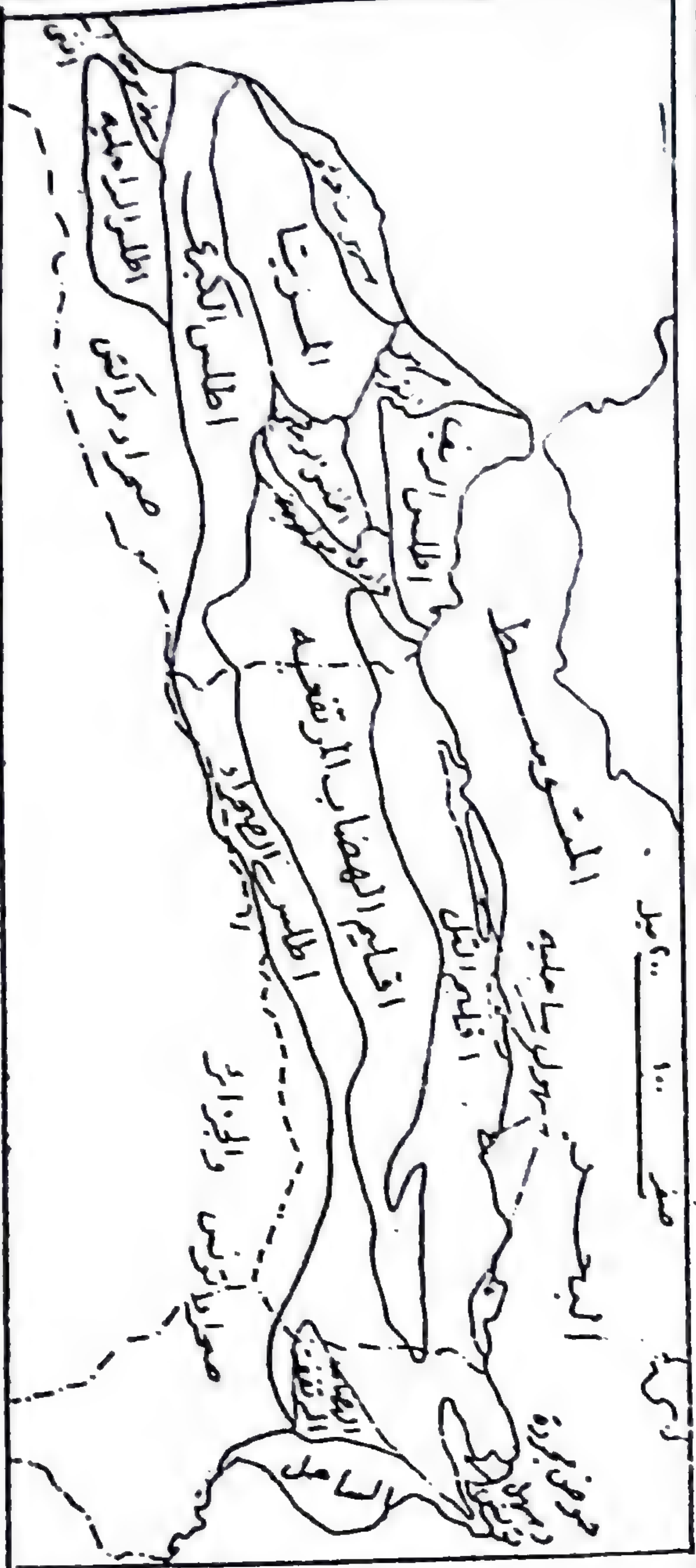
59- Hopkins: Medieval Muslim Government in Berbry until the Six centurey of the Higma. London 1958

60- Jakson: (G.A.) Algiers, Being a Complete Picture of the Berbry state. London.

61- Marcais: La Berbrie Musulman et L'orient an Moyen Age paris 1946.

62- Scott (S.P) Moorish Empire 2v. London 1904.

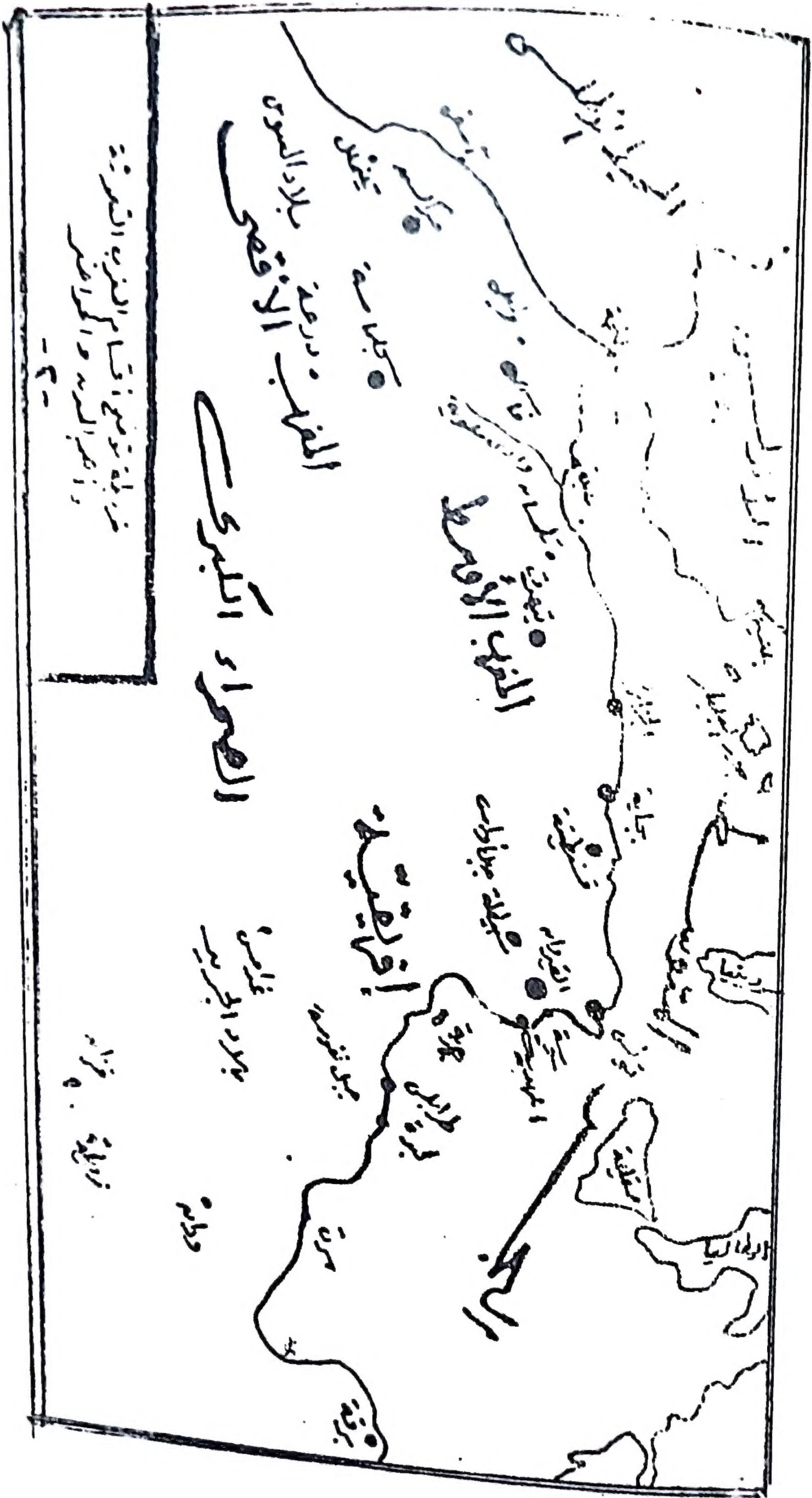
الخرائط



نقشه ديسري الملهري شمال أفريقيا

خريطة تونس وأقاليم المغرب

خريطة رقم ١



من بلدته تسمى قسائم الغرب الشمرية
وأعلى السيرة والحرارة

- ٢ -

زنجبار . صوترا

نفثك الذرور من الموضعين الكبيرين
 والدولة التي قامت مكانها في المغرب والاندلس
 ٦٣ - ٦٦٠ هـ = ١٢٣٢ - ١٢١٢ م

٠١١١٤٦١٩٧٤٧
محمد عبد الدايم